البيضة والبرص

البيضة والبرص

رواية

محمد أبو عبيدة

تصميم الغلاف: محمد علي

رقم الإيداع: 2343 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-80-1

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

محمد أبو عبيدة

البيضة والبرص

روایة

الإهداء

أنتِ مصدر إلهامي، فمنكِ وإليكِ هذا الكتاب

رحمة الله تغشاك

- 1 -

تقول إنني دائما شارد الذهن.. ولكنها وافقت.

تخطر هذه الفكرة في بالي بينما أنا أتهيأ صعود الباص للسفر.. الجو حار وكل الروائح اختلطت في الموقف برائحة العرق.. عطور نسائية رخيصة بالعرق.. كان هناك بائع يدحرج طاولة مليئة بالموز وحتى شذاها اختلط بالعرق.. الأطفال كانوا ينضحون لبنا بالعرق.. والرجال وأنا من بينهم كنا مصدر العرق.

أمسح جبيني بينما أصعد داخلا الباص.. فأجد الجو خانقا أكثر من الخارج.. وأنه قد امتلأ بالفعل وأمتعة الركاب تملأ الرفوف وحتى الممر.. أضطر أن أتفاداها متقافزا هنا وهناك.. بينما أحاول كظم غيظي.. كم أكره ذلك.. استطعت في النهاية الوصول لمقعدي.. أرفع الحقيبة الوحيدة التي أحملها.. وهي صغيرة نسبيا.. فأنا لن أقضي أكثر من أسبوع في دنقلا.. في البيت.. ستحزن أمي لكنها ستنسى كل شيء حين أخبرها بأنني أريد الزواج.. وهي التي كانت تلح علي منذ عامين بذلك.

أجلس على الكرسي قرب النافذة.. ثم أنتبه مباشرة إلى أن بعض الركاب يحدقون بي.. وأمامي يقف طفل ويتكئ برأسه على المسند محدقا بي.. يميل رأسه يمينا ويسارا متفحصا شكلي.. ثم يلتفت إلى أمه ويتحدث معها.. لابد وأنه يسألها ما بي.. وددت لو أجيبه أنا.. أقول أنني أبرص وأنه مرض.. ولست الغول الذي سيأتيك ليلا إن لم تنم.. أمك ستكذب عليك وستستخدمني لإرعابك.. سترمي النفايات.. وتذهب للدكان.. ستطيع كل أوامرها خوفا مني.. ثم ستتعلم في النهاية أنني مسالم تماما حينها سيكون الأوان قد فات.

أعود للنظر من نافذتي.. الباصات تملأ الموقف والناس يتحركون بعشوائية في كل اتجاه.. لكن هناك بطء في تحركاتهم.. فاقدو الحماس.. مثقلون.. البؤس يعم كل شيء والشمس تزيد من سحناتهم بؤسا.. أهرب من المنظر إلى الجريدة.. جريدة "الرؤية" حيث أعمل.. وقد أتيتها شابا غرا يكتب أولى مقالاته لجريدة الجامعة.. وكل ما يملكه هو توصية من خاله.. والكثير من الانضباط.. والقليل من الطموح.

أقلبها باحثا عن عمودي ليس لشيء سوى حكم العادة لأتأكد من أنني موجود.. أنني شخص في هذه الفوضى.. ثم أعود للصفحة الأولى لأقرأ العناوين.

"مستثمرون أجانب يصلون الخرطوم اليوم بحزمة قدرها 5 ملايين دولار"

ستسرق نصفها على الأقل.

"المفتي العام يندد بالظواهر التي بدأت تظهر على الشباب"

ليس لديه موضوع.

"حمى الذهب.. وقصة عن عجوز أصبح ثريا"

مجانين.

وصل أحد البؤساء وجلس قربي.. يرتدي ثوبا وتحيط برقبته سبحة كبيرة الخرز وينتعل مركوبا.. وعلى رأسه الأصلع قبعة خضراء.. لابد وأنه يتبع إحدى الطرق الصوفية.. أقرر مباشرة أن أتجنب الحديث معه وآمل أن يفعل المثل.. أعود للجريدة مرة أخرى بعد أن تحرك الباص وبدأ يهتز كأننا نجابه بحرا متلاطم الأمواج.

أعود لقراءة الجريدة والأحرف تهرب مني متقافزة حتى باتت الجريدة شاشة عرض لخيالاتي.. لا أنفك أتذكر ليلى.. في المطعم.. مرتدية بلوزتها السوداء المرقطة بالأبيض ووشاح الرأس الذي يحيطها

كتاج.. وتبرز خصلاتها السوداء الهاربة من تحته.. ثم النمش فوق سيف أنفها.. الذي أتبعه نحو مقصلة شفتيها.. مزينة بالبنفسجي.

تلفظ الكلام بغنج.. أتابع حركة شفتيها.

أنت شارد الذهن دائما عدني أولا أنك ستترك هذه العادة.

أعدك.. أرمي بالوعد على عجالة.

هممم..- تقلب عينيها- إذا أنا موافقة..

أمد يدي لأضعها فوق يدها اللدنة.. أشعر بسعادة.. ثم وكغرسة السكين أنتبه ليدي البرصاء.. فوق يدها.

أتراجع مفكرا.

فتسألني هي.. فيم تفكر؟

تعصف في رأسي جميع الشكوك.. وتتسابق نحو شفتي الكلمات لكنني أزمها قابضا.

لا شيء.

أنا سعيد فقط أقول صادقا.

تطالعني بنصف عين ونصف ابتسامة.. هي تقرأني.. فأشيح بنظري.. لطالما كانت لها القدرة على معرفة ما أفكر فيه منذ اليوم الأول.. بالرغم من أنني ما زلت أشعر بها عصية علي.. على أن أفهمها.. هي تحكي لي كل شيء.. وأعرف عنها كل شيء تقريبا.. ثم عندما آتي لأضع كل هذا وأتوقع ما ستختاره للغداء أفشل.. وعندما أتحدث عما أفكر فيه.. وهو في غالب الأحيان شيء أسود مقيت.. أتفاجأ بها تقول أن لا أحد يفهمها مثلي!

لكنها وافقت.. وها أنا في طريقي لأخبر أهلي ونتقدم لخطبتها.. وحينها سأهدأ.. وسيكون كل شيء واضحا.

حين أخرج من عقلي أنتبه أن أغلب الموجودين بالباص قد غفوا.. ولكن لوعورة الطريق أو شيء آخر لم أستطع أنا ذلك.. كانت الشمس قد ارتفعت بالكامل في السماء وأصبح المنظر عبارة عن بساط ممتد من الرمال الذهبية.. ويقطع المنظر بسرعة خاطفة كل بضع ثوان نبتة لا يتجاوز طولها نصف متر.. هدير المحرك كان مسموعا يطحن الوجود.. فجأة انحرف الباص داخلا محطة ليست في مرآي.. ثم فتح الأبواب معلنا أننا نملك نصف ساعة.

نزلنا من الباص.. كان أمامنا مباشرة ما يفترض بأنها استراحة.. عدة مبان مترامية يشكل كل منها وظيفة ما.. أحدها كان المطعم وهو عبارة عن مجموعة من الكراسي والطاولات تظللها شريحة من الزنك تقع أمام مبنى قد تقادم طلاؤه وتقشر من الأسفل.. وهناك يتيما على اليمين يقف دكان صغير.. الحمامات كانت بعيدة قليلا في صفين متقابلين.. ومن الخارج كان مكتوب بطلاء أزرق "حمامات عامة".. توجهت إليها ودفعت جنيهين لاستخدامها.. فأخرج لي الشاب المسئول أبريقا مملوءا بالماء.. وصلتني الرائحة العطنة ما إن وصلت الباب واستفحلت عندما دلفت.. استعجلت فعلتي وخرجت.. كان وقت الظهر قد دخل فصليناه جماعة على حصير تحت ظل شجرة.

عدت إلى المطعم لأن بطني كانت تخزني وما باليد حيلة.. سألت المحاسب الذي بدا ملولا جدا وهو يتفحصني.. وبدوري عاينته.. الغبار يغطي بشرته السمراء وكذلك شعره الباهت.. لم يكن ينظر إلي.

طلبت الفول فرمى إلي بخبزتين وورقة.. أخذت الصحن من المطبخ.. حبات فول تعوم في ماء وزيت فاتر.. وجلست في طاولة خالية.. بدأت

آكل من الشيء أمامي منعدم النكهة عندما جلس بجانبي الصوفي.. جاري في الباص.. وضع طبق البيض ونظر لي مبتسما..

مد صحنه وقال تفضل لنتشارك.

هززت رأسي.. متفحصا طبق البيض بلونه الرمادي!

أخذ الصوفي ملحا من الطاولة ونثره على طبقي وراح يأكل.. أخوك الشاذلي.. من الجزيرة.. منطقه اسمها ود الفضل هل تعرفها؟

راجعت في ذهني المناطق التي أعرفها في الجزيرة.. ولم تكن ود الفضل من بينها.. لا أذكر شيئا بهذا الاسم.

نعم سمعت بها.. اختصرته.

وأنت من أين؟

من دنقلا.

آآه حقا.. أنا ذاهب هناك لأول مرة.. لم أزرها من قبل.. مع أنه لا يوجد أي ضريح لأولياء صالحين هذا ما خطر ببالك أليس كذلك؟ فاجأني بجملته وابتسم بخبث.

لا أبدا افترضت أنك تعمل هناك أو تزور أهلا.

نعم فعلا أنا في الطريق لبيت أخي.. أزوره بعد أن عدت من مكة.. كنت قد اعتمرت.. غريبة هي الدنيا.. لم تكن العمرة في الحسبان هل تعرف.. كنت أعمل في الخرطوم وإذا بقريب لي كنت أشتكي له من ضيق الحال يخبرني أن هناك حملة ذاهبة للعمرة.. مجهزة بالكامل من فاعل خير وفي حاجة لسائق يقود لهم الباص هناك.. من مكة إلى المدينة وجدة هكذا.. وسبحان الله أنا كنت قد عشت في السعودية

سنتين من قبل.. فأخبرته.. وسارت الأمور.. وذهبت للعمرة معهم.. واستلمت مبلغا جيدا..

عمرة مبروكة.. قلت وأنا أمضغ من البيض.. أردت فقط أن أجامله.. فالأكل كله سيئ.

وأنت؟..

أنا.. منذر مالك.. ولا لم أزر مكة من قبل.

لابد وأن تفعل هذا فللحرم طمأنينة لا تجدها في أي مكان.. لكنني لم أكن أقصد العمرة.. أعني إلى أين أنت ذاهب؟

إلى أهلي في دنقلا.. أنا أعمل في الخرطوم.. لهذا..

مباشر جدا.. قال وهو ينفض يديه ثم يتكئ على الكرسي.. ثم أدخل يده في جيبه.

نعم.. هكذا هي الأمور.. قلت وأنا أشرب من الماء الذي كان على الطاولة.. ثم انتبهت إلى أن الشاذلي.. الصوفي.. أخرج سيجارة وأشعلها.. انتابتني الحيرة وأنا أراقبه وهو يأخذ نفسا عميقا ويزفره.. نظر إلي مكملا.

لا.. لا أظن أن الأمور تسير هكذا.. ليس هناك خط مباشر تسلكه دائما.. حتى هذا الشارع من الخرطوم لدنقلا متلو.. حتى تمر بأكبر قدر من المحطات.. قل لي.. هل أنت ذاهب لمناسبة؟.. أعني نحن لسنا في فترة إجازة أو أعياد..

لا أبدا زيارة عادية.

نظرت للشاذلي متمعنا فيه.. تساءلت عن الحق الذي يمكنه من التحدث بشكل مباشر هكذا.. لا يبدو أنه يكبرني سوى ببضع سنوات..

أعطيه خمسة وثلاثين على الأكثر.. أي حكمة يريد أن يحشرها في عقلي؟.

أومئ الشاذلي برأسه مرتين.

زيارة عائلية محضة.. كلام جميل.. لكن من يعلم قد ينتهي بها الأمر إلى سفر.. أو عمل.. أو زواج.. تغير للأفضل.. أو الأسوأ.. لا يوجد شيء عادي.. إلا لو سمحت له أن يكون عاديا.. لم تغتنم الفرصة أو لم تحاول.. قبل فترة كنت أعمل دهابا أتصدق.. كنت في مكان ليس ببعيد عن هنا أهيم في الصحراء.. يبدو لي ضربا من الجنون الآن.. وكأن شخصا غيري فعل ذلك.. لكن كنت أنا في حياة سابقة.. غريب لكن جميل.

لست نادما أتعلم.. ما أعرفه عن نفسي.. أنني أفعل ما أريد... لا ليس هكذا أنا أفعل ما يمليه علي الموقف.. ماذا يقولون نعم.. أنا أريد وأنت تريد ولكن الله يفعل ما يريد.. هذه هي.

ابتسمت.. هذا ما يريد أن يصل إليه.. لم يخيب ظني في النهاية.. لا يزال صوفيا.

على كل - قال وهو ينهض عن الكرسي - أتمنى أنني لم أطل عليك.. أنا فقط أردت الحديث معك.. فمظهرك يبدو مثيرا للاهتمام..

قاطعته تعني البرص.

نظر لي باستغراب وكأنه انتبه توا لهذه الحقيقة.

لا لا .. في وجهك شيء.. كأنك رأيت ما هو أغرب مما رأيته أنا.. تبدو نوعا ما خارج الأحداث.

خارج الأحداث!

لا يهم.. لا تشغل بالك.. أنا فقط أقول ما يخطر ببالي وهو ليس صحيحا طبعا.. على كل.. نلتقي.

تركني الشاذلي للحيرة.. وكنت حانقا مما استطاع غريب أن يفعله بي.. شارد الذهن تقول ليلى.. وخارج الأحداث يقول هذا الغريب.. ربما المشكلة فيهم هؤلاء الذين يمشون في الأرض ويطلقون الأحكام.. لا يعلمون أنا فقط متعب من كل هذا.

عدت إلى مقعدي في الباص فوجدت أن الشاذلي قد غير مقعده.. لا يهم إلى أين ذهب.. ربما وجد شخصا يظنه مثيرا للاهتمام.. شخصا آخر عاديا.

أسدلت الستارة على النافذة وانتظرت تحرك الباص.. لكن النوم غالبني في تلك اللحظة.

-2-

وصلت دنقلا في الساعة الرابعة تقريبا.. ولأنني أعرف والدي وعادته في البقاء في دكانه حتى المغرب قررت الذهاب للسوق أولا.. استقليت سيارة أجرة من الموقف.. في الطريق تبين لي أن المدينة لم تتغير كثيرا.. ربما اكتست الأبنية بالغبار الرمادي الذي صار يلون المدينة الحمراء.. وهذا ما أذكره عنها.. كل شيء كانت تشوبه حمرة.. في البنايات.. في وجوه السكان.. في الهواء.. كأن المدينة مشهد ثابت للغروب.. لكن الآن.. أصبح كل شيء قذرا.. ورماديا.

لمحت والدي حتى قبل أن أنزل من السيارة.. جالسا على كرسي خشبي أمام باب الدكان الضيق.. يلاعب شعرات لحيته التي تسلل الشيب لها وينظر بعيدا.. تلك النظرة التي ورثتها عنه.. ترى فيما يفكر؟.

نزلت حاملا حقيبتي ومشيت نحوه.. صعدت درجات المدخل دون أن ينتبه لي.. وضعت الحقيبة جانبا مغالبا شعوري بالحماس.

"يا حاج.. أريد ملوى من التمر" قلت مبتسما.

"تفضل.. يا ولد.. لا أصدق".

نهض والدي وعيناه تتسعان تدريجيا ومعها ابتسامته.. ثم ضمني بدهشة.. هناك.. وأنا أضمه.. أحسست بالعمر ينخر فيه.. في وزنه المتدني.. وعضلاته التي أصابها التراخي.. أحسست أنني أعتصر وسادة.. بالرغم من ذلك كانت رائحة العود التي تفوح منه تؤكد على أنه والدي.. وأن السنين لم تمر.. بعد أن تباعدنا أتيحت لي الفرصة لأتمعن فيه أكثر.. في ثوبه الأبيض الذي تحرص أمي على كيه وطيه مما

يثير حنق أبي الذي لا يحبذ وجود الطيات على ثوبه.. وطاقية الرأس التي يبرز الشيب من تحتها.

"حمدلله على السلامة لم تخبرني أنك قادم.. يا عمر".. نادى والدي.. فظهر من داخل الدكان صبي نحيل.

"هات كرسيا بسرعة.. واذهب لخالتك صفية وأحضر لنا كأسي شاي وماء.. أحضر الماء أولا.. هيا" كان والدي يطلق الأوامر كالرصاص كما عهدته.. أشفقت على الفتى الذي بدا متخبطا.. أعرف هذا الشعور.

جلست مع والدي تحت الظل أمام المدخل نتبادل كلمات تحايا علها تخفف لوعة اللقاء.. ثم صمتنا نستقبل الضجة المحببة التي تعم أجواء السوق.. تلك التي تكون في الخلفية لتذكرك أنك لست وحيدا.. باعة الخضر يفترشون الأرض.. وباعة الملابس لديهم طاولات على طول السوق.. وهناك أكشاك السجائر.. راقبت الناس يتحركون في لهفة لملاحقة أعمالهم ولوهلة بدا لي منظرهم عبثيا مثل الذي أراه في الخرطوم.. لكنني سرعان ما طردت الفكرة.. أنا أعرف بالتجربة أن هناك فائدة فيما يفعلونه هنا.. في أجواء العمل هذه.. لها معنى حتى ولو لم يكن مردودها المادي كبيرا.

فتح والدي هذا الدكان الصغير المليء بالحاجيات عندما كنت في بداية المرحلة الثانوية.. في تلك الأثناء كان جميع من في الحي.. بمن فيهم نحن.. نشعر بالسحق البطيء تحت وطأة المعيشة.. مما أدى لكثرة استلاف المواد بين الجارات ومن ثم انقطاعها مباشرة.. وكأن الناس فهموا أن الشح عام.. والأولوية يجب أن تبقى لمن في المنزل.. كان على والدي اتخاذ تغييرات ليحسن من وضعنا.. فقرر فتح محل عطارة في السوق.

استبدل غرفته في البيت التي كانت مكان عمله بأخرى مثلها حجما في السوق.. نقل إليها بعض محتويات غرفته واشترى الكثير من المستلزمات التي يعرف احتياج الناس لها.. بدأ بالبخور وأنواع مختلفة من الزيوت.. والعسل.. ونباتات عطرية ذات فوائد صحية.. ثم زادها بالفواكه المجففة.. التين.. الزبيب.. التمر.. كنت أساعده في المحل كل نهاية أسبوع.. وفي الأجازات.. ثم طاب لي البقاء فصرت أذهب يوميا.. وجدت في محله رائحة أزكى.. ومتعة في التعلم.. وصرت أقل حساسية إزاء مظهري ربما بسبب الانشغال عن التفكير.

جاءنا الصبي عمر بالشاي.. انحنى ليضعه على الطاولة بيديه المخدشتين.. ثم انصرف وأنا أتابعه.

"أرى أنك استبدلتني".. قلت.

ربت والدي على كتفي.

"عمر فتى مطيع.. قليل الكلام.. كان يعمل هنا في تلميع الأحذية فعرضت عليه أن يعمل معي.. ويخفف عني".

"هذا أفضل".. قلت وأنا أعيد النظر لجسد والدي.. في قدميه تحديدا وهي عادة تعلمتها منذ عرفت أن إهمال الأقدام لمرضى السكري قد تؤدي لبترها إن تعفنت.. أظن أن هوسا ما قد أصابني.. لم يسألني والدي عن سبب زيارتي بالرغم من أنه استغرب أن تأتي مفاجئة هكذا.. فدخلت صوب الموضوع مباشرة.. كنت مصرا على أن أتحدث معه أولا وعلى انفراد لهذا جئته في السوق بدل الذهاب للبيت أولا.

"يا حاج.. كنت أريد التحدث معك في موضوع".

اكفهر وجه والدي استعدادا لخبر سيئ.. فضحكت من تصرفه.

"اهدأ.. أنا أفكر في الزواج".

رفع والدي يديه في الهواء ولوح بهما.

"أخيرا..اقتنعت.."

هززت رأسي مبتسما وأنا أرى الفرحة في عينيه.. أكاد أقسم أنني لم أره بهذا المنظر يوما.

"أمك لن تصدق.. هل أخبرتها؟".

"ليس بعد... أردت أن أتحدث معك أولا" صمت برهة من الزمن أحاول صياغة سؤالي.. أنا أعرف تماما الإجابات التي احتاجها لكن طريقة الحصول عليها هي ما يخفى علي.

"هل تظن أنه قرار صائب؟" سألته آملا أن يفهمني.

استعدل هو الآخر عائدا لتلك النقطة في السماء يتأملها.. لاحظت أن التجاعيد حول عينيه قد ازدادت.. وربما نظره قد ضعف أيضا أراه يجاهد مضيقا عينيه بعد كل التفاته من رأسه.

"بني أنت كنت دائما تبحث عن شيء ما.. أنا أفهم لم كنت رافضا للفكرة في البداية.. ولكنك الآن قررت بنفسك.. لهذا أظن أنك وجدت ما تبحث عنه.. فلا تقلق وتوكل على الله.. أنا وضعي مختلف عنك.. أنا ووالدتك.. تعلمنا كيف نسير الأمور بيننا.. أمك حكيمة ولولا ذلك لما صبرت علي بكل مساوئي".

"صبورة جدا"..

ضحك والدي.

"نعم.. أنت قد لا تواجهك نفس المشكلة لأنك لست مثلي أنا أرى ذلك.. وهذا أيضا لا يعني أنك لن تواجه صعوبات.. فأن تعيش مع

إنسان آخر لم تكن تعرفه قبلا هو مشكلة في حد ذاتها.. عليك أنت وهي أنت تفهما بعضكما.. وتبتعدا عما يزعج أحدكما وتقديم التنازلات... كل هذا سيأتي عن طريق التجربة ومع الوقت".

صمتنا نمارس هبة العائلة.. كل منا داخل رأسه يفكر.

استقلينا حافلة مواصلات عامة للبيت من الشارع الرئيسي الموازي للسوق.. الحافلات في دنقلا أقل زحاما من الخرطوم وتكون متوافرة إلى أن يحل الليل.. فاليوم ينتهي فيها قرابة العاشرة ليلا.. عندما وصلنا ترجلنا وسرنا نحو البيت.. كان الظلام قد حل ومعه نسمات باردة خففت من قيظ النهار.. فكان تبين ملامح الحي لشخص غاب عن المكان قرابة الخمس سنوات شيئا صعبا.. سألني والدي عن ليلى.. وأين التقيتها ومن أهلها.. أخبرته بكل التفاصيل وزدت.. كنت أمشي الهوينا بينما هو يعقد يديه خلف ظهره في مشيته العسكرية العتيدة.. عندما وصلنا شارع البيت بدأت أتخيل الظلال بعين الذاكرة.. البيوت.. دكان عبدالفتاح.. والمنعطف الذي تقبع المدرسة في نهايته.. تبسمت تلقائيا حين مررت به..

أصابتني رعشة ما إن فتح والدي الباب الحديدي.. سمعت أزيزا من أطرافه الصدئة.. في الحوش.. تحت ضوء المصباح الفلورنسي.. رأيت خيال فتاة حسبتها أختي.. ولكنها ركضت مسرعة ما إن دخلنا..

"تعالي يا إيمان" يناديها والدي غامزا لي..

"لحظة".. تصرخ هي من داخل الصالة.. ثم تخرج تلف وشاحا حول رأسها.. تقترب فألاحظ زيادة الطول وأنها باتت تقارب طول والدي لكن يبقى كلاهما أقصر مني.. ورثت ملامح جدتي كلها حتى اسمها.. البشرة القمحية.. والعيون الناعسة.. لا أطيق الانتظار أكثر فأسير نحوها.. ثم أحتضنها بينما هي لا تزال تحاول الاستيعاب.. لم تعرفني إلا حين سمعت اللقب الذي أناديها به..

"كيف حالك يا حبوبه؟ كبرتي.. " أهمس لها..

تضحك..

"لا حولاااا.. لم أتوقع أن هذا أنت.. حمدلله على سلامتك"..

تشير إلى الداخل.. فأنطلق بحثا عنها.. أدخل الصالة ومنها إلى البهو عارفا طريقي وحين أقترب من غرفة والديَ.. أراها من الخلف مستلقية على جنبها.. شعرها معقود إلى الخلف محتفظا بسواده.. أظل هكذا لثوان قبل أن أقرر الدخول.. فتسمع هي وقع خطواتي وأنا أدخل.. ثم لا أتذكر كيف انتهى بي المطاف في حضنها.. ووجهي غائص في كتفها أعب من عبقها.. ترتخي عضلاتي بداية بقدمي.. فبطني.. ثم يصبح التنفس أسهل.. وكل شيء يأخذ مكانه في العالم..

أعدت لنا والدتي عشاء دسما.. لكنني لم أستطع تركها فكنت معها في المطبخ كأيام طفولتي.. أنا أتحدث وهي تروح وتجيء وتعجن.. ورائحة الطعام تداعب أنفي فأنتشل قطعة لحم من هنا.. وأقضم خيارة من هنا.. بعد العشاء أصر عليهم أن أنام في الحوش واضعا السرير أسفل شجرة الليمون..

قبل أن أنام أتذكر أنني لم أهاتف ليلى بعد فأتصل بها.. نتحدث طويلا.. تقول أنها تتحرق شوقا لمعرفة أهلي.. أعلم أنها ستصادق إيمان مباشرة.. هناك شبه في طريقتهما في الحديث وحماستهما.. أخبرها بذلك.. في النهاية تتركني هي الأخرى..

انقلبت على جنبي الأيسر فأصبح وجهي مقابلا لغرفة والدي القديمة.. على بعد بضعة أمتار.. حولت الآن إلى غرفة لاستقبال الضيوف.. أسمع صوت يعسوب يطن كاسرا هدوء الليل.. وضوء القمر ينسكب على الغرفة كالزئبق.. أتخيل جدرانها مضرجة بالدماء من الداخل.. وتتسع الهالة التي كانت تحيط بها قديما.. أهلوس بأنني أسمع نقرا على الخشب.. ثم أنتبه أنها لم تعد تخيفني..

-3-

استيقظت من النوم على زقزقة عصفورين فوق شجرة الليمون.. ضوء الشمس لا يزال خفيفا وهواء الصباح منعشا.. أتمدد على السرير مفكرا في لذة العودة للنوم.. أسمع وقع أقدام دون أن أرى صاحبها لكنني أعرف أنها أمي.. تمشي بهدوء كي لا توقظني.. أتكاسل بعض الوقت قبل أن أنهض..

أستحم سريعا وأغسل أسناني.. وعندما أخرج تستقبلني أمي بالشاي والكعك.. نجلس في الحوش.. أغمس الكعك في الشاي وآخذ قضمة متلذذا باليانسون.. تسألني كيف نمت.. فأجيبها بأن كل التعب زال.. بعد دقائق تنضم إلينا إيمان.. تحضر كرسيا وتضعه في مواجهتي إلى اليسار قليلا.. وتبتسم..

أسألهما أين أبي فيخبراني أنه ذهب للسوق باكرا.. فأعود أرتشف من الشاي.. ملاحظا أن أختي تسترق النظر إلي..

"كيف هي الدراسة أسالها؟"

"آآآه– تتنهد - سيئة.. .. لا أعرف من أين يأتون بهؤلاء الأساتذة كلهم لا يجيدون الشرح.. بالذات مدرسة الكيمياء.. كل شيء معقد.. كل شيء"..

أغالب الضحك.. أفكر في أن أختي ليست مثلنا.. فنحن عائلة قليلة الكلام.. أحس بها مكبوتة معنا.. تتحين الفرص لتنفجر بالحكي..

"هذا هو الطبيعي- أجيبها - عليك أن تجتهدي لوحدك في الدراسة"..

تطنطن أمي بشيء قبل أن تنهض حاملة الصينية.. أحسبها تشتكي من إيمان.. فترفع إيمان حاجبيها وترمقني..

"أنا أحاول.. لكن.. دعك من هذا.. الوضع ممل لم لا تأخذني معك للخرطوم وأكمل الدراسة هناك.. ها"..

"يا سلام!.. ومن سيساعد أمي هنا.. لا تحاولي"..

تصمت مفكرة.. وأعود أنا لشرب الشاي.. أرى أنها ما زالت ترمقني بطرف عينها.. تلتفت كالمجرمة نحو المطبخ لتتأكد أن أمي لم تخرج..

"هل تعلم.. هذه البقعة تغيرت".. قالت وهي تشير بأصبعها في حركة دائرية.. موجهة أصبعها نحو صدغي..

"ربما زاد حجمها".. قلت دون مبالاة..

"لا أظن.. دائما أشعر بأن وجهك مختلف.. في كل مرة أنظر إليه.. لا أمل أبدا"..

كانت تبتسم وهي تقول كلامها.. لو صدر هذا الكلام من شخص آخر كنت سأعده إهانة مبطنة بشكل ما.. لكنني شعرت بها صادقة.. وكأن شيئا جميلا في هذا المرض.. سهل عليها أن تقول هذا الكلام.. فهي لم تشهد تحولي.. لم تكن موجودة حين حدث ما حدث.. لا تعرف شيئا.. ربما لهذا هي مختلفة عنا.. وسعيدة.. أتساءل كثيرا إن حكي لها والداي عن زين.. وأخشى أن تسألني هي عنه يوما..

أنهيت الحديث مع أختي شاردا.. وحين عادت أمي انصرفت هي مذعنة لتبدأ مهام ترتيب البيت.. جاء الدور على أمي لتراقبني بابتسامة فعرفت مباشرة أنا والدي أخبرها بما أنويه.. تطلعت نحو السماء تاركا الأسئلة تلعب في رأسها مدعيا الغباء.. عدت أنظر لوجهها.. للنمش.. للذقن الصغير.. ولعينيها الممتلئتين بالترقب..

"أخبرني والدك بالأمس" قالت بعد أن يئست مني..

"هممم أخبرك بماذا؟"..

"لا تتغابى.. أنك ستتزوج طبعا"..

"حقا.. وما رأيك؟"..

"رأيي.. طبعا.. أنا سعيدة جدا لك.. متى تريد أن نخطبها؟"..

"سأرتب أن نذهب لهم الأسبوع القادم لو استطعنا.. أو أي وقت ترينه مناسبا"..

"أكاد لا أصدق.. سنين وأنا أحاول إقناعك.. يبدو أنها تحفة ليلى هذه".. قالت وهي تغمز لي..

في الظهيرة قررت أن أتمشى وما إن خرجت حتى تبين لي أن الحال لم يتغير كثيرا.. هزني الحنين وأنا أرى أطفالا يلعبون في الحي.. هذا الحي الذي كبرت فيه بدنقلا يسمى بالبان جديد.. ولا أعرف ما هو سبب إضافة كلمة جديد للاسم.. فهو ككل الأحياء عشوائي ومتهالك.. وربما أضيف أنه قذر بعض الشيء.. لكن وجوده في دنقلا يصحح ذلك الالتباس فيقال إن كلمة دونقي النوبية تعني المال متبوعة بلا النافية تفيد أن المكان بلا مال..

والدي كان إمام الجامع في الحي.. وكان بالإضافة لذلك فكيها.. يداوي الناس بالطرق التقليدية في بيتنا.. في تلك الغرفة.. كان كذلك من قبل أن أولد.. وكان جدي من قبله كذلك.. أما البيت الذي نسكن فيه هو ورثة أبي.. الابن الوحيد.. طوال حياتي ظننت أني سأكبر لأصبح شيخا مثله.. غير أنه لم يحاول دحرجتي نحو ذاك الطريق.. ولم أجد نفسي أسير باتجاهه.. وسواء فهمت أم لم أفهم ما يفعله والدي فقد كنت أرى احترام الناس له باديا في تعاملهم معه.. فأهل الحي كانوا يستشيرونه في أمورهم الخاصة من زواج وطلاق وتربية أبناء.. ويدعونه لجميع مناسباتهم.. ويتسابقون لتقديم الخدمات له..

أعتقد أن وضعنا بين أهل الحي كان ميسورا.. عاديا جدا.. الكل هنا كانت تمر عليه أيام صعبة وأيام حلوة.. لذلك كان من عادة الجميع المشاركة.. المضحك بالنسبة لي الآن.. أن نساء الحي كن يتبادلن الطعام.. والماء.. والقدور عن طريق الجدار.. فالجدران كانت قصيرة لتلك الدرجة.. أن تمد يدك فتصل لجارك..

في طريقي مررت بدكان الفاتح في الناصية وحييته.. لا أظنه لا يزال يتذكرني.. انعطفت يمينا حيث يتسع الشارع وتتباعد البيوت.. بل ويزداد قصرها وحالتها المهترئة.. بعضها عبارة عن طوب فقط بلا لون.. تقودني قدماي بحكم العادة.. حتى أخرج من نطاق الحي نحو حزام الأشجار الذي يفصلنا عن النيل.. أشجار نيم متفرقة ومتوحدة في صفوف.. وحدها الأشجار من يعطيها التقادم هيبة.. فقد ازداد عرض الجذع والساق.. وتكاثفت الأوراق.. حاجبة حتى السماء..

سرت بين الأشجار وكلما وطئت عودا أو ورقة ميتة أصدرت فرقعة تزيح الصمت.. لم يكن في الغابة غيري والطيور.. وحتى هي في وقت الظهيرة لم تكن تزقزق ضيقا من الشمس.. مررت يدي ملامسا كل جذوع الشجر أمامي.. وأشعر بأن حواسي تزداد حدة.. وضربات قلبي تتسارع.. وبعد أن أجتاز آخر شجرة.. أغمض عيني.. آخذ نفسا عميقا.. أزفره في نفس الوقت الذي أفتح فيه عيني..

أرى النهر يسير في حركته الأثيرية غير عابئ بعودتي..

"مرحبا".. يخرج صدى من عتمات قلبي.. ويبقى محبوسا هناك في قفص صدري..

أسير.. نحو مرتفع على الضفة.. التل.. الجبل.. أي كان اسمه.. ثم أجلس مراقبا حركة الماء.. ترتفع وتهبط في تناسق تسير قدما للشمال.. ورغم هدوئها.. أعلم.. أنها قوية بما يكفي لجرف كل شيء..

لا أتحدث ولا هو يرد.. لكن كل شيء يحدث في الداخل.. فبمجرد أن أندهش أنا من الفكرة.. من فكرة زواجي.. يندهش هو أيضا..

هو.. يحس بأن هناك خطئا.. وأنا كذلك..

يفهمني.. يسألني.. هل أنت خائف..

يزداد خوفي..

أنت تخشى أن يصيبها مكروه..

.. ..

لأنك تحبها..

.. ..

حين أعود للمنزل تكون المدينة قد غرقت في ظلام الليل.. أحاول أن أبدو طبيعيا.. أبتسم لكل كلمة يقولونها.. وأرد بشكل مقتضب.. لا أظن أنني أفلحت.. على العشاء.. يرمي والدي معلومة لا يحسب لها بالا..

"مروان مفقود.. يقول أهله إنهم لم يسمعوا منه خبرا منذ شهر.. من الأفضل أن تزورهم"..

-4-

لقد تغير الباب هذا أول ما فكرت فيه وأنا أمام بيت صديقي القديم مروان.. كانت هناك بعجة تحت المقبض من تسديدة كرة أيام الطفولة.. لا أتذكر من سددها.. لكن والد مروان استشاط غضبا وفجر الكرة بسكين مطبخ.. البعجة غير موجودة بل أن الباب كله تغير.. لونه الآن أسود مزخرف بأشكال هندسية بلون الذهب.. ومن الخارج.. أرى أنهم أضافوا دورا آخر للبيت.. ودهانه البني يبدو جديدا.. ربما هذا هو البيت الوحيد الذي تغير في الحي.. هو الوحيد الذي تحرك مع الزمن.. وكل شيء آخر يقف مكانه..

رفعت يدي لأطرق الباب.. فوجدتها ثقيلة متخاذلة.. ترتجف.. لم أنا خائف.. لا.. هذا الغضب.. أخذت نفسا عميقا وطرقت الباب.. لم أتحكم بيدي فجاءت أصوات الطرقات كالرعد.. أخذت خطوتين للخلف وانتظرت.. بعد ثوان تناهى لسمعي صوت خشخشة نعال.. ثم فتح الباب لتظهر من خلفه امرأة قدرت أنها في الثلاثين من عمرها.. تتوشح ثوبا أزرق.. بقايا الحنة تزين أطراف أصابعها.. وفي نظرتها شيء من البرود.. لم أعرف من هي فمروان لم تكن له أخوات..

"هل هذا بيت الحاج ياسر؟".. سألت وأنا أنظر للبيت متشككا..

"نعم.. تفضل".. أجابت وهي تشرع الباب..

دخلت إلى باحة البيت.. فحطت قدماي على سيراميك.. وقرب الحائط توجد أشجار زينة.. أدخلتني المرأة إلى المجلس واختفت بعد أن أضاءت المصابيح.. فظهرت الأرائك منظمة في مربع مغلق.. وفي المنتصف طاولة زجاجية وفوقها مباشرة نجفة مبهرجة..

بعد دقائق جاءتني المرأة بالماء والعصير.. وتبعها مباشرة الحاج ياسر متكئا على عكاز ورأسه قد اشتعل شيبا.. والتجاعيد حفرت أخاديد في وجهه.. وقفت أحييه فانتبهت أنه ضيق عينيه كأنه لم يعرفني..

"أنا منذر يا حاج هل تتذكرني؟"

"منذر ولد الشيخ مالك؟"..

"أنا نفسه"..

تهللت أساريره.. وفاجئني بحضن.. اعتصرني.. لم كل هذه الحميمية يا ترى؟!..

جلسنا نتحدث عن أحوال عملي وحياة العزوبية.. ومن جهتي كنت أسأل عن صحته وحال العائلة.. قطعت محادثاتنا أم مروان وهي تدخل.. تمشي مترنحة تجرجر وزنها الثقيل.. وفي وجهها الممتلئ علامات الإرهاق كأنها تلهث.. اقتربت منها ناهضا فعرفتني مباشرة.. وسالت من عينيها الدموع وهي تحتضنني أيضا.. كنت أعلم أن الدموع ليست لي.. إنها لمروان.. وأنا لست سوى شيء ذكرهم به..

لم أجد مفرا بعد أن جلسنا لا نسمع سوى صوت المروحة إلا أن أسأل..

"هل وصلتكم أخبار عن مروان؟"..

أطلقت أم مروان نشيجا هستيريا ثم حاولت كتمانه بطرف ثوبها.. الحاج ياسر كان أكثر اتزانا فطأطأ رأسه وهو يجيبني..

"أبدا والله.. لا أخبار منذ شهر تقريبا.. لا أحد يعرف عنه شيئا"..

"وألم تحاولوا التواصل مع من كانوا يعملون معه؟"

"بلى أخوه صالح ذهب بنفسه للدبة.. وسأل عنه.. وبحث في المشافي وبلغ قسم الشرطة.. لكنهم لم يردوا بأي خبر"..

انفجرت الأم كأنها لم تعد تحتمل..

"آآه يا مروان.. لطالما حذرته أن يترك ذلك العمل.. نحن لا ينقصنا شيء.. ملعون الذهب.. أصابه بالجنون.. آآه يا مروان.. "

"استهدي بالله يا حجة –قلت- إن شاء الله سيعود"..

"لم أفهم لماذا كان يفعل هذا.. بعد أن تخرج في الجامعة مباشرة أخذه ابن عمه معه.. لعب برأسه وأخذه لينقبوا في الذهب.. أول مرة لم نعترض قال سيجرب حظه.. وغاب لأسابيع بل شهور.. وعاد.. فتح دكانا في السوق.. وقلنا الحمدلله الولد عاد لرشده.. لكنه بعد فترة قرر أن يترك الدكان لأخيه ويعود للتنقيب.. سنين على هذه الحال.. لا نراه سوى شهرين أو ثلاثة في السنة"..

لم أعرف بم أجيب فهززت رأسي.. عاد الصمت مرة أخرى.. كان الحاج ياسر يطرق بعكازه الأرض كأنه يفرغ شيئا من توتره..

"أستطيع لو أعطيتموني صورة لمروان أن أنشرها في الجريدة حيث أعمل.. ولو رآه أحدهم فسيتصل بكم"

"جزاك الله خيرا يا ولدي.. حقا.. أنت وأبوك لم تقصرا في حقنا أبدا" أجابني الحاج ياسر بلا حيلة..

عادت المرأة ذات النظرة الباردة للمجلس.. هذه المرة كانت تحمل طفلة قدرت أنها في الثانية من عمرها.. جلست قرب والدة مروان تتفحصني من مكانها.. كان تركيزي على الطفلة.. سمراء بشعر خفيف ظريف.. ترتدي ملابس وردية..

مسحت أم مروان دموعها وابتسمت بحرقة.. ذكرتني بأمي.. مدت يديها للطفلة فانتقلت تلك بكل سلاسة إلى حجر أم مروان..

"أنت لم تقابل سمية.. زوجة مروان".. قالت أم مروان بصوت ملؤه الدموع..

هززت رأسي مترددا..

أكملت الأم هذه المرة مخاطبة سمية..

"هذا منذر.. هو ومروان كانا لا يفترقان في الصغر.. كالأخوة"..

أحسست بعبارتها كخنجر يغرس في قلبي.. بدأت بالغليان.. ولم أستطع أن أفتح فمي بكلمة.. أخذت سمية على عاتقها إكمال المحادثة الفاترة..

"لا لم ألتق به.. .. هل.. رت العـ س"..

وصلتني كلماتها متقطعة من الدوار الذي أصابني حتى أن مجال الرؤية ضاق.. هززت رأسي مبتسما وأجبت بنعم دون أن أعرف ما قالته..

ضحك الحاج ياسر..

"هل تذكر عندما هرب مروان من البيت وخبأته أنت عندكم ليومين.. كنتما مجرمين فعلا"..

اغتصبت ابتسامة لتخرج مني تحت الهلع الذي عصف بي.. لم أفهم ما يحدث لي.. تمنيت ألا يلاحظوا.. لكن وجوههم.. أعينهم كلها تركز علي..

نزلت الفتاة الصغيرة من حجر جدتها.. أراها تخطو بعبث.. تسير ببطء مبتعدة لداخل المنزل.. نراقبها.. تقف هناك.. ثم تقرر أن تسير

نحوي.. أشعر برعشة في قدماي تدعوني للفرار.. لكنني لا أتحرك.. تقترب الفتاة أكثر.. آمل أن تخاف مني وتعود لكنها مصرة..

تقف أمامي بعينين بريئتين.. كل شيء فيها صغير.. أنفها.. أذناها.. عدا الخدين الممتلئين.. تمد يدها إلي.. أسمع قهقهات أهل مروان بينما أركز عيني على الوحمة في يدها بحجم العنبة.. مروان كان يملك مثلها في عنقه..

أنتبه أنني تركت يد الفتاة معلقة لفترة.. أصافحها واضعا ابتسامة مزيفة..

"ما اسمك يا صغيرة؟"..

"غفاااان"..

تصحح والدتها..

"غفران.. أصر مروان على تسميتها بغفران.. يريد لأن يكون وقعه موسيقيا.. غفران مروان"..

قبل أن أخرج أحضرت لي زوجة مروان صورة شخصية له.. لم يتغير من ملامحه سوى بروز عظام الوجه أكثر.. من الوهن.. وعيناه كانتا مثقلتين.. لكنه في المجمل عادي..

خرجت من بيتهم وأنا ثقيل.. تذكرت وأنا أسير نحو بيتنا ذلك اليوم حين طلب مروان مني أن نضرب أخاه صالح لا أتذكر السبب لكن مروان كان يبكي وهو يطلب مني ذلك.. فتكالبنا عليه.. انتظرناه في البيت وبأيدينا حفنة رمال.. كنا في الخامسة من العمر.. ضعيفين.. وهزيلي البنية.. وقفت أنا في منتصف الغرفة مضطربا.. وهو اندس خلف الباب.. يتحين لحظة الانقضاض.. في اللحظة التي دخل فيها صالح.. جبنت.. نظرت لقامته العالية والكدمة على جبينه.. ازدرت

ريقي ونظرت جهة الباب.. كان مروان يشير إلي أن أرمي الرمل في وجه أخيه..

"لماذا أنت مفجوع هكذا؟" سألني صالح..

هززت رأسي.. ونظرت للباب مرة أخرى..

"ما بك؟"

"لا شيء"..

لم يطل صالح استجوابي فهو لم يكن يعنيه أمري حقيقة.. وعندما خرج مروان من خلف الباب كان غاضبا.. طردني..

"اخرج.. لا تدخل هنا مرة أخرى.. جبان.. ما زالت كلماته تتردد في أذني"..

وجدت نفسي أسير نحو البيت وخيط من الرمل يسيل من يدي.. شعرت بأني خذلته حقا.. لو أن طفلا يفهم عمق تلك الكلمة..

-5-

لم أطل بقائي أكثر مما هو متوقع ففي نهاية الأسبوع حزمت حقيبتي للعودة.. كنت قد اتفقت مع والدي أنني سأعود أولا ومن ثم سيقومون هم باللحاق بي ريثما أهيئ الأوضاع للقاء أهل ليلى.. وقبل أن أتجه لموقف الباصات مرة أخرى.. زرت النهر والسوق مع والدي.. وشوارع الحي.. كان هياما أكثر من كونها تحركات ذات قصد..

في الباص كنت أجلس في مقاعد أمامية أرى الطريق من الأمام وعلى النافذة يميني.. ومن مذياع الباص كانت تتردد أغاني الحقيبة بشكل عشوائي.. تارة يغني وردي بصوته المبهج.. وفي أحيان ينشج مصطفى سيد أحمد.. وعثمان حسين غير أن كل ذلك يبقى في خلفية عقلي.. أجدني أردد جملة أو اثنتين مع بعض الأغاني ثم يعود الصمت في الدهاليز..

قرأت اللوحة "تصحبكم السلامة" بعد ساعة من انطلاق الباص.. وهي علامة على خروجنا من دنقلا.. الرمال من النافذة كما تركتها في رحلة القدوم..

أسندت رأسي على النافذة وعيناي مثبتتان على هشيم جبل في الأفق.. يتيم.. وضبابي.. كنت أشعر بأنني أسير قدما نحو وجهتي ومقصدي.. وبسرعة تفوق تحملي.. ونظري مثبت على الجبل.. ربما لأنه الشيء الوحيد الذي بدا ثابتا في المنظر.. وأحسست بطريقة ما أنني مربوط به.. أو أن نظري لو انزاح عنه فسأتوه..

على الطريق رأيت لوحة تقترب.. وتزداد وضوحا.. كتب عليها "عطبرة 40 كلم.. .. الدبة 60 كلم.. .. الخرطوم 200 كلم"

لا يزال الطريق طويلا.. ولا يزال الجبل مثبتا بين عيني إلى أن ثقلت جفوني.. إلى أن غفوت..

عدت إلى الوعي بفعل الشمس التي كانت تنخر جبيني.. نظرت للساعة فإذا هي الواحدة.. تمددت وفردت قدمي على الكرسي.. لم يعد الجبل في مرأى.. المنظر أمامي للطريق الضيق.. ولا يبدو أن أحدا عداي والسائق يتابعانه..

"مدينة الدبة وسهم يشير إلى اليمين 10 كلم"..

قرأت العبارة.. ثم انقبضت معدتي بينما مفترق الطرق.. يظهر تدريجيا.. أحدهما ينحرف نحو اليمين..

ازدادت ضربات قلبي كلما اقتربنا.. كل شيء سريع.. شتلات على طرف الطريق.. خطوط بيضاء.. المفترق يكبر.. نمر بقربه.. نتجاوزه..

أصدر فرقعة بأصابعي..

"توقف هنا من فضلك"..

احتاج الباص عدة ثوان ليتوقف بالكامل ثم ترجلت من الباص وسط دهشة السائق وعدد من الركاب.. حملت حقيبتي ونزلت.. في الخارج.. كانت الطريق المعبدة تعمل كمقلاة والشمس تضرب بوهجها لتزيد النار.. أوليت ظهري للباص وسرت نحو منعطف الدبة.. ثوان وتلاشى صوت الباص من خلفي ولم يبق سواي.. لم يكن على الطريق غيري.. وقع خطواتي على الأرض وزمجرة السموم محملة بالرمال.. أخرجت قنينة ماء من حقيبتي ورشفت منها.. ثم فككت بعضا من أزرار قميصي..

سرت في الطريق أحسب كم من الوقت سأستغرق لقطع العشرة كيلومترات.. لم أكن أشعر بالخوف لأنني أيقنت أن سيارة ستمر متجهة للدبة عاجلا أم آجلا..

عندما وصلت المنعطف وبدأت السير نحو الدبة كنت قد فكرت مليا في ما أريد أن أفعله.. فنزولي من الباص كان نزوة اتبعتها.. وأثناء سيري رحت أبحث عن مسوغات لما فعلته.. وتوصلت إلى أنني سأسأل.. ما أن أصل إلى المدينة عن مستجدات البحث عن مروان.. أين؟ في قسم الشرطة وستخولني وظيفتي كصحفي التمحيص في كل شيء على الأقل مع بعض التعاون من الشرطة حتى ولو لم أكن فردا من العائلة..

تناهى لسمعي صوت سيارة مسرعة.. توقفت مشيرا إليها.. كانت سيارة بيضاء صغيرة حشر بداخله أفراد عائلة لم يعبئوا بتلويحي.. راقبتها تنفث دخانها من الخلف.. بعد مدة توقفت بقربي سيارة بوكس.. كان السائق وحيدا وقليل الكلام.. كثير التدخين ويلف وشاحا في الجو الحار.. غريب جدا.. لم يسألني سوى عن وجهتي وأخبرني أنه سينزلني في موقف الدبة وكأنه شيء روتيني يفعله كل يوم.. وربما فعلا كان هذا حاله..

وصلت مدينة الدبة في نهار صيفي مستعر.. كان البخار يتصاعد من الأجساد.. والطرق.. القطط كانت تتشاجر مع بعضها من أجل الظل.. شكرت السائق بعد أن أنزلني في الموقف ورحت أجول بنظري في المكان.. بينما كان المارة يتخبطون بي تناهى لسمعي نداء.. أحسست به عذبا منسابا داخل أذني.. لكنه كان بعيدا.. التفت باحثا عن مصدره.. فوصلني خيط رهيف منه.. اصطدته.. أو اصطادني.. تبعته.. أو قادني دون أن أستطيع الإفلات من فضولي.. وأثناء اقترابي غصت في غياهب الصوت محاولا رسم صورة لصاحبه.. لم أستطع الجزم مباشرة لكنه

كان أقرب لصوت أنثى.. غير أن في الصوت بحة تكاد تصير خشونة.. مما جعلها نشيجا.. أو ربما بكاء.. الصوت مزيج من الناي والكمان.. لكنه نابع من حنجرة.. شعرت أني وصلت.. توقعت أن أجد حشدا يبحث عن الصوت مثلي لكن العشوائية كانت قائمة وفي منتصفها.. تحتها.. وجدت صاحبة الصوت مفترشة الأرض..

كانت عجوزا محنية الرأس فلم أر شيئا من ملامحها.. وأمامها صحن عليه عدة ورقات نقدية..

"يااااااا سايرين الليل.. يااااااا راكبين الخيل.. .. قولوا لمحمد أخوي الجووووع أكلني الجووووع أكلني"

هكذا كانت تغني.. نقدتها بضع ورقات ثم شققت طريقي أبتعد تدريجيا حتى وصلت نهاية الموقف لأجد عدة سيارات أجرة في الانتظار.. ناداني أحدهم بإلحاح "تفضل هنا.. هنا سأوصلك بسرعة.. هنا" اقتربت منه ففتح لي الباب ووضع الحقيبة في الخلف.. ثم عاد وجلس في الكرسي مبسملا.. تولى زمام الأمور حتى وددت أن يستمر الوضع هكذا..

"سألني السائق إلى أين؟"

جزء مني أراد الراحة لكن لم يكن هناك وقت لها..

"قسم الشرطة الغربي"..

لم أفاصله كثيرا في الأجرة لأنني لا أعرف المدينة.. لكني رأيت ابتسامته تشي بالفرحة مما يعني أنني وافقت على مبلغ فادح..

"من الخرطوم.. أليس كذلك؟"

هززت رأسي..

أخذني السائق عبر طريق وعر.. كانت السيارة تهتز كأنها في عرض البحر.. لكن العذاب الحقيقي كان في كثرة كلامه..

"خيرا إن شاء الله.. لماذا أنت ذاهب للقسم؟"

لم أرد أن أطلعه على خصوصياتي.. كما أن تفسير ما فعلته كان صعبا فأخبرته أنني هنا لتغطية بعض الأخبار.. أي شخص طبيعي كان ليتوقف هنا لكن إصرار ذاك الرجل يفتت الصخر..

"يااا رجل.. صحفي.. لماذا لم تقل هذا من البداية لا داعي للذهاب للقسم.. دعني آخذك للنادي هناك تسمع الأخبار قبل أن تصل حتى للقسم بل وبتفاصيل لا تعرفها الشرطة نفسها.. كما ترى المدينة صغيرة وكل شيء يحدث فيها يعرفه الجميع.. بالأمس فقط حدث شجار في السوق طعن فيه شاب وهو منوم في المشفى بين الحياة والموت.. أم أنك تريد أخبارا عن المخدرات.. هذه أيضا كثيرة.."

كنت أهز رأسي وأبتسم كالآلة..

"أتعلم حتى قصص الدهابة تصلنا هنا" قال وأشار بعيدا..

"أترى تلك البناية هناك.. يملكها شاب صغير.. محظوظ.. ذهب للصحراء وعاد بعد سنة بقطعة كبيرة.. عشرة كيلو.. تصدق.. أنا أعرفه شخصيا لو أردت التحدث معه"..

"ربما.. نعم"..

أوقفني السائق بعد ربع ساعة تقريبا أمام القسم.. وعندما نزلت تحسست جيبي بحثا عن المحفظة.. ثم فتحت حقيبتي فلم أجدها.. وشيئا فشيئا أدركت حقيقة أني سرقت.. كنت أقف هناك.. الشمس تغليني في مدينة لا أعرف أحدا فيها.. وبلا مال.. تدخل السائق فشرحت له الوضع.. أعطيته مبلغا صغيرا من جيوبي والحقيبة.. وأخذت رقم هاتفه واعدا إياه بتسديد الباقي.. كان ضيقي مما حدث مضاعفا ذلك

أنني صرت مدينا لشخص لم أستسغه أصلا.. مما يجعله أفضل مني بطريقة ما..

دخلت القسم لاعنا في سري كل شيء.. وفكرت أنني لو وجدت سارقا هنا فسأكسر عنقه انتقاما منهم.. وللأسف أو الأفضل وجدت القسم شبه مظلم.. وخاو.. وقفت في المدخل أبحث عن استقبال أو ضابط لأسأله.. تجرأت على دخول أقرب غرفة.. كانت نافذتها مفتوحة متيحة للضوء والذباب الدخول.. وجدت ضابطا يوجه المروحة نحوه ورغم ذلك كان يتصبب عرقا.. سألته أين أجد المحقق كمال.. فرد دون أن ينهض من استلقائه..

"وماذا تريد منه؟"

"لدي بلاغ هنا.. أريد معرفة المستجدات"..

"هل اتصل بك؟"

"لا"

"إذا لن تكون هناك مستجدات"..

خرجت من غرفة المعتوه ورحت أبحث بين مكاتب المحققين عن الاسم الذي ذكره لي شقيق مروان.. ما إن وجدته حتى طرقت الباب.. أعدت الطرق فجاءني الصوت من الداخل يشير علي بالانتظار..

جلست على كرسي في الممر أراقب بعض الصور المعلقة.. تكريمات للمسئولين.. صور للرئيس.. خرج شيخ بعكاز ليس للاتكاء إنما كزينة.. عرفت من مظهره الأنيق أنه ربما يشغل منصبا هاما.. ينقر الأرض بعكازه بعد كل خطوة.. خرج في أثره المحقق ككلب وديع..

"لا تقلق سيادتك.. سيمحى البلاغ حالا"..

زفر المحقق بعدها نفسا طويلا تعبيرا عن استيائه.. لاحظني أراقبه.. حدق بي لثوان.. متجولا بعينيه حول برصي.. "تفضل" قال مشيرا

للمكتب.. مكتبه كان نظيفا بعكس القسم ككل.. يعبق برائحة السجائر.. جلست مقابله على الطاولة بينما طلب فنجان قهوة لي..

"تفضل ما المشكلة؟"

"اسمي منذر مالك قريب لشخص اسمه مروان ياسر.. هو مفقود منذ شهر تقريبا ولم تصلنا أي أخبار عنه.. كان يعمل دهابيا في السوق القريب من المدينة هنا"..

نهض المحقق وبحث في خزانة ملفات عن البلاغ.. كنت أسمعه يهمهم.. نظرت لفنجان على الطاولة مليء بأعقاب السجائر.. داهمني شعور بأني قد أعود للتدخين..

"هذا هو" هتف المحقق كأنه حقق انتصارا..

"مروان ياسر.. عمره 31 يعمل مع الدهابة في سوق الدبة.. هممممممم"

ماذا؟ سألته..

"لا شيء.. - قال وكأنه يدفع تهمة- مذكور هنا أن الشرطة ذهبت للسوق.. وسألت عنه المجموعة التي يعمل معها.. يقولون إنه ينقب معهم في بئر سجاد منذ مدة طويلة.. لكنه قرر هذه المرة البحث وحده جهة السحالب.. ولم يروه بعدها"..

"وأين تقع السحالب هذه؟" راقبت المحقق يعود من الخزانة نحو كرسيه.. رمى بالملف الأخضر على الطاولة أمامي وجلس..

"غرب الآبار التي ينقب فيها الدهابة عادة.. منطقة خالية.. الذهب يدفع الناس لفعل أشياء جنونية.."

"وهل بحثتم هناك؟" اقتربت مائلا من الطاولة أكثر كأنني أريد الوصول للملف غريزيا..

"هناك.. تقصد الصحراء.. طبعا لا.. لا يمكننا إرسال مجموعة لتبحث في خلاء قدره كذا وكذا.. هذا غير منطقي"..

صمت أفكر في ما أريد قوله.. وما أتاح لي الوقت أن امرأة طرقت الباب ودخلت حاملة القهوة.. المحقق أشعل سيجارة وبدأ يشرب من القهوة ثم يتبعها بدخان السجائر..

"لكنها الطريقة الوحيدة.. كيف سنجده إن لم نبحث هناك.. ما العمل إذا؟" قاطعت تلذذه بالقهوة..

"ما رأيك أنت؟ ماذا تريدنا أن نفعل؟"

نظرت لوجهه.. لعينيه.. لزوايا فمه محاولا أن أفهم إن كان يهزأ بي..

"لا أعلم.. نحاول البحث عنه مرة أخرى؟"

"اسمع أريدك أن تفهم الوضع.. لو عاد صديقك للسوق فكان سيحاول التواصل معكم.. صحيح؟.. ولو أنه ظل في الخلاء كل هذا الوقت فلا أعلم كيف سيعيش حتى نجده.. هل فهمت ما أريد إيصاله؟"

"تعني أنه مات؟"

دهس المحقق عقب السيجارة في الكأس..

"احتمال كبير.. نعم.. هذا ليس شيئا جديدا.. كل يوم نسجل بلاغات مفقودين من الدهابة وكل يوم تصلنا جثثهم"..

"إذا أين هي جثته؟"..

عض المحقق فكه كأنه يهرسني بين أسنانه..

"قلت لي أن اسمك منذر.. حسنا يا سيد منذر سأعلمك إن استجد شيء.. "..

-6-

خرجت من القسم وآلاف الأسئلة تتسارع في عقلي.. كنت مشتتا لدرجة أن قطة مرت قربي فرحت أحدق بها.. وتحدق بي.. همست أسأل.. ماذا أفعل الآن؟.. فهزت ذيلها وتركتني لجنوني..

سرت غاضبا بسرعة.. وبلا وجهة.. كنت أفكر في كلام المحقق عن احتمالية موت مروان.. لم أصدقه.. هو لا يملك دليلا واحدا على موته.. كل ما يريده هو الراحة والجلوس خلف مكتبه.. فهو بكل بساطة لا يهتم لأمر دهابي مفقود.. أما أنا.. بدا أن ما من خيار أمامي.. لابد أن أجد إجابة ما على الأقل.. لو أنه مات كما يقول فمن الأجدر أن أبحث في المستشفيات.. كنت قد وصلت شارعا رئيسيا.. تلفت حولي.. لا أعرف أي شيء في المدينة وكان لزاما علي أنا أجد حلا لمشكلة السرقة وانعدام المال الذي أواجهه..

أخرجت هاتفي واتصلت بزميل لي في الجريدة.. طلبت منه أن يرسل لي مبلغا من المال على هاتفي.. شرحت له جزءا مما حدث معي وأعطيته تلميحا عما أود فعله.. ثم طلبت منه أن يذهب لبيتي ويرسل لي صورة من جواز سفري كإثبات حتى أتمكن من صرف نقودي من البنك..

"والباب؟" سألني باستغراب.. "هل يملك أحد نسخة من المفتاح؟"..

"لا.. اكسره.. وسنتفاهم عندما أعود"..

استطعت صرف المال في أقل من ساعة.. تماما حين كانت الشمس تزفر آخر أنفاسها تاركة الساحة لليل.. سألت عامل البنك مباشرة بعد

أن أخذت مالي عن المستشفيات الكبرى في المدينة.. لم يبدو عليه أنه فهم فقام بتوصيف أقرب مشفى لنا..

"لا.. أنا أريد أن أعرف المشافي التي تحوي مشرحة"..

امتقع وجه الشاب قليلا..

"سمعت أن مستشفى الدبة العام يحوي مشرحة.. ولا أعرف غيرها"..

خرجت من البنك واستقليت حافلة التفتيش كما أشار لي عامل البنك.. أخبرت السائق أن ينزلني في شارع السواري.. من هناك مشيت قرابة الربع ساعة حتى رأيت سور المشفى والمبنى ذا الطابق الواحد ممتدا على مساحة واسعة.. عندما خطوت داخلا من الباب باغتتني روائح المنظفات والمرض.. مزيج يشبه العفن أو الفطريات.. لم يكن المشفى مزدحما ولم أتبين في الإضاءة الخافتة طبيبا أو مريضا.. الكل بدا مريضا.. غطيت أنفي وبحثت عن الاستقبال ظهرت لي من خلف الطاولة ممرضة متقدمة في العمر..

"أبحث عن شخص مفقود".. قلت مزيحا يدي عن أنفي ومغالبا شعوري بالغثيان..

ألقت علي الممرضة نظرة ازدراء.. وخطر في بالي أنها تشكك في رجولتي لأنني لم أتحمل الرائحة..

"ما اسمه؟" لفظت كلمتها وانحنت لتفتح سجلا أمامها..

"مروان ياسر"..

ارتدت الممرضة نظارات كانت معلقة حول عنقها.. وراحت تبحث.. انحنيت أنا أيضا أتابع حركة أصبعها بين الأسماء..

"منذ متى هو مفقود؟" قالت دون أن تزحزح نظرها..

"منذ شهر تقريبا"..

رأيت هزة صغيرة من رأسها بعد أن سمعت المدة.. ثم قلبت الصفحات للخلف.. وبحثت وقلبت وبحثت في النهاية أغلقت السجل معلنة أنه لا وجود لمروان ياسر حتى ثلاثة أشهر ماضية.. سألتها من المشرحة فقالت أن علي أن أخرج من المبنى وألتف حوله.. ثم سأنزل درجا إلى ممر وفي نهايته سأجد المشرحة.. سرت على هدى وصفها.. لكنني وجدت باب المشرحة مغلقا.. فانتظرت آملا أن يكون المسئول قد خرج لبضع دقائق فقط..

كان نظري مثبتا ودون انتباه نحو زاوية التقاء الأرض مع الجدار.. حيث الطلاء متقشر.. وصرصار بني يتحسس طريقه بشاربيه..

لماذا؟ ما الذي يدفع مروان لفعل شيء كهذا.. خطر السؤال في عقلي.. أظن أن صداقة الطفولة حتى مقتبل العمر تخولني أن أجزم.. مروان ليس هذا الشخص.. ليس شخصا يترك عائلته وحياته ليلاحق حلما بالثراء.. خصوصا وأنه قد صنع شيئا كافيا.. منزلا وزوجة وبنتا.. ومصدر دخل معقول في السوق.. إذا لماذا؟.. هل تغير في تلك السنوات الأخيرة.. كم هي؟ عشر.. اثنا عشر سنة.. هذه مدة طويلة.. لكن.. لا أعلم.. هل تغيرت أنا في هذه السنين؟.. لا أظن.. أعتقد أنني لا أزال ذاك الطفل الذي ارتكب خطأ فادحا وينتظر العقاب.. على الأقل.. هو خرج من تلك القوقعة.. وصنع شيئا لنفسه.. ما الذي فعلته أنا؟..

لا أعلم كم من الوقت بقيت هناك.. تطحن رأسي التساؤلات والشكوك.. أخرجني منها صوت رتيب لوقع خطوات تنزل الدرج.. أرى ظلا ممتدا لم أتبين صاحبه فالإضاءة قادمة من الخلف.. لكنني ألمح معطف الأطباء فأتوقع أنه مسئول المشرحة.. اعتدلت في وقفتي..

طاردا كل الأفكار.. وانتظرت وصوله.. عندما اقترب بدأت تفاصيله تتضح.. رجل في العقد الرابع.. له حاجبان مسطحان فوق أعين متجمدة..

لم يلق التحية بل أخرج المفاتيح من جيبه وفتح باب المشرحة.. دخلت خلفه في صمت..

في الداخل كان البرد قارسا ورائحة الفورمالين تطفح من كل شيء.. أشعل الأضواء فراحت تومض لفترة كالبرق يكشف الأهوال تارة ثم يتركك في العتمة تتخبط.. كل شيء كان مرتبا ونظيفا بعكس المشفى ككل.. يحرصون على الموتى أكثر من المرضى.. أو أن هذا مجرد جهد الطبيب في إبقاء مشرحته نظيفة..

"أبحث عن شخص مفقود" سمعت صوتي بطريقة مختلفة.. هناك في الأسفل..

"رجل أم امرأة؟" دخل مباشرة في صلب الموضوع بطريقة تشبه المجيب الآلي..

"اسمه مروان ياسر وهو.."

قاطعني "لا فائدة من أن تخبرني باسمه فلو كنا نعرف اسمه لأخبرناكم ولما كان مفقودا.. أعطني تفاصيل.. عمره لون بشرته بنيته ماذا كان يعمل"..

هززت رأسي..

"هو في بداية الثلاثين.. أسمر.. وكان يعمل مع الدهابة"..

"دهابي تقول لي.. حسنا"..

توجه الطبيب نحو ثلاجة حفظ الموتى.. كانت تحوي ستة أدراج.. فتح إحداها.. وعندما سحب الطاولة أصدرت تلك صريرا معدنيا أحسست به يشرخني من الداخل.. ثم أمسك الغطاء الأبيض ولم يرفعه..

"هل أنت أخ الشخص الذي تبحث عنه؟"

"لا.. أنا صديقه" قلت وأنا أراقب قبضة يده تشتد على الغطاء يكاد يكشفه..

"وهل ستستطيع معرفته لو رأيته.. الموت يغير الأشكال قد لا تفهم هذا.. لكن حتى أقرب الناس قد لا يعرفك وأنت ميت.. ربما بسبب الإنكار.. المهم هل ستعرفه لو رأيته؟"..

هززت رأسي لأنني لم أكن متأكدا..

نظر لي الطبيب متشككا لكنه عاد ورفع الغطاء عن الميت.. كنت أقف على مبعدة بضع خطوات.. ولكن البشرة التي بدت لي كانت قريبة من لون مروان..

"وصل هذا الدهابي قبل يومين.. ولم نعرف من هو"..

نظر لي بعينيه الجامدتين وكأنه يقول تقدم لا تخف.. أحسست بقدمي ثقيلتين كجسد ميت.. جررتهما ومشيت.. أثناء سيري كنت أقلب نظري بين الطبيب والجثة.. مما كنت خائفا لا أعلم.. فالجثث ليست جديدة علي.. ومروان لا أشعر تجاهه بشيء.. لكنني أملت ألا يكون هو.. وقفت قبالة الطبيب والجثة بيننا..

"يقولون أن جثته كانت ملقاة في طرف السوق.. يبدو أنه أغضب أحدهم".. قال الطبيب..

نظرت في وجه الدهابي.. له جبهة عريضة كمروان.. حواجب كثيفة.. أنفه لا يشبه أنف مروان ليس كما أتذكره لكن الأنف مزرق اللون ربما لهذا تأثير على حكمي.. الشفتان أيضا مزرقتان وغليظتان.. واللحية الكثة تحجب بقية الوجه.. وشعر الرأس كان كثيفا.. مروان كان خفيف الشعر.. لسبب ما لم أخرج الصورة التي أخذتها من أهل مروان لمقارنتها مع الدهابي..

كشف الطبيب الجزء العلوي من جسد الدهابي.. فظهر شقان غائران في البطن.. منجليا الشكل بأطراف حمراء.. يا لها من ميتة فكرت..

"هل هو صديقك؟" سألني الطبيب..

"لا أستطيع الجزم.. أعني لو كان مروان لعرفته بالتأكيد.. لكنني لا أستطيع أن أنفي أنه هو"..

"ألم يملك علامة مميزة؟.. كسر مثلا.. أو حرق ما.. أي شيء"..

اعتصرت عقلي لأتذكر.. لا أتذكر شيئا عن الكسور ولو حدثت فربما في الفترة القريبة.. وبالطبع أتذكر الندبة التي سببها له عمر صديقنا على خده لكنها تماثلت للشفاء..

"لا لا أتذكر شيئا كهذا.. لكن.. "غيرت زاوية النظر فانتبه لي الطبيب.. قام بتعديل رأس الجثة مفسحا لي المجال للرؤية.. لكن دون جدوى شعر الذقن يغطي كل شيء.. أخبرته.. فأحضر موس حلاقة وطلب مني تثبيت الرأس.. جفلت بداية.. لكن نظرته الثابتة أرغمتني على فعلها.. أمسكت برأس الدهابي بين يدي.. ورفعته.. كان متيبسا..

بدأ هو بحلاقة ذقنه.. أطبق صمت غريب يقطعه صوت الموس يشرخ الشعر.. كنت أشيح بنظري طوال الوقت.. وخطر ببالي أن الجثة

قد تتحرك في أي لحظة وتنفض يداي عنها.. لأنني أضايقها.. عندما انتهى الطبيب وسمح لي بالرؤية لم تتحرك أي صورة من ذاكرتي.. لا شيء.. كأنني أنظر لورقة بيضاء.. استنتج هو من نفسه..

"إذا هذا ليس صديقك.. أتمنى أن تجدوه"

ثم قام الطبيب بكل مهنية بتنظيف المكان وتغطية الجثة ومن ثم إرجاعها..

"يحدث هذا كثيرا.. قال الطبيب.. خصوصا للدهابة.. يموتون ولا نعرف من هم ولا يبحث عنهم أحد في النهاية ندفنهم بمعرفتنا بعد أن نأخذ لهم صورا"..

"هل هناك مشفى آخر علي البحث فيه؟"..

"الدهابة مصيرهم واحد إن هم اختفوا.. وهو الموت.. إما أن يموتوا في صحرائهم أو نجد طريقة فنحضرهم هنا.. ولو أنه وصل إلى المشفى مريضا فلابد أن أحدا كان يعرفه وتواصل معكم.. لذا أنصحك بالعودة هنا بعد أسبوع.. لا توجد مشرحة أخرى في المنطقة"..

خرجت من المشفى شارد الذهن إلى أن تعثرت بحجر وسقطت.. كانت السقطة مفيدة لأنها أخرجتني من الحالة الهلامية التي أصابتني.. فرحت أفكر بطريقة عملية أكثر.. لابد أن أجد مكانا للمبيت.. سألت هنا وهناك حتى وجدت فندقا معقولا.. واستطعت حينها استئجار غرفة فيه.. استلقيت على سرير غرفتي أفكر.. أو أنظر للسقف فقط.. كانت جملة واحدة تتردد في عقلي كلما توقف.. "سأذهب للسوق"..

عندما نظرت للساعة في يدي اليمنى والتي تغطي بقعة برص تحتها.. كانت تشير للثامنة.. كان تعبي أقوى من جوعي حينها فغرقت في النوم تحت ضوء المصباح الأصفر..

استيقظت في منتصف الليل على وقع خطوات في الغرفة.. أرى ظله تحت الضوء البغيض متراقصا.. حاولت التحرك.. النهوض.. الرفس.. الصراخ كله دون جدوى.. الشخص كان يستمر في التحرك البطيء حولي.. وكلما اقترب.. يغلي جسدي من الحرارة فينساب العرق خيطا على جبيني..

اقترب أكثر.. انحنى نحو وجهي ولم أستطع الالتفات لرؤيته.. كنت أشعر بأنفاسه حول أذني.. وفجأة صرخت واستيقظت فعلا من شلل النوم.. حاولت العودة للنوم مرارا.. وكنت في كل مرة أصاب بالشلل..

-7-

فتحت عيني مستقبلا شعاع الشمس.. ثم بدأ الصداع الفتاك يتكون على صدغي.. بقيت مدة من الوقت على الفراش أحاول استيعاب الحلم الذي راودني في الليل.. لابد وأنني مقيد بشيء ما.. هناك سلسلة غير مرئية تنتهي بجلمود حديدي يمنعني من السير.. لا يهم قلت في نفسي وأنا أزيح الستائر ليدخل المزيد من ضوء الشمس.. ومن ثم تفقدت هاتفي فوجدت عدة مكالمات من والدي ومن ليلى.. سيكون من العسير شرح ما فعلته.. على العموم قررت تأجيل كل شيء إلى ما بعد الإفطار.. خرجت من الغرفة إلى بهو الفندق وسألت عن مطعم فأشار إلي عامل الاستقبال إلى محل قريب..

في الخارج كانت الشمس قوية ليست كما تبدو من خلف النافذة لكن نسمات من الهواء كانت تحسن من الوضع.. سرت متبينا معالم المدينة التي لم أتفرغ لها.. ليست مختلفة بشيء.. أقرب إلى دنقلا بهدوئها ونظافتها من الخرطوم.. لكن الاختلافات بدأت تظهر ما أن وطئت قدماي المطعم.. حين وجدت أن أسعار الأطباق أغلى من الخرطوم.. فطبق الفول يناهز العشرين جنيها.. وهو شيء فادح.. عرفت فيما بعد أن ظهور الدهابة وتوافر المال بكثرة في المنطقة أدى لكل هذا.. فأهل الدبة يستغلون أولئك الدهابة عالمين أنهم يملكون المال بوفرة.. لكن ما ذنب أمثالي..

تناولت إفطاري على عجالة.. لأن المهم بالنسبة لي هو شرب الشاي فالصداع كان في تزايد مع كل حركة أقوم بها.. طلبت كوبا من نفس المطعم وشربته متمهلا.. ثم أتبعته بالثاني.. نظرت للساعة في يدي كانت تشير إلى الحادية عشرة.. لا يزال هناك متسع من الوقت لتنفيذ الفكرة التي خطرت لي.. لكنني قبل ذلك لابد وأن أطمئن الجميع على

حالي.. أخرجت الهاتف من جيبي واتصلت بوالدي أولا.. أخبرته أنني نزلت الدبة ولم أصل الخرطوم قلت له إن أهل مروان أوصوني أن أسال عنه في طريقي.. وأعلمهم إن استجد شيء.. صدق والدي ما قلت ودعا لي.. لا مشكلة فأنا تقريبا لم أبتعد كثيرا في كلامي عن الحقيقة..

أطلقت زفرة طويلة بعد أن أنهيت الحديث مع والدي.. المصيبة لا تزال أمامي كيف سأبرر لليلى ما فعلته.. وقبل أن أتهيئ نفسيا رن الهاتف في يدي.. اسمها يومض على الشاشة.. تحاملت على نفسي وأجبت..

"صباح الخير" أقول محاولا جعل صوتي مبتهجا..

"أي صباح أنه الظهر.. ثم أين كنت منذ ليلة الأمس.. ظننت أنك مت أو انقلب بك الباص وارتحنا.. لم لا ترد"..

"لقد كنت متعبا"..

تحولت نبرة صوتها مباشرة..

"آآوه ياللمسكين.. لا مشكلة ولو أن المكالمة ما كانت ستصيبك بالشلل لكنني سأعذرك.. ها وكيف حالك الآن؟"..

لم أعرف كيف أبدأ فناديتها وتلعثمت..

"ليلى.. أنا.. ما.. لم لم أصل الخرطوم بعد"..

"ما زلت مع أهلك.. أهاا يبدو أن الست الوالدة قد أغرتك بالبقاء.. كلام عجيب"..

"لا.. لست في دنقلا أيضا"..

"هربت وتركت البلد؟!"

"أنا في مدينة اسمها الدبة.. جئت أبحث عن صديق مفقود هنا.. عندما كنت في دنقلا عرفت بأنه مفقود وفي الطريق قررت أن أنزل وأسأل عن مستجدات البحث عنه.. كل شيء جاء بطريقة مفاجئة"..

"هممم وهل عثروا عليه؟" بدا أنها تفهمت الموضوع..

"لا ليس بعد.. قد أبقى ليوم أو يومين آخرين"..

صمتت ولم تنبس بكلمة.. حتى أن صوت أنفاسها اختفى..

"ليلى.. ناديت"

"نعم أنا موجودة.. ظننت أنني سمعت صوتا.. يومان ها.. أتمنى أن تعثر عليه حقا.. ويطمئن أهله"..

"نعم نعم لا تقلقي هو شيء علي فعله وأعود"..

"من قال أنني قلقة.. أنا فقط مستغربة لكنك ستحكي لي كل التفاصيل عندما نلتقي"..

"على الأقل اكذبي وقولي أنك قلقة" حاولت خلق دعابة لتلطيف الجو..

"اه لا تبالغ.. حسنا علي أن أذهب الآن.. أطلعني على المستجدات.."

انتهت المكالمة بشكل جيد توقعت أنها ستجن فعلا لكنها تماسكت.. ربما لأن هذا ليس أول عمل يصعب تبريره أقوم به.. تستسلم في النهاية وتترك محاولاتها لتفسير أفعالي.. حتى أنها تسديني النصح في حماقاتي بعد أن أكون قد اقترفتها.. نهضت من فوري بعد ذلك وعدت للفندق لأدفع أجرة اليوم التالي..

ثم ذهبت لمركز الحافلات في شدة القيظ.. كانت الشمس في أوج اشتعالها وأقرب ما تكون منا.. مشيت بين الناس أتخبط كالثمل ورغم

ذلك كنت أمشي متوثبا.. على غير عادتي.. لأني شعرت وللغرابة بأن هناك هدفا أريد الوصول له.. سألت عددا من الأشخاص في السوق عن الحافلات التي تتجه لسوق الدهابة.. وحصلت على عدة اتجاهات كان بعضها يعاكس الآخر.. دلني سائق حافلة إلى الموقف بعد أن تفحصني متشككا.. ونصحني بأن آتي في الصباح الباكر لأني لن أجد في مثل هذا الوقت سوى عربات نقل خاصة.. وأجرتهم كما قال السائق فادحة.. لكنني ذهبت على أي حال..

وجدت نفسي ابتعد عن الموقف وأصوات الباعة راحت تخفت حتى تلاشت.. ابتعدت أكثر حتى وصلت ساحة معزولة وفي وسطها رجلان يفترشان الأرض.. وأمتعتهما ملفوفة فيما يشابه أغطية الأسرة.. عرفت أني وصلت..

قاطعتهما محييا.. فرد علي أحدهما.. الأكبر سنا.. كانت ملامحه عربية وله جسم نحيل أما الآخر فكان داكن البشرة صلب العود..

"هل هذا موقف السوق؟ سوق الدهابة" سألت..

"آي نعم" رد النحيل..

"لا أرى أي حافلات"..

"حافلات؟! يبدو أنك جديد.. هناك شاحنات.. تأتي في أي وقت انتظر فقط"

هززت رأسي وابتعدت عنهما قليلا لأتيح لهما معاودة الحديث..

كنت قد انجرفت وراء خيالي عما أنا مقبل عليه.. حاولت وضع تصورا لسوق الدهابة وطبيعة المكان هناك.. قصص.. هذا كل ما أملكه.. يقولون أن الدهابة مجموعة من اليائسين والمجرمين والآملين في الثراء السريع.. هذان الرجلان لابد وأن يندرجا تحت هذا

التصنيف.. وأنا أيضا.. لكن أو ليس هذا حال الكل لا أحد يرفض فكرة الحصول على المال بسرعة..

لما رفعت رأسي لأنظر للموقف وجدت أن العدد يتزايد.. لفت نظري شاب بصخبه الواضح.. كان يتنقل بين الغرباء كأنهم أصدقاء عمر.. يلقي نكتة هناك.. وينفعل هنا.. استغربت من صغر سنه وشككت أن كان سيبقى هناك طويلا..

بعد طول انتظار وصلت شاحنة محملة بالخضر.. رأيت الناس يتجمعون حول السائق فعلمت أنه من سيقلنا للسوق.. اختلفوا معه.. أردت أن أشاركهم الامتعاض لكنهم قاموا بالواجب.. أراد السائق أن يأخذ سبعين جنيها للشخص.. فتوجهت عيناي لا إراديا نحو شاربه الكث وكرشه.. كانت هاتان السمتان مربوطتين دائما بالجشع وهو شيء اكتشفت صحته بالتكرار.. الجشع.. كان يعلم أننا في حوجته لذلك لم يتزحزح عن رأيه..

تكدسنا في مؤخرة الشاحنة فوق جوالات الخضر..

في الطريق سمعت بعضا من الركاب يتذمرون من الزحام في الشارع.. خصوصا وأن السيارات الأخرى كانت تنفث دخانها والهواء بطريقة أو بأخرى يوصله لنا.. المساكين لم يروا زحام الخرطوم حيث يقضي السكان معظم وقتهم في المواصلات.. مع وصولنا لأطراف المدينة قل الزحام المزعوم.. وفي طريق السفر لم يكن في الشارع سوى شاحنتان وربما سيارة أخرى نراها في خط الأفق..

لا أعلم كيف بدت الراحة على الجميع في ذاك الوضع.. فالطريق كانت وعرة وهيكل الشاحنة كان صلبا.. الألم كان مقاربا للجلد الذي نتعرض له أيام الدراسة.. أصغيت للتعارف الذي أداره أحد الركاب.. من أهل الشرق.. كان منفعلا كأنه معتاد على الخلاء ولو أن الشاحنة

استبدلت بناقة لشعر براحة أكبر.. كان يسأل الناس عن السبب الذي جاء بهم هنا.. وقد شعرت في نبرة السؤال والإجابة التي يعطيها الركاب أن في الأمر مرارة.. وبعض الخجل.. منظرهم كان مشابها لتعارف السجناء.. كأن السؤال هو لماذا سجنت؟ ما هي تهمتك؟.. وفي الإجابة.. كان هناك تسليم مطلق.. كأن الجميع هنا جاؤوا بعد أن استنفدوا كل الخيارات المتاحة لهم.. وبقي هذا الخيط.. أن يصبحوا دهابة..

عندما سألوني أخبرتهم أني أبحث عن صديقي.. وليتني لم أفعل.. رأيت في نظراتهم بل وتجنب النظر كلاما لم يرقني.. رغم أنهم دعوا له بالسلامة..

بيننا كان هناك فتى مهندما متعلما.. أعني جامعي.. عندما سئل عنه اسمه أجاب وأضاف أن تخرج في قسم الجيولوجيا بفخر.. وجدتني لا إراديا أحاول أتمايل محاولا رؤيته بشكل أوضح..

قاطعه أحدهم مباشرة أن لا دخل لما قرأه بما سيراه ويفعله أثناء التنقيب.. الموضوع يتطلب جهدا جسديا بالكامل.. والكثير من الحظ.. ثم قال "لو كنت محظوظا فلن تحتاج لشيء آخر في حياتك"..

أكمل الشاب الذي لم يخف غيظه من التعليق.. "على العكس.. لو طبقت العلم على التنقيب.. أو على أي شيء.. ستخرج بنتائج أفضل.. هذه مشكلتنا.. نعتقد أن السودان هنا لا يتبع قوانين العالم.. لا نطبق العلم.. فقط نعرفه لنندهش منه"..

شعرت أن رد الفتى لم يكن عفويا أعتقد أن كلامه جاء من إيمان وملاحظة للوضع المخيم على المجتمع.. الجميع هنا يعرف.. يعرف الكثير.. لأن الأولوية الأولى للآباء هي تعليم أبنائهم.. الدراسة هي كل شيء.. هي ما يحدد مدى نجاحك وقيمتك.. حتى أنك لو سألت أي أب عن حال أبنائه فلابد أن يربط حالهم بمدى تحصيلهم الدراسي..

سيقول لك ابني الأول على فصله.. أو سيقول أنه متنافس مع زميل له مرة هو الأول ومرة الثاني وستكون هناك غصة خجل في ذاك الرد.. لكن ما الذي يفعله الناس بكل ذاك العلم في الرأس.. المصير الأول والطبيعي هو النسيان طبعا وهو ما ليس لنا حيلة به.. الثاني أن يكون مصدرا للاندهاش كما قال الفتى.. قصة يحكيها الناس لكسر الصمت.. وهناك التباهي.. لا أظن أن التباهي بكمية المعرفة لدينا هي مشكلة كبرى.. بل أظنها نتاجا طبيعيا للتربية.. إن كانت قيمتك تتحدد بمدى معرفتك فلابد أن تثبت أنك الأعلم.. الأفهم.. وهذا ما أوصلنا لحب المغالطة..

دققت في وجه الشاب فلمحت نظرة إصرار في عينيه.. أو ربما هي فقط الشمس تدفعه للتكشير.. تمنيت أن ينجح في ما يريده.. أيا كان..

لا أعلم كم مر من الوقت تحديدا قبل أن استسلم الركاب تباعا للنوم.. أنا أيضا كنت أشعر بالنعاس بعد أن أرقني الشلل الليلة الفائتة.. وربما كانت هذه وسيلة من جسدي لمغالبة الحرارة.. لكني كنت متوجسا.. سمعت الكثير من القصص عن التيه في الصحراء خصوصا وأني لا أؤمن بالذين يستدلون بالتلال والجبال.. ثم طوال الطريق لم أر أي شيء مميزا.. فقط رمال من خلفها رمال.. ليس فيها أي أثر للحياة.. لا طائر في الجو ولا دابة على الأرض..

كنت أغفوا لثوان ثم أجفل فجعا حتى لمحته.. لاح لي السوق من بعيد.. كأطلال منسية وسط العدم.. وشعرت بالرهبة والأمان في نفس الوقت..

-8-

في يوم من عام 2006 أذن شخص أن رمال النوبة تلفظ ذهبا.. وبعدها بعام أذن آخران أن السودان يحوي كنوزا فلم يكن من الناس إلا أن لبوا النداء.. ترك المزارعون أراضيهم.. ونحر الرعاة ماشيتهم.. ومن كان يدرس فهؤلاء كانوا من المسارعين لترك تعليمهم.. حتى السارقين والمجرمين والعاطلين.. كلهم أجابوا المنادي وجابوا الصحراء طلبا للثراء..

انتشرت القصص كجنود النمل..عن الشيخ الذي أراد قضاء حاجته في البر.. فلما رفع حجرا إذا هو يبرق.. وعن الآخر الذي بحث عن حجارة ليوقد تحتها نارا.. ليغلي لبن ناقته التي لا يملك غيرها.. فإذا به يرزق بثمانية كيلوات من الذهب.. إغراء ما بعده إغراء.. جن الناس.. توافدوا بالمئات.. الألوف.. مئات الألوف.. الآن.. والعهدة على جريدة النبأ يعمل في التنقيب قرابة المليون..

لم أتخيل يوما حجم الظاهرة.. لكني عندما رأيت السوق عرفت أنني ما زلت طفلا يجهل العالم.. ثم إن التسمية في حد ذاتها تثير الجدل فإطلاق كلمة سوق لما هو خرابة يزيد من غرابة المكان.. فالسوق باتساع حي كامل مبني من الأخشاب والمظلات والخيم.. موزعة بعشوائية.. بعضها قماش مرقع أو بلاستيك.. وتحيط بالمكان مجموعة من الشاحنات..

نسيت سبب وجودي في أرض العجائب حين وطأتها.. سرت بين الدهابة مندهشا من كل شيء.. الوجوه كانت مختلفة.. الكل مغطى بطبقة ذهبية.. هل هي الرمال؟! لا لم تبد كذلك.. هل هو غبار الذهب؟!.. ربما.. حتى الماء الذي لذت به من حرارة الجو.. كان

مختلفا.. ربما شدة الظمأ جعلتني أستشعره كألذ ماء شربته في حياتي.. أو أن لغبار الذهب طعما لذيذا حين يختلط بالماء..

تجولت في السوق بخطوات وتيدة.. كان الزحام أشد وطأة من أي سوق قابلته في حياتي.. وهو السوق الوحيد الذي ليس فيه أي امرأة للمفارقة العجيبة.. رجال اشتعلت رؤوسهم شيبا وشباب وفتيان صغار.. تغطي بشرتهم مهما كان لونها طبقة إضافية من الغبار والذهب تكسبهم لمعة القطع النقدية.. مررت بمجموعة تفترش الأرض ويحتسون الشاي في عز القيظ.. احتموا من الشمس بغطاء ربطت أطرافهم على أوتاد خشبية.. أربعة منهم كانوا يلعبون الورق ويشتمون بعضهم..

لم يخرجني عن ذهولي تجاههم سوى قطيع غنم مر بقربي.. قطيع غنم مكتمل بالحوافر والثغاء وأضرعة اللبن.. هكذا بكل بساطة.. كأن وجودها هنا شيء طبيعي بالكامل.. خلفها يسير فتى بعصا يقودها حيث شاء.. لقد حول الدهابة الصحراء لناد خاص بهم لا يشبه أي مكان آخر.. أو مستوطنة.. ربما سيتحول لمدينة في بضع سنوات..

الكل في السوق كان يجعجع.. جعلني ذلك ألاحظ الصوت الذي يعلو فوق كلماتهم.. أزيز مستمر.. كأنها آلة تفرم أو تطحن.. تتبعت مصدر الصوت.. كان يخفت ويتلاشى ثم يعلو مرة أخرى.. وصلت تجمعا في منتصف السوق تقريبا.. اقتربت من رجال يفرغون جوالات الصخور في سير متحرك.. بدت صخورا من بقايا الجبال.. رمادية اللون.. يحملها السير داخل الآلة.. ثم تختفي ويعلو صوت الطحن ليعصف بنا غبار الصخور من شقوق الآلة..

"هيه يا ملك.. أحضر جوالاتك لتطحنها هيا خلصنا" صرخ شخص خلف الآلة يمسك بيد ناقصة الأصابع دفترا وقلما..

نظرت للشخص الذي كان يحدثه.. شاب يلف عمامة على رأسه قوي البنية.. بدأ بإفراغ صخور من جواله على سير الطاحونة.. ثم نقد صاحب الدفتر مبلغا.. عندما شغل ذو الأصابع الناقصة الآلة لم تعمل فبدا عليه الغيظ..

"ابتعدوا ابتعدوا قليلا" صرخ بنا وراح يتفقد آلته.. في مكان قرب السير علقت صخرة فأوقفت حركة الطاحونة.. حاول زحزحت الصخرة بعصا دون جدوى.. ثم قرر إدخال يده بين التروس المسننة..

"ألا تتوب أنت؟!.. ستخسر يدك كلها في يوم ما" أطلق شخص بيننا العبارة..

"هذا ليس من شأنك" أجابه قليل الأصابع وهو يحوس بيده داخل الآلة.. ويسحبها أحيانا بسرعة.. كان التوتر باديا عليه رغم الثقة التي كان يدعيها..

استطاع أخيرا سحب الصخرة.. فعادت الآلة تدور وتعالى أزيزها.. ذهبت إلى الجهة الأخرى فوجدتهم يعيدون تعبئة الجوالات.. لكن هذه المرة برمال رمادية.. ويضعونها على ناقلات بعجلات.. كان طفلا من يدحرج النقالة.. فتى نحيل قدرت عمره بثلاث عشرة سنة على الأكثر.. والفتى.. كانت له تجاعيد بين حاجبيه من التقطيب المستمر.. لم أر بقية وجهه لأنه كان ملثما..

دفع الفتى الناقلة وبها جوال بضعف حجمه.. فتبعت قدميه النحيلتين تاركا مسافة بيننا.. ابتعدنا عن السوق حتى طرفه.. لكن حركة الناس كانت مستمرة حولي.. وصلنا لواحة.. هذا ما ظننته في البداية لكن الماء الذي رأيتهم مغمورين فيه أقذر من مياه الصرف لونا.. وله رائحة السمك!.. رأيت أشخاصا في البركة يحملون أواني..

اقتربت من أحدهم.. كان إناؤه يحوي رملا وسائلا أبيض يتراقص كدودة.. راقبته وهو يحرك الإناء لدقائق دون أن أفهم ما يفعله..

أردت أن أسأله لكنه بدا منغمسا في عمله.. ملت نحو رجل على يميني.. من أهل الغرب.. ماذا يفعل؟ سألته..

"ابتسم في وجهي.. أأنت جديد؟"

لم أجبه..

"يا مدثر - صرخ الرجل بجواري فانتبه الذي في البركة -.. يسأل عما تفعله.. جديد هنا"..

ابتسم مدثر وهو لا يزال يلاعب الإناء في يده

"يا صاحبي.. هل سمعت بغسيل الأموال؟"

"نعم"

"هذا هنا.. غسيل ذهب"

صمت لأنني لم أفهم ما كان يرمي إليه.. ويبدو أنني أحرجته لأنه ظن أن دعابته التي ألقاها هي إبداع محض.. حين تأكد الرجل بجواري أنني لم أتجاوب أكمل هو..

"مدثر هذا غسال.. وهؤلاء كلهم غسالون.. أترى السائل المتحرك في الصحن هناك.. هذا زئبق.. يفصل الذهب عن الرمل.. .. فهمت يا صاحبي"..

"وأين الذهب؟" سألته وأنا لا أرى أي ذهب فعلا في الموضوع..

"طيب.. أترى هؤلاء الرجال هناك.. ستجده هناك"..

التفت حيث أشار.. نحو مجموعة قربنا..

قادني الفضول إلى مجموعة من الرجال.. يتحلق بعضهم حول نار.. وآخرون يحاولون إضرام أخرى.. وعلى النيران أوان.. أقول أنه لولا انهماكهم الشديد.. والعدائية التي قابلوني بها لظننت أنهم يطبخون.. لكن لا توجد وجبة في هذا العالم تدعو لكل هذا الاهتمام والعدائية.. جلست على مبعدة أراقب أحدهم يفرغ السائل الرقراق نفسه على المقلاة.. ويضعها على النار..

أنا أنظر بنهم إلى المقلاة.. وهم يراقبونني بتوجس.. البخار يتصاعد.. وفي لحظة لا تدركها العين يتحول السائل لقطعة ذهبية برقت كقرص الشمس..

-9-

ليس أن انهاري بما وجدته في السوق نضب إلا أنني في مرحلة ما تذكرت ما جئت لأجله.. أو لنقل لم يعد بمقدوري تفاديه أكثر من ذلك.. فقد كان يلح كصوت شخص يتعقبني في كل خطوة.. بدأت أنظر حولي باحثا عن شخص يبدو مسئولا في السوق.. حملت في داخلي بصيص أمل لم يدم طويلا بأن يكون في السوق تعداد.. أو تقسيم للأشخاص.. كإحصائية مثلا.. لكني عندما سألت وجدت علامات استغراب والكثير من ضحكات السخرية..

كان لابد من استخدام الطرق التقليدية.. تجولت بين الدهابة ورحت أسألهم عن شخص اسمه مروان ياسر يعمل هنا.. بنفس طولي أو يزيد قليلا.. من دنقلا.. كنت أريهم الصورة من محفظتي بين الحين والآخر.. لأكون صريحا قد لا تبدو هذه المعلومات كافية لتدلني على شخص يعرفه.. لكن في مثل هذه الأوضاع أعني حين تكون مجموعة من الناس تسكن هنا بالسنين وهم سودانيون بطبيعة الحال.. إذا فلابد أن يعرفه أحد فقط بذكر اسمه ومن أين جاء.. شيء ما مغروس في العادات على ما أظن.. لذلك فقد كان لدي أمل..

لكن الإجابات كانت تأتيني على شكل أسئلة..

يسألون.. مع من يعمل؟

لا أعرف..

لماذا تسأل؟

مفقود.. منذ شهر..

هذا الوجه يبدو مألوفا.. لكن.. اسمع.. اسأل فلان الفلاني..

أسأل فلان الفلاني فيدلني على فلان آخر.. وهكذا.. أقرب ما توصلت إليه هو شخص قال إنه عمل معه السنة الماضية في بئر تسمى بئر العبابدة.. ولم يلتقي به بعدها.. وساورني الشك مرارا أنني ربما أخطأت المكان.. أو أخطأ أهل مروان.. لكن نظرا لما قاله المحقق فأنا في المكان الصحيح.. حين وصلت كانت الشمس تتوسط السماء.. راقبتها وهي تزول.. واستطالت الظلال.. كنت أتوقف كل بضع ساعات لشرب الماء من أي برميل أراه بعد أن أستأذن أصحابه وأسألهم في نفس الوقت إن كانوا يعرفون مروان.. وعندما غربت الشمس كنت قد تحولت لبرميل ماء لا أكثر..

عندما أسدل الليل ستائره حاجبا الرؤية بدأ الدهابة طقوس إشعال النيران والمصابيح.. كنت قد يئست وعلمت أنني لن أصل لشيء على الأقل في هذا اليوم.. ألم بي الإنهاك بشكل مفاجئ كأنه انتظر تلك اللحظة.. لحظة يأسي.. تهاويت أرضا على مسافة من إحدى النيران وما أن وصلت الأرض حتى أحسست بقدمي تنبضان.. وما عاد ظهري يقوى على الانتصاب فمال..

كانت تصلني بين الحين والآخر روائح الطعام والبهارات.. أتلمظ.. وتتحرك أحشائي معلنة تحالف الجوع والتعب..

لم أكن أقوى على فعل شيء سوى النظر باتجاه النار.. ولا أظنني أردت ذلك غير أنني كنت منوما.. ألسنتها تولد.. تكبر.. تتلاشى.. والنار ككل.. تتلوى.. الخشب كان يفرقع بانتظام وأنا فاغر فمي لا أتزحزح.. لا أقول أنني كنت أفكر.. ولا أقول أنني لم أكن أعي.. كنت غائبا لدقائق.. ثم عدت.. غير أن ذلك لم يكن انسيابا سلسا نحو الواقع.. بل أشبه بصفعة باب.. برق أمامي وجه زين واختفى.. جفلت ورحت أراقب المكان حولي.. أتفحص الوجوه باحثا عن شيء مألوف..

انتبه لي شخص وأنا أسترق النظر إليهم يمررون كؤوس الشاي.. فجاء وقدم لي واحدة وانصرف.. لم يقل شيئا..

نهضت من مكاني بعد أن اعتادت معدتي على جوعها.. فكان علي تلبية نداء جسدي آخر بتفريغ السوائل التي اتخم بها جسدي.. ابتعدت قدر الإمكان.. حياء.. ولأن المشي تحت ضوء القمر شدني هو الآخر فكدت لا أتوقف.. أفرغت جسمي في تل على حدود السوق ثم قررت المشي أكثر.. خلعت نعلي تاركا الرمال تداعب قدمي..

بعيدا عن الجوع والتعب كان الهدوء مريحا.. بل كافيا لتناسي كل شيء..

جلست على ربوة أرى من علوها السوق.. غصت بقدمي في الرمال الباردة فسرت بجسدي دغدغة لذيذة.. اتكأت على يدي ممدودة خلفي مراقبا القمر.. ضخما أمامي.. متوهجا.. كعملة فضية وضوئه ينساب منكبا على الصحراء كالشلال..

كيف اختار مروان هذه الحياة.. هل جاء هنا حقا بحثا عن الثراء أو المال أو أيا يكن.. أم هو فقط يريد العزلة والهدوء وكل هذه السكينة.. عندما أتذكره لا يخطر في ذهني أبدا أنه يحب المال.. كلنا نحب المال طبعا لكن لا أظنه يسعى لجمعه بهذه الطريقة.. ورغم أن الحياة هنا غريبة إلا أن ميزات كالحرية والابتعاد عن تفاهات المجتمع تغري شخصا مثلي.. لكن مروان.. لا أظن.. لطالما كان يحب العائلة.. الجيران.. المجتمع..

بينما كنت أسير متثاقل الخطوات نحو السوق أحسست بحركة خلفي.. التفت حولي لأتحقق.. الظلمة دامسة وضوء القمر لم يكشف عن شيء.. خطر ببالي أن أفعى قد تكون مترصدة لي.. أو ربما ضبع.. أسرعت في خطاي لكن الصوت جاء أوضح في المرة التالية.. كان شبيها

بصرخة مكتومة.. أو زمجرة.. ابتلعت ريقي مفكرا أنني لو ركضت أو أوليت ظهري للشيء فقد ينقض.. أو.. قررت تتبع مصدر الصوت فقادني لتل أستطيع سماع الحفيف من خلفه..

ارتقيته زاحفا بتأن.. أرى النجوم تتلألأ أمامي.. استغرقت وقتا حتى وصلت القمة.. أطللت برأسي على مهل فرأيت ظلالا لثلاثة أشخاص في الأسفل.. تنفست الصعداء بعد أن تلاشت أفكار الثعابين والضباع من مخيلتي.. لكن.. بعد أن دققت النظر تبين أن أحدهم.. الأوسط.. يصارع الاثنين الآخرين.. كان يرفس ويتلوى بجسده النحيل.. بينما يكممه أحدهم من الخلف والآخر يتلقى تلك الرفسات..

تلفت حولي بحثا عن مساعدة.. لم يكن أحد موجودا غيرهم.. وأنا كشاهد.. ارتجفت أصابعي وأنا أرى أحد الرجلين يخرج نصلا لمع تحت القمر كالبرق.. تباطأت أنفاسي حتى كادت تتوقف.. ماذا أفعل؟.. كنت حبيسا داخل جسدي.. أريد الانطلاق والصراخ والضرب.. لكنني تحجرت مكاني..

بعد أن رأى الضحية النصل.. انتفض بقوة فسقط هو والشخص الذي كان ممسكا به.. وتدحرجا أرضا.. حينها استطاع إطلاق صرخة مدوية..

هيــه..

حاول الفرار لكنه من مكاني كان أبطأ من حشرة.. أرى الشخص الآخر خلفه.. أتمنى أن يفلت منهم "أسرع.. أسرع" همست من مكاني..

"هيــه" أطلق الصرخة الثانية وهو يسقط بعد أن تمكنا من اللحاق به.. لقد وقع.. لم يعد له أي أمل.. أراه يقاوم ويتلوى من جديد.. يتدحرج.. لكنه ككبش وقع بين ذئبين.. نصل السكين يبرق من جديد.. تلفت من جديد وأنا أقف على قدمي..

"توقفـــا"

كانت هذه زمجرة لم أعدها من حلقي خرجت وأنا أهبط التل نحوهم.. كان الغضب قد تملكني.. اندفعت مسرعا أو منحدرا كالصخر..

جفل الاثنان لدى رؤيتي.. التفتا نحو الضحية ثم نحوي على عجل.. ولحسن الحظ كان ذلك كافيا لأن يفرا..

اقتربت من الشخص الثالث.. وكلما اقتربت خطوة تقازم هو.. المجرمان يفران بعيدا.. ما أن وصلت حتى انتبهت أنه طفل.. أعني أحد الفتيان الذين يعملون في السوق.. لم أتبين من ملامحه سوى نظرة الغضب.. كانت عيناه تستعران كالجمر..

"هل أنت بخير؟"..

أجاب وهو ينفض نفسه ثم وبخفة شد بنطاله أكثر..

"نعم لم يستطيعوا فعل شيء"..

فهمت حينها كل شيء.. لم هرب الاثنان دون أن يقاتلا حتى.. لمَ لم يطعنا هذا الفتى رغم الفرص التي كانا يملكانها.. والحقيقة أن ذلك زادني حنقا..

عدنا أنا والفتى في صمت مطبق.. وحين اقتربنا من السوق افترقنا في صمت أيضا..

-10-

قضيت ليلتي تلك في العراء قرب النار.. كنت أزحف قربها تدريجيا كلما ازداد البرد.. كانت ليلة عصيبة فيها الكثير من الارتجاف والجوع.. كانت النار تخبو شيئا فشيئا حتى انحسرت لبضع جمرات.. تذكرت وأنا التصق بها وأنفخ فيها قليلا لتستعر كيف كانت أمي تشعل قطع الفحم في أركان البيت لنتقي البرد.. ولكن في ذلك الوقت كنا محصنين بين أربع جدران ودزينة من الأغطية..

عندما اقترب الصبح وانزلقت نحو النوم العميق ضج السوق دفعة واحدة.. استلقيت هناك أنظر للسماء تضيء تدريجيا.. والضوضاء من حولي.. فكرت كثيرا.. في جدوى ما أفعله.. وأسبابي.. وفي جدوى الحياة.. ثم نهضت.. ببساطة لأن الاستلقاء لم يعد ممكنا مع زيادة الزحام..

بدأ أغلبية من في السوق بتسخين اللبن وصنع الشاي.. أما أنا فكنت بحاجة لما يسد جوعي.. رأيت رجلا منزويا أمام إبريق فوق جمر.. وعندما اقتربت أكثر لاحظت المسبحة في يده وهمسه بالذكر.. سلمت فرد مبتسما..

"عفوا . جلت بنظري في المكان- هل تعرف من أين أشتري أكلا هنا"..

نظر لي باستغراب.. ثم شعرت به يفكر في سؤالي.. ثم عدل عن رأيه..

"تفضل اجلس"..

اختفى الرجل داخل خيمته الصغيرة فاستغليت الوقت وتوضأت من إبريق كان قد تركه.. وصليت.. وجدته ينتظرني وقد أحضر صحن عدس وخبز.. حاولت التملص لكنه أصر.. وصراحة لم تكن محاولاتي سوى لباقة.. فما أن رأيت الصحن حتى سال لعابي..

"من أين أنت؟" قال وهو يمد الخبز لي..

"دنقلا"..

"ما شاء الله خير الناس.. وجئت لتعمل هنا؟"

"لا لا.. جئت أبحث عن قريبي مفقود هنا.. هل لي بماء؟!"

أردت أن أبصق لقمة الطعام.. فقد كان في طعمها شيء خاطئ لم أستسغه..

قال بينما هو يملأ كأسا ويمده لي: "كان يعمل هنا.. ما اسمه؟"

"مروان ياسر.. من دنقلا أيضا وفي مثل عمري.. هل سمعت به من قبل؟"..

كنت أشعر أنه لن يفيدني بشيء ربما المشكلة تكمن في طريقتي لكنني كنت يائسا حقا ولا أملك خيارا آخر..

حول الرجل نظره للأرض مرددا الاسم بصوت خافت..

"مروان.. مروان.. دنقلاوي.." أخرجت الصورة بعد أن وضعت الخبز في حجري.. أمسكتها بيدي وهو يشرئب برأسه ينظر لها..

"والله سأكذب لو قلت لك أنني أعرفه.. احتكاكي بالدهابة ضعيف.. أنا فقط أمتلك شاحنة أوصلهم بها للآبار وأنقل الجوالات.. وآخذ أجرتي.. لكن ربنا يرده لكم بالسلامة"..

"آمين.. قلت لي الآبار.. هل هي قريبة من هنا؟.. هل يحتمل أنه ذهب لأحدها وحده؟."

"لا لا أظن.. لابد أن يوصله أحدهم بسيارة.. أو لو كان يملك واحدة فهذا ممكن"..

"ماذا عن السحالب؟.. قالوا إنه ربما ذهب هناك.. هل هي بعيدة أيضا؟"..

صمت الرجل مدة من الزمن..

"منذ متى انقطع اتصالكم به؟"

"شهر.. تقريبا"..

هز الرجل رأسه.. فعاجلته: "لماذا؟"

"لا أبدا.. أنا أفكر فيما لو ذهب صديقك هناك.. هل أخذ معه ما يكفي من المؤن.. هل يعرف المنطقة جيدا لأن الكثيرين يتوهون هناك.. أو ربما.. .. ربما قابله قطاع طرق.. لكن كل هذا تكهن الله وحده من يعلم ربما يكون قد ذهب لسوق آخر أو .. الله أعلم"..

"كيف أصل إليها؟"..

"لا أعرف.. ولا أنصحك بالذهاب.. اسمع بلغ عن فقدانه ودع البحث عنه للشرطة"..

صمت قليلا ثم تذكرت "ولكن ما مشكلة الناس هنا مع السحالب؟ الكل يجفل حين آتي على ذكرها"..

حك الرجل رأسه الحليق وأجابني كأن الكلمات تضايقه..

"أنا نفسي غير متأكد.. كل ما أسمعه هو القصص ولم أذهب لها يوما ولا خطر في بالي حتى.. الغريب أنهم يقولون في الظاهر هي صحراء.. مثلها مثل أي صحراء.. ربما رمالها أكثر حمرة.. يقولون إنها تتوهج في الليل.. شيء يشبه بالسراب الذي يظهر في النهار.. يقولون أيضا إنها مليئة بالذهب وليس من النوع الذي في الآبار الذي يحتاج للتنقيب والطحن والزئبق.. لا لا.. قطع ذهب بحجم اليدين تجدها ملقية على الأرض"..

طيب.. قلت مفكرا..

"ما الذي يمنع الناس من الذهاب هناك؟"..

"لأنه ذهب محروس".. جاءتني إجابته بصوت قاطع كأن هذا معلوم.. كأنه يقول الشمس تشرق من الشرق.. لكنني لم أفهم مقصده بادئ الأمر..

"قطاع الطريق؟ لماذا لا ينقبون هم أيضا"..

"يحرسه الجن".. قالها الرجل بصوت خافت..

"من قال هذا الكلام؟"

"معروف.. هذه من العادات القديمة تسخير الجن لحراسة الكنوز وتسخيرهم أيضا للبحث عنها.. إن أطلت البقاء هنا فستسمع الكثير من القصص.. قصص لا يمكن تفسيرها إلا بوجود ما هو أبعد من النظر.. هناك من يعود ومعه ذهب لا يتذكر كيف جاء به.. وهناك من يعود مجنونا ويهذي بأنه رأى ذهبا كثيرا وكلما حاول أخذه تحول لرماد.. هناك مجموعة سمعتهم يحكون القصة بنفسي يقولون إنهم وجدوا امرأة في الصحراء.. شعرها فاحم السواد طويل.. وعيناها سوداوان.. دلتهم على مغارة وجدوا فيها الكثير من الذهب أكثر مما استطاعوا حمله.. وعندما رجعوا إلى أهاليهم قرر أحدهم العودة طمعا في المزيد.. هذا المسكين اختفى قرابة سنة.. هل تتخيل.. وعندما عاد كان أعمى ويقول إنه لا يزال يرى المرأة وأنه تبعها حتى السوق.. يسمونه إبراهيم الأحمر.."

"لماذا؟"

"لأنه عندما عاد كان يبكي دما."

"غريب؟" لم أصدق شيئا مما قاله.. كنت مؤمنا أنها مجرد تخاريف..

"لو بقيت هنا فسترى العجب.. صدقني.. كل هذا من علامات الساعة أن تقيء الأرض ذهبا وفضة.. ويقتتل الناس عليه.. كما قال النبي فيجيء القاتل فيقول في هذا قُتلت.. ويجيء القاطع فيقول في هذا قُطعت رحمي.. ويجيء السارق فيقول في هذا قُطعت يدي.. ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئا.. انظر حولك.. أليس هذا ما يحدث الآن.. بالحرف"..

شربت الشاي مع الرجل الذي عرفت أن اسمه محمد.. واستأنست بصحبته بعض الوقت.. وجدته شخصا عمليا.. ربما هي الكلمة الأنسب لوصفه.. يعرف تماما أين ينتهي الحد الفاصل بين الصواب والخطأ.. يعمل مع الدهابة دون أن يكون منهم.. يسكن على بعد ساعة على الأكثر.. في الدبة.. ويعود نهاية كل أسبوع لزوجته وأبنائه.. سألته ألا تفضل العمل قربهم.. فأجابني أن طلب الرزق صعب.. لكنه لابد أن يطلب..

تمشيت في السوق بعدها.. تصيدت طريقي تحت الظلال وتوقفت عندها مرارا.. رغم ضجة السوق كنت في تلك اللحظة معزولا داخل رأسي بين عدة أصوات تتناقش.. كنت أنا من بينهم.. كانت فكرة أحدهم هي العودة.. للخرطوم.. ثم الزواج وترك الموضوع برمته.. والآخر يجيب بأننا جربنا هذا الطريق ترك الأشياء معلقة والمضي.. لكننا عدنا.. عدنا لأن تركها غير ممكن وغير مقبول.. بل هو مضى بالجسد وترك العقل في تلك النقطة.. يحاول أحدهم التوصل لحل وسط.. لأرض خالية من السلاح.. يقول لماذا لا تعود وتتابع الموضوع عن بعد.. بالهاتف.. بالعلاقات هنا وهناك.. فيتفقان عليه إن هذا هو الجبن بعينه.. هذا ليس حلا إنما هربا وفي نفس الوقت طريقة غير مجدية لدفع شعورك بالمسئولية.. وأنت.. نحن.. نعرف تماما أن الخدعة لن تنطلي علينا..

توقفت عند طرف السوق حيث الشاحنات متجمعة.. المتجهة نحو الآبار والعائدة للدبة.. أبقيت نفسي على مسافة منها وجلست تحت ظل ركوبة ورحت ألعب بالرمل.. أخط عليه.. أجمعه في يدي وأتركه ينساب بين أصابعي.. الحقيقة أنني كنت أنتظر.. شيئا.. أو أنتظر الشاحنات لتذهب كلها.. أو تنفجر.. أو يظهر مروان ويقول هي لنعد..

ماذا لو أنني استقليت شاحنة تلك اللحظة وعدت؟ ماذا لو لم يرسل الله ذلك الفتى؟ لكن هل فعل؟ ألم يكن تدخلي محسوبا وبالتالي فأنا من اتخذ القرار جملة وتفصيلا؟ ولماذا هو بالذات كان يملك الجواب؟ لماذا لم يكن فتى وحسب؟

كنت منشغلا بالرمال وساهما عنها.. وكان صوت العجل على الرمال من خلفي مسموعا.. لكنه لم يدخل حيز الاهتمام.. سمعت صوتا سحبني من داخلي..

يا شيخنا..

التفت غير متأكد من كوني المعني فرأيت الفتى من الليلة الماضية.. واقفا.. حازما.. وعربة الدفع واقفة أمامه..

"لم تخبر أحدا بما حدث"..

قال بصيغة سؤال.. وأمر..

"لا"..

لاحظت يده تتحسس خنجرا مثبتا حول خصره.. ثم وجهه ينظر بعيدا ويهز إيجابا..

"طيب.. .. شكرا لك على ما فعلته"..

قال وكأنه يهم بالرحيل.. فتشبثت به.. تشبثت لأنه أنقذني من حيرتي.. ولم أعلم وقتها أنه سوف يقتلني بالحل..

"هل ستبلغ عنهم؟"

نظرت لعينيه تقدحان شررا.. لم يزحزحهما عني.. فتى في حجمه ونحوله لا يستطيع إيذاء قط.. لكن من يعلم..

"هل أنت وحدك هنا؟ ألا يوجد من هو أكبر منك؟"..

"لا"..

"وأين تسكن؟"..

"ماذا تعني أين تسكن!.. هنا"..

كانت إجاباته تثير مزيدا من التساؤلات والاستغراب أكثر من كونها كافية.. نظرت له يقف بعيدا.. فأشرت إليه أن يأتي ويجلس.. ترك الصبي عربته وجاء مترددا.. ربما فطن أن تضيع بضع دقائق معي لن يضير.. "ما اسمك؟" سألته..

مد يده مصافحا وهو ينطق بالاسم "أوش الله.. يعني.."

قاطعته متفاجئا: "يعني عبدالله بالرطانة.. من أي الرطانة أنت؟"..

"محسي"..

"أوش الله من؟ ما اسم أبيك؟"

في البدء تبادر إلى ذهني أن يكون ابن حرام.. لكن ما شجعني على السؤال هو اسمه.. لو كان مجهول الأب لما اجتهدوا في أن يحمل الاسم طابعا.. "وأين والداك؟"

"ماتا" أجابني بسرعة..

"وأين أعمامك.. خيلانك.. أهلك.. لماذا لا تعيش معهم؟"..

"لا أريد أن أتكل على أحد"..

هززت رأسي متجاوبا معه.. لكني لم أصدقه.. قد سمعت بالأهل الذين يربون اليتامى ويظلمونهم.. لكن.. الذين لا يبالون.. بالكامل.. لا أظن أننا وصلنا هذه المرحلة بعد.. أين سيذهبون من كلام الناس على أقل تقدير..

"وأنت–أخرجني من شرودي- أتعمل هنا؟.. لم أرك من قبل"..

"لا أنا هنا أبحث عن صديقي.. هو كان يعمل هنا وانقطعت أخباره منذ شهر" راقبت وجهه يتبدل دون أن يجيبني مما أثار غيظي "ما بك"

أجابني بصوت هادئ وببطء كأنه يشرح لطفل صغير! "عادة عندما يختفي دهابي فهذا يعني أنه مات"..

"هذا ما يقوله الجميع.. ولكن لا دليل على هذا"

هز رأسه إيجابا وسألني "ما اسمه؟"

بحثت في جيوب بنطالي ومددت إليه بالصورة.. ثم أخبرته أن اسمه مروان.. راقبته وهو يحدق بالصورة.. يميل رأسه قليلا.. ثم اتسعت عيناه فجأة وصرخ..

"أنت تقصد مروان.. ود الجبل."

"ماذا؟! لا لا اسمه مروان ياسر.. هل رأيته من قبل؟"

"نعم.. ولكن الجميع ينادونه ود الجبل كنت أقابله مرة في الأسبوع على الأقل.. عندما يعود من البئر.. أعرفه حق المعرفة"..

استعدلت في جلوسي أحاول التشبث به "وأين هو؟"

هز كتفيه مستغربا "ظننت أنه قد وجد ما يبحث عنه وعاد"..

"لا لم يعد.. الشرطة قالت أنه ذهب للسحالب؟"

"مرة ثانية؟!"

"ماذا تقصد؟"

"هو ذهب هناك مرة.. وحده.. وكانت عودته معجزة أصلا.. وبعدها قال إنه عائد لأهله إلى الأبد.. توقعت أنه وجد البيضة الذهبية التي كان يبحث عنها.. ولم أره بعد ذلك فتوقعت أنه عاد.. لكن أنت تفهم ربما.. بتر كلماته ونظر لي لأفهم الباقي.. لكن عقلي كان مشغولا بمشكلة أخرى..

"لحظة لحظة.. - قلت وأنا أشعر برأسي يدور - بيضة.. قلت أنه كان يبحث عن بيضة؟"

"نعم"

"هل قال لماذا بيضة بالذات.. ألا يحتمل أنك سمعت خطأ" بدأت الأرض تتمايل تحتي وقلبي يكاد يسقط في هوة..

"لا لا هو قال إنه يبحث عن بيضة.. هذه كانت مشكلته بيضة ذهبية وإلا لن يستطيع إصلاح ما ارتكبه.. كان يحكي قصة نوبية قديمة عن مجرم عاش في الصحراء لسنين يبحث عن بيضة ليستطيع العودة.. قصة غريبة"

"عليك اللعنة.. عليك اللعنة" همست بالكلمات أما أوش الله.. كان جوفي يغلي غضبا.. جزء مني كان يرفض التصديق أن يكون هذا هو السبب الحقيقي الذي جعل مروان دهابيا هنا.. لكن والدته قالت إنه كان يرفض البقاء في دنقلا رغم المال الذي صار لديه.. فعلا.. قد يكون هذا هو التفسير الوحيد.. أي جنون هذا..

"لكن لماذا لم يعد بما أنه عثر على البيضة كما قلت"

"ماذا تتوقع.. شخص عاد من السحالب على الأغلب أنه وجد الكثير من الذهب.. و.. قد تقتل لهذا"

"أوش الله لماذا أنت وحدك تعرف هذا الكلام؟ ومن أين جئت به؟.. لا يبدو أن أحدا هنا يتذكره كأنه كان شبحا"

"أتقصد الدهابة.. لن يخبروك بشيء.. أنت غريب هنا.."

-11-

كنت أعيد ما قاله أوش الله مرارا وتكرارا كشريط عالق.. مروان يبحث عن بيضة ذهبية ليكفر عما فعله ولا يستطيع مواصلة حياته إن لم يجدها..

أعدت الكلمات في عقلي وأنا أنظر إلى الطريق من حوض السيارة.. كنت قد وجدت شخصا عائدا إلى مدينة الدبة فاتفقت معه على إيصالي مقابل نقود.. أتذكر فقط أن عينيه اتسعتا حين وافقت على المبلغ الذي طلبه.. لا يهم.. الطريق طويل بلا نهاية وأنا جلست في حوض السيارة في الخلف لوحدي.. المقاعد ممتلئة في الأمام.. لكن هذا أيضا لا يهم..

"لماذا فعلت هذا يا مروان؟ عليك اللعنة"..

لا أقوى على الغضب.. ولا أشعر أيضا أنني مصدوم.. لا.. فقد كنت أعرف ذلك في أعماقي أنا فقط لم أجرؤ على النطق بالكلمات.. من كان يتخيل هذا الجنون.. كيف له أن يصدق قصة خيالية؟!..

لكن هل كان يشعر بالذنب فعلا.. آمل أنه فعل.. آخ..

هل دفعته حقا لترك كل شيء..

أتخيله يعيش مغمورا بالذنب.. أتخيل كل التفاصيل بوضوح عن خبرة وتمرس.. تخيلته يتعثر ويقول لعله يكفر عني.. أو طريح الفراش بسبب الحمى.. متعرقا وذابلا ويشعر بأنه يستحق هذا.. أو عندما يستغفل الذنب مقتحما الحياة.. وتقع عيناه على شيء جميل.. أجمل ما رأته عيناه.. ثم يشعر من الداخل.. دون أن يستطيع نطق الكلمات.. أنه لا يستحق شيئا بهذا الجمال..

"اللعنة عليك ما كان ينبغي أن تفعل هذا"

فكرت وأنا أنظر نحو الأفق والشمس تهوي نحوه أنه وجد البيضة.. هذا ما قاله أوش الله.. أتساءل كيف شعر حينها هل شعر بالحرية.. وعاد يتنفس كمن خرج من الغرق.. هل استطاع التلذذ بالطعام أخيرا عوضا عن تلك الحالة القميئة حيث تنقسم الأطعمة للحار والبارد.. والمالح والسكري.. دون درجات.. دون تفضيلات.. هل وجد الخلاص؟..

علي أن أجده حتى يجيبني عن كل تلك الأسئلة.. آمل أن يكون حيا.. ولكن هل هذا ممكن.. هل هناك أدنى احتمال بإمكانية هذا.. أم يكون أولئك الدهابة قد تجرؤوا فعلا على قتله.. لكن مروان ليس بذلك الغباء لو وصل الأمر مرحلة أن يعطيهم ما وجده أو يفقد حياته لما قايض حياته..

"لا هذا مجرد أمل.. أنت ما عدت تعرف شيئا عنه"

لم أنتبه إلى أننا وصلنا إلا عندما توقفت السيارة وخرج صاحبها يخبرني أن هذا أقصى ما يستطيع أن يوصل الناس إليه.. أدفع له آخر ما تبقى لي من نقود في المحفظة.. كانت الساعة السابعة مساء والطريقة الوحيدة للوصول للقسم هي المشي.. فلا أحد سيوصلنا بمحفظة فارغة.. عرفت من وجوه المارة الذين سألتهم عن الاتجاهات أن منظري مريع.. بسبب القذارة وانعدام النوم.. ربما أنفع أن أكون الغول في النهاية..

وصلت بعد ساعة من المشي إلى مدخل القسم.. توجهت مباشرة نحو مكتب المحقق إياه وأظن أن أحدا نادى علي لكنني لم أجبه.. ربما أحد الضباط يريد أن يمارس تسلطه قليلا.. كان المحقق على وشك المغادرة عندما استوقفته.. ووجهه امتلأ بأعتى علامات الغيظ حين رآني..

"أنا منذر جئتك قبل يوم أو اثنين.. كنت معنيا بمروان الدهابي الذي فقد قبل شهر.. هل تتذكرني؟"..

أحكم المحقق إغلاق مكتبه مبقيا علينا في الممر وكأنه يقول لي لن أعطيك فرصة للإطالة..

"نعم نعم.. وأنا أخبرتك عندما تصلنا مستجدات فستعرفونها مباشرة صدقني"

أراد أن يتجاوزني.. فاعترضت طريقه مغتاظا..

"أنا لست أبحث عن مستجدات فقد أوضحت لي المرة الماضية أنك لن تفعل شيئا سوى الانتظار.. لذا فقد ذهبت بنفسي للمشافي والمشرحة واضطررت أيضا للذهاب للسوق.. سألت عنه لكن جميع من قابلتهم أنكروا معرفتهم به.. المهم أنني وجدت شخصا في نهاية المطاف يعرف مروان حق المعرفة.. هل كنت تعلم أنهم ينادونه هناك بود الجبل.. الأسماء هناك كما يبدو لا تعني الكثير.. المهم أوش الله هذا أخبرني أن مروان عاد من السحالب.. وهو متأكد ويقسم على ذلك"..

تنهد المحقق بنفاد صبر..

"إذن حلت القضية هو عاد لكنه لا يريد التواصل معكم.. هذه هي"

"لا.. يستحيل أن يكون هذا ما حدث.. مروان لديه ابنة هناك في دنقلا.. لن يتركها ويرحل"

هممم أصدر المحقق صوتا ساخرا مني..

نظرت إلى جراب المسدس على خصره.. ثم تخيلتني أتحصل على المسدس وأفرغ الرصاصات في رأسه وتماما على أنفه المتعجرف..

"أنا أظن أن مكروها أصابه في السوق.. هؤلاء الأوغاد لابد وأنهم فكروا أن مروان معه ذهب الكثير منه.. لذلك حاولوا جعله يتكلم مثلا.. ربما لم يفعل فقرروا استخدام أساليب أخرى.. المهم أن جميع من في السوق مشتبه قوي"..

"حسنا نظرية جميلة وكلام موزون.. ثم ماذا؟.."

"ثم ماذا تقول!.. ثم تقوم بعملك.. تذهب إلى السوق وتعيد استجواب الأشخاص الذين عمل معهم.. وكل من كان له صلة معه ثم توسع الدائرة.. حتى نعرف ما الذي حدث له"..

نظر المحقق في ساعته.. وتمتم غائب الذهن..

"اسمع ما تفعله لن يعيد صديقك أنا أقترح أن تعود.. أنت لست من هنا أليس كذلك.. أنت لا تعرف كيف هو الوضع.. لم أسمع بدهابي اختفى وعاد.. لا يوجد.. اختفاؤهم يعني أنهم ماتوا.. في أغلب الأحيان تكون لأسباب طبيعية.. وحين يكونون مقتولين فإنه من شبه المستحيل أن تعرف من قتله.. فكما قلت أن جميع من في السوق مشتبه محتمل.. أتريدني أن أستوجب آلاف الأشخاص وأضيع قضايا أخرى مهمة كي نعرف ما حل بصديقك.. قل كلاما معقول يا رجل"..

صمتنا لبرهة.. كان المحقق يحدق في وأجزم أن القلق أصابه مني..

"اسمع -أكمل بنبرة هادئة- أنا أتمنى فعلا أن يظهر صديقك.. أو نجده.. لكن وقتي والموارد التي نمتلكها هنا محدودة.. لا نستطيع فعل كل شيء.. لذا أتمنى أن تعذرني.. أنا لا أعني أننا سنوقف البحث أو متابعة قضيته فالقضية لا تزال مفتوحة أمهلنا بعض الوقت.. لا تزال نصيحتي نفسها عد لمواصلة حياتك وعندما يستجد شيء فسأخبرك شخصيا"..

رمى المحقق كلماته الأخيرة وانصرف.

-12-

عدت إلى غرفتي في الفندق وارتميت على السرير دون أن أتمكن من خلع حذائي.. رحت أراقب مروحة السقف تدور وتدور.. لم أشعر يوما بمثل ذاك الخواء.. كنت متماهيا مع كل شيء.. جزءا من السرير الذي استلقيت عليه وجزءا من المروحة التي تدور.. هواء خانقا كالذي في الغرفة.. بيد أنني لم أشعر بشيء آخر.. لا حيرة.. لا رغبة في التفكير.. كنت كزجاجة فارغة إلا من صوت يتخبط داخلها.. صوت رخيم وواضح..

كنت في حاجة لما يخرجني من هذه الحالة.. فأخرجت هاتفي واتصلت بليلى.. لم ترد في المرة الأولى.. ولا الثانية.. عاودت الاتصال بي بعد ساعة لم أقو على التحرك خلال ذلك الوقت قيد أنملة..

"ألو..؟"

بادلتني التحية بطريقة باردة.. وتحدثت بشكل مقتضب عن يومها وصمتت.. كنت أشعر بشيء خاطئ في طريقتها..

"كنت في سوق الدهابة بالأمس.. في وسط الصحراء.. مكان لن تتخيليه حتى لو وصفته لك"..

"حقا.. هممم.. وهل قضيت الليلة هناك أيضا؟"..

"نعم.. كان وضعا صعبا.. برد.. وقرف.. آآآخ"

"لهذا كان هاتفك خارج التغطية طوال البارحة"

فهمت لما كان مزاجها معكرا..

"أخبرتك أنني أبحث عن صديقي.. هو كان يعمل دهابيا.. هل تعرفينهم الذين ينقبون عن الذهب.. هنا في سوق قريب من هذه المدينة.. ولم أتوقع أن الشبكة ستكون مقطوعة هناك"..

"وذهبت لتسأل عنه في السوق؟ ألا تبالغ قليلا لم لا تدع هذا العمل للشرطة؟"

"الشرطة لا يريدون إقلاق راحتهم"..

سمعت ليلى وهي تأخذ نفسا طويلا.. تخيلت صدرها يعلو.. ثم زفرته.. وعرفت حينها أنها ستعود لطبيعتها المرحة.. مما سيجعل وقع ما سأقوله صعبا..

"آمل أن يعود بخير.. بإذن الله.. والآن متى ستعود يا باشا؟" قالت جملتها الأخيرة باللهجة المصرية..

"بشأن ذلك – صمت قليلا قبل أن أكمل - لا أظن أنني سأعود قريبا"

مرت الثواني ثقيلة بعد جملتي تلك.. انتظرت ردها قلقا..

"ماذا تعني؟ لماذ؟"..

"علي أن أجده أو أعرف ما حدث له على الأقل"..

"وما الذي ستقدمه أنت.. قلت إنك سألت عنه في القسم والمشافي وها أنت الآن ذهبت للصحراء بحثا عنه.. ليس بيدك شيء آخر لتفعله أعني لابد أن يظهر هو بنفسه.. ولو أن مكروها أصابه فهذا عمل الشرطة.. ليس هناك سبب يدعوك للبقاء"..

"الشرطة لا يهمها إن وجد أو قتل أو حدث له أي شيء.. لا أحد يهتم"..

"لذا ستحمل أنت على عاتقك إيجاده"

لم تفتني نبرة التقريع التي قالت بها جملتها الأخيرة.. أردت أن أشرح لها كل شيء لكن حتى ذلك ليس ضمانا أنها ستفهمني..

"هذا شيء علي فعله"..

"فقط قبل عدة أيام لم أسمع بصديقك المدعو مروان.. ولم تكن أنت أيضا تعرف عنه شيئا.. الآن أنت مستعد لترك كل شيء والبحث عنه في الصحاري.. لماذا؟"..

كان الخواء الذي كنت أشعره به يتلاشى ليحل مكانه امتلاء في الرأس أشبه بإسفنجة تشربت ماء.. بدأ الصداع يتطور تدريجيا.. فضغطت على صدغي بأصابعي علني أوقفه قبل أن يتفاقم..

"لن تفهميني يا ليلى.. أرجوك لنغلق هذا الموضوع.. سأعود عندما أجد الأجوبة التي أحتاجها"..

صمتت قليلا.. ثم تحدثت بصوت مضطرب..

"الأجوبة التي تحتاجها ها.. منذر.. أنا اسمع الكثير من القصص عن هؤلاء الدهابة أنت ترمي بنفسك في خطر غير محسوب.. أرجوك عد وسنجد الحلول التي تريدها.."

لم أفهم تماما مقصدها لكنني حاولت أن أطمئنها..

"للأسف الأجوبة التي أحتاجها تقبع هناك في الصحراء.. هذه أشياء ستساعدني لأغلق ماضيا.. حتى أستطيع أن أحصل على المستقبل الذي أريده.. هل فهمتني؟.. لا تقلقي سيكون كل شيء بخير أعدك.. لكنني لابد أن أفعل هذا حتى.."

"حتى ماذا؟" سألتني..

بحثت في جميع المفردات التي في ذاكرتي.. ولم أجد سوى أكثرها ابتذالا..

"أنا لم أكن هكذا يا ليلى.. لم أكن شاردا طوال الوقت.. أريد أن أرجع لطبيعتي حتى.."

بعد أن انتهيت من مكالمتي مع ليلى.. أخبرت والدي أيضا بما أنتوي فعله.. في صباح اليوم التالي اتصلت برئيس تحرير الجريدة وطلبت الحصول على إجازة.. ولم أحدد مدتها.. ذهبت بعد ذلك إلى البنك وسحبت مبلغا يكفي لعدة أيام.. كنت أعد نفسي للذهاب للسوق.. كان قرارا لا عودة فيه.. إن كان مروان اختار هذه الحياة لينتهي من ذنبه.. فأنا لست بجبان حتى أنسحب..

وإن كان هؤلاء الدهابة الملاعين يخفون شيئا لأنني غريب.. فسأصبح منهم.. سأعيش حياتهم القذرة.. سأجعجع مثلهم وأبقى قذرا لأيام.. وعندما يأتي الوقت سأعرف كل شيء..

-1-

عندما وصلت سوق الدهابة في الدبة للمرة الثانية كنت أعرف أنني سأبقى هذه المرة لمدة.. وصلت بحقيبتي التي بها بعض الملابس وفي حوزتي القليل من المال.. كان شكلي غريبا كالبجعة السوداء.. هذه المرة عدت وفي رأسي خطة محكمة ستمكنني من العودة بالإجابات.. إن استطعت العودة حيا.. بحثت حال وصولي عن المنطقة التي يتجمع فيها الأطفال دافعي العربات.. في منتصف السوق تماما مع باعة اللبن وأغنامهم.. كانت ملامحهم شقية.. أولئك الفتية.. وأغلبهم كان يغطي وجهه بالشال.. تفرست في ملامحهم فتبين لي أن أوش الله ليس بينهم.. اقتربت أكثر فقفز أحد الفتية واقفا وأسرع نحوي..

"هل تريد أن أنقل لك جوالات أنا مستعد.. وسريع؟" قال الفتى..

هززت رأسي نافيا..

"أنا أبحث عن فتى معكم.. أوش الله أين ذهب؟"

خاب أمل الفتى وأولى لي ظهره.. جاءني الرد من فتى آخر كان جالسا..

"سيأتي.. ذهب لنقل بعض الجوالات وسيرجع"

ابتعدت عنهم قليلا وجلست أنتظر.. أراهم يرمقونني.. وأنا أيضا كنت أسترق النظر لهم بين الحين والآخر متسائلا عما يفعلونه هنا بحق الله.. أي نوع من الأهل يسمحون لأطفال أن يعيشوا في بيئة كهذه.. ثم أين هم أهلهم أصلا.. أدركت حينها كم كنت محظوظا في نشأتي.. ليس كنوع من الفخر بل بشيء من الخجل مما امتلكت من امتيازات رغم أنها لم تكن شيئا يذكر.. ولكن مقارنة مع ما حصل عليه هؤلاء شعرت بعدم الاستحقاق..

فكرت في نوع الطعام الذي يتناولونه هنا.. إن كانوا يأكلون.. كانت أقدامهم الممتدة وهم جالسون نحيلة كأقدام الطيور.. ومن الأسفل امتلأت تشققات بسبب الجفاف.. أحسست بالضيق يتسرب لداخلي من شقوق صغيرة.. وكأنني بطريقة ما مسئول عما حدث لهؤلاء.. لكن ما دخلي أنا إن كان أهلهم.. أو لنقل حتى المسئولين لم يبالوا بحالهم.. فما الذي أملكه أنا لأقدمه.. هذه مصيدة الذنب التي أعرفها جيدا.. تبتلع كل ما يخصني وما لا يخصني ليصبح بطريقة ما مشكلتي الشخصية وأخلف أنا الكثير من روحي كلما فررت منها..

عندما وصل أوش الله انتبه لي وجاء مباشرة من تلقاء نفسه.. نهضت واقفا أنظر لقامته القصيرة..

"هل أنت بخير؟" قلت كاسرا الصمت..

هز رأسه وفي عينيه تكشيرة فسرتها بأنه في حيرة..

"اسمع أنا في حاجة إليك.. أريد أن أسألك لقد قلت أنك تعرف الأشخاص الذين عمل معهم مروان.. صحيح؟ أريدك أن تدلني عليهم"..

نظر نحو مجموعته وهو يتكلم..

"أخبرتك من قبل لن يخبرك أحد بشيء فلا أحد يثق بأحد هنا"

"دع هذا الأمر لي فقط دلني عليهم"..

"كما تشاء - قال بشيء من اللامبالاة - ولكن انتظر هنا سأذهب لأتأكد وأعود إليك"..

اختفى أوش لساعة تقريبا.. ثم عاد ليخبرني بأن الدهابة الذين كانوا مع مروان في البئر الآن.. وليسوا في السوق.. وأنه سأل عنهم السائق المسئول عن إحضارهم.. فأخبره أنهم سيعودون بعد يومين..

كان كلام أوش الله مبهما بالنسبة لي فأنا لا أفقه في طرق عملهم شيئا.. السائق! والبئر!.. كان هذا أول عائق أتعرض له دون أن أحسب له حسابا.. بدا أن قرار الانتظار لا مفر منه.. وبقيت الترتيبات..

هب نسيم بارد يشي بأنها ستكون ليلة باردة.. كما أن الشمس قد بدأت غروبها مسبقا.. تذكرت أن الجوع سيضربني ولو بعد حين فسألته عن طريقة الحصول على الطعام في هذا المكان.. أشار إلي أن أذهب للمخازن ومن هناك سأتمكن من شراء الخضر والفول إن أردت.. ثم علي أن أطبخها بطريقتي..

"كيف؟.. أنا لا أملك عدة هنا" قلت له مستنجدا..

فكر في صمت ثم مد يده..

"هات نقودا ولا تقلق"..

"أخرجت من جيبي مبلغا ووضعته في يده" نظر إليها باستغراب فأردت أن أزيدها..

"ماذا تفعل؟"..

"ألم تقل أنك تريد مالا"..

"هذا كثير أنت لا تختلف عن صديقك كان مبذرا أيضا.. خذ أبق هذه معك.. ولا تخرج نقودك بهذا الشكل ستسرق"..

نادى أوش الله وهو في الطريق أحد الفتية الجالسين وذهبا سويا.. انتظرت أنا مكاني مرة أخرى.. أتمت الشمس غروبها وامتدت أصابع الليل في السماء.. استلقيت على حقيبتي أراقب السماء بينما في السوق تختلط روائح الحطب المحترق واللبن المغلي.. وانطفأت الطواحين فعم الهدوء إلا من الهمهمات.. حين عادوا.. كانا يحملان طبقين.. فانقسمنا لمجموعتين كل تحلقت حول صحن.. كان الطعام عبارة عن سلطة وبها

كسرة.. شكرني أحد الفتية فاتضح أنني أنا صاحب هذه الوليمة إن شاءوا تسميتها كذلك.. لم أبال ولم أشعر بشيء..

انتبهت أن عيني الفتى متورمتان.. وبها دمامل على أطراف الجفون تنضحان بالقيح الأصفر.. كنت أعلم أن العبارة التي قلتها كانت خاطئة في مكان كهذا.. ولكنني لم أحتمل المنظر.. خصوصا أثناء الأكل..

"من الأفضل أن تذهب للطبيب من أجل عينيك هاتين"..

تألمت كثيرا وأنا أرى الفتى محرجا..

"أنا أمسحهما بالرماد كل ليلة قبل أن أنام"..

لم أفهم إن كان هذا نوعا من العلاج أم ماذا!.. سألتهم.. فبدا من إصرارهم أنه علاج يوازي كل ما توصل له العلم الحديث.. على كل كان الأكل يخلو من الملح لكن الكسرة كانت حامضة وهذا شيء جيد.. سألتهم كيف لهم أن وجدوا كسرة هنا.. فأخبرني أوش الله أنها الشيء الوحيد الذي يأتي جاهزا من المدينة.. لكن الباقي يأتي كمواد أولية.. وأنني سأجد أي شيء دقيق.. فول.. عدس.. حليب مجفف.. سكر.. بن.. وخبز أيضا لكنه سرعان ما يتلف ومن الصعوبة أخذه إلى الآبار..

مسحت يدي بالرمال بعد أن انتهيت من الأكل.. ورافقت أوش الله لبرميل ماء شربنا منه.. كنت ألاحظ حتى في الظلام أن بعض الدهابة كانوا يحملقون بي.. وارتأيت لأول مرة أن سبب شذوذي هو شيء أكثر عمقا من لون جلدي.. في لحظة ما التفت أوش الله نحوي وكأنما تذكر شيئا بالغ الأهمية..

"هل تريد شايا؟"..

أفلتت مني ضحكة..

"لا شكرا.. اسمع لدي الكثير من الأسئلة.. لذا جد لنا مكانا نجلس فيه"

"ما دمت تملك الكثير من الأسئلة فلابد أن نحضر الشاي" قال بنبرة تذاكي..

"حسنا كنت سأسألك عن المقهى هنا لكنني أخشى فعلا أن يكون موجودا" نظر إلي كمن لا يفهم تعريف النكتة.. أو أنني كنت مريعا..

"قل لي أين هذه الآبار التي يذهب إليها الدهابة؟" أكملت ونحن نسير.. كانت نسائم الليل توصل إلي رائحة روث الأغنام بين الحين والآخر وأشم ثغاءها من بعيد..

"على حسب.. كل مجموعة تملك بئرا في اتجاه معين يعرفونه وحدهم.. ويأخذهم إليه سائق شاحنة قد يكون في بعض الأحيان صاحب البئر.. البعض لا يجد مجموعة ينضم لها فيشكلون فريقا ويبحثون في الصحراء حتى يجدوا منطقة بها صخور مذهبة"..

صمتنا بينما يضع إبريقا على نار كان الفتية قد أشعلوها.. وابتعدنا قليلا لنكمل..

"وكيف يجدون هذه الآبار أصلا؟"..

هز أوش الله كتفيه..

"إما بالجهاز.. هل تعرفه.. ذاك الذي تمسح به الأرض فيصدر طنينا.. وهو غال جدا.. أو بطريقة الفقراء المعتادة يبحثون عن الصخور بشكل عشوائي ويكسرونها ليعرف نسبة الذهب التي تحويه.. المنطقة التي توجد في عدة صخور منها ذهب تحفر وهكذا يفتح بئر جديدة"..

كانت إجابته كافية فعلا.. لكن القصة كلها لا تزال مبهمة.. وددت لو يعطيني ملخصا عن العملية كلها لكن هذا سيكون مبالغا فيه كل ما أريد معرفته هو نقاط معينه لذا علي أن أرتب أنا الأسئلة التي أريد معرفة إجاباتها..

"اسمع وكيف يتم تقسيم الذهب بينهم.. هل كل شخص يعمل وحده ما أن يصلوا وله نصيب معلوم.. أم أن العمل جماعي ثم تقسم الغنائم؟"

"نعم نعم في الغالب هم يعملون سويا ويقتسمون المال.. لكن هناك مشاكل تحدث بينهم دائما في القسمة.. لا يخلو يوم في السوق من شجار أو طعن.. وغالبا بسبب تقسيمهم للمال"

نهض أوش الله واتجه نحو النار.. راقبته يعد الشاي ثم يعود حاملا الكأسين.. مد لي بواحدة ثم باغتني..

"لكن لماذا تسأل عن كل هذا.. ما دخل هذا بود الجبل؟"

"أي شيء سيساعد.. ما زلت لا أعلم كيف بالضبط ولكن علي أن أجمع كل المعلومات الممكنة"..

"وماذا تنوي أن تفعل؟"

رشفت من الشاي متجاهلا سؤاله.. ولم يكرره ربما ظن أنني لا أعرف ما سأفعله تاليا.. كنت أثناء هذا الصمت أقلب ذاكرتي بحثا عن سوق آخر للدهابة.. بحثت في أرشيف عقلي من أخبار الصحيفة.. من القصص.. أردت أن أصل إلى سوق بعيد لم يسمع به أحد هنا.. وفي نفس الوقت أن يكون حقيقيا.. رغم أن موضوع الدهابة والذهب منتشر في حديث الشوارع والتجمعات إلا أن قلة من يعرفون التفاصيل إلا من عمل فعلا في التنقيب.. البقية يستعملون الموضوع

كنوع من التسلية.. أنا أيضا لم أولهم اهتماما كبيرا كنت أعتبر هذا ضربا من الجنون ولا يمكن أن أنخرط فيه في يوم من الأيام لا من قريب ولا بعيد..

نظرت لأوش الله من جديد..

"كم عمرك الآن؟"

ضيق عينيه كأنه يستخف بي أو ربما شعر بتهديد.. لا أدري هذا ما أحسست به..

"أربعة عشر"..

"وهل ذهبت للمدرسة؟" شعرت أنني أضغط عليه بالأسئلة لكن الفضول استبد بي..

"أعرف كيف أقرأ إن كان هذا ما تسأل عنه ولا يخدعني أحد في الحساب.. وأستطيع أن أعد طعامي.. ولا أرتدي قميصا وبنطالا في الصحراء"..

انتبهت لنفسي ولتعليقه.. "لماذا ما بها ملابسي؟"

"هل ترى أحدا غيرك متأنقا كأنه سيقابل حبيبته هنا"

فهمت حينها أن أسلوبه الدفاعي يقتضي هجوما أيضا فآثرت أن أتراجع.. لن أخسره فقط لأنني أريد أن أعرف قصته.. بالرغم من أن لا شيء يدعو لكل هذا الحنق.. إلا لو كان يخفي شيئا.. اعتذرت منه.. فلم يرد علي..

أخرجت من حقيبتي مزيدا من الملابس وأرتديتها استعدادا لنوبة البرد ثم استلقيت جاعلا الحقيبة وسادة لي.. نهض أوش وأخذ الكؤوس وانصرف قائلا إلى الغد.. لا بأس ما زال يعتبرني حليفا..

كانت النجوم تتلألأ بشكل جميل في السماء.. كثيرة كغبار سحري منثور.. بحثت عن السهم الذي يشير إلى الشمال.. حيلة علمها لي والدي.. عدة نجوم متفرقة تستطيع بخيالك أن توصل بينها لتحصل على سهم وأظن أن لها اسما علميا غريبا لكن لا يهم.. وجدته.. وبعدها تدفقت عدة ذكريات كأنما هي موجودة مع معرفتي بهذا السهم في صندوق قديم.. في إحدى زوايا عقلي..

لكن التفافات عقلي دائما ما تقود لأقدم ذاكرة موجودة لدي.. تقبع في صندوق مبلل.. كان الخريف في صغري هو أصعب الفصول علينا.. فحين يأتي حاملا العواصف كنت أنا.. وزين ووالداي.. وجدتي نتكدس في الصالة.. في الخارج.. كنا نسمع الريح وهي تزمجر.. تصفر.. وتصفع الأبواب والنوافذ محاولة دك الحصن.. السماء بدورها كانت ترجم سقف البيت بالمطر.. فلا يملك ذاك السقف المتهالك سوى أن يخر ماء..

في ذكراي.. كنت أسمع صوت والدتي تهرع هنا وهناك.. تضع الأوعية ليتجمع الماء فيها.. أما أبي.. فقد قام بإشعال شمعة وهو ما جعل هذه الذكرى تثبت حقا.. كانت تلك أول مرة أرى فيها شمعة.. حتى حين تبدأ هذه الذكرى في التسلل لعقلي كانت الشمعة هي أول ما أراه.. جدتي هي الأخرى كانت موجودة.. إلا أني لا أتذكرها تقول أو تفعل شيئا بالتحديد.. الشخص الوحيد حقيقة الذي أرى وجهه بوضوح في هذه الذكرى.. هو أخي زين.. بعينيه الواسعتين.. وشعره الناعم بعكسي.. وابتسامته الغير مكتملة الأسنان.. كنت أنا وهو نصنع أشكالا بظلال أيدينا على الحائط.. أرنب.. كلب.. عقرب.. و قد كان شيئا مبهرا.. أعتقد.. لنا الاثنين..

تسلل النوم إلي وأنا في الصحراء لكنني كنت أسمع صوت مطر يهطل كالرصاص.. وتماما قبل أن تغلق عيني رأيت الشمعة تنطفئ.. كالعادة..

-2-

انتظرت في السوق ليومين حتى يعود الأشخاص الذين عمل معهم مروان من البئر.. وأعطيتهم يوما آخر ليطحنوا صخورهم ويفرزوا ذهبهم.. توجست من أن تكون تلك آخر رحلة تنقيب سيقومون بها فسألت أوش الله الذي أصبح مخبري الخاص.. فتى حذق تشوبه الوقاحة.. أو ربما أعطيه حقه وأقول أنه شجاع, أخبرني بثقة أنهم يدينون لعدة أشخاص في السوق بالمال.. ولم يسددوها بعد لذلك فهم باقون لبعض الوقت على أغلب الظن..

في اليوم الثالث ذهبت حيث يخيمون.. في منطقة لا تبعد عن الطواحين.. حتى أن اهتزازها يصل لشغاف القلب.. ومع كل خطوة كنت أقدم عليها كانت الأرض تتزلزل.. وأشعة الشمس تنخر الأجساد بلا رحمة.. الضجة في السوق كانت خفيفة لأنه ومما لاحظت كلما ارتفعت حرارة الشمس كلما احتمى الناس داخل خيمهم أو تحت أي ظل موفرين طاقتهم بالقيلولة.. وصلت فسحة تبدو كما وصفها أوش الله.. قربها دكان لتأجير عدة التنقيب.. ومخزن للغذاء.. وهناك خيمة أو عشة أمامهما حيث يفترض بدهابة مروان أن يكونوا أصحابها.. اقتربت أكثر.. فرأيت رجلا ضائعا في ثنايا جلبابه أمام خيمتهم يرتب عدة ما.. مطارق حديدية وأزاميل.. وما يبدو كمصباح يربط على الرأس.. كان يحشرها في جوال خيش..

قدرت أنه أربعيني.. ربما.. ومن مكاني استطعت رؤية عروقه وأوتاره بارزة من يديه.. عندما استقام بعد أن فرغ من الترتيب عرفته.. من شاربيه الكثين لابد.. أنه يوسف.. كما أخبرني أوش الله.. أسرعت في خطاي حتى دخلت حيز نظره.. ثم حييته بكل ود استطعت تزييفه.. كأنني أحي صديقا قديما..

ضاقت عيناه الخضراوان وهو يصافحني.. حولهما بعض التجاعيد.. وفوقهما حاجبان كثان يكادان يتصلان في المنتصف.. وجهه كان ضامرا تبرز عظامه.. ويلف شالا بنيا حول رأسه.. لم ينطق بشيء وأنا أصافحه.. كان فقط ينتظر مني أن أفسر..

تركت يده وأخذت خطوة للخلف محافظا على ابتسامتي..

"أنت يوسف أليس كذلك؟.. أنا منذر جديد هنا.. لقد سألت في السوق عن مجموعة أعمل معها.. وبحثت وبحثت لكن يبدو أن الكل مكتملي الأعداد بل ويزيدون.. لكنهم أشاروا إلى أنه ينقصكم بعض الأيدي.. فقلت في نفسي فرجت.. كنت أنتظر عودتكم بفارغ الصبر منذ يومين"..

اتكأ يوسف بقدمه على الجوال الذي كان قد ملأه بالأدوات.. ونظر إلي مقيما.. راقبته بدوري.. إلى ثوبه المهترئ القذر.. والسروال الذي يبرز طرف من الأسفل.. الشيء الوحيد في ملبسه الذي ربما حافظ على لونه هو الصدرية السوداء..

"من أخبرك بذلك تحديدا؟.. أننا في حاجة لمن يعمل معنا."

التفت خلفي وكأنني أبحث عن شخص أو مكان معين.. حككت رأسي لأبدو مقنعا..

"في الحقيقة لا أتذكر.. أعني أنني كنت أسأل أي شخص أصادفه.. لكن أتذكر أنه شخص بدين قليلا.... أشيب.. هل عرفته؟.. "ترددت بعد ذلك خفت أن يرفضني من البداية.. تسارع عقلي.. رميت الكلمات سريعا "قال لي أنكم أربعة فقط وربما تحتاجون المزيد"..

تفحصني يوسف بعينيه الضامرتين.. وهو يتلمس شاربه الكث..

"وهل عملت في الذهب من قبل؟ أم أنك جديد من العلبة."

"لا لا عملت بالطبع في آبار الخمايس قرب حلفا".. كنت قد جهزت هذه الجملة قبل يومين ودرست كل تبعاتها.. واخترته تحديدا لأنني قدرت أن لا أحد هنا قد عمل فيه.. كنت جاهزا..

"لا أعرف أحدا هناك تمتم والحيرة بادية على وجهه.. ولم أسمع به من قبل"..

أكملت في رمي الكلمات حتى أشتته.. كان إقناعه هدفا لم أعمل على مثله منذ مدة.. لم يدق قلبي ولم تدر عجلات عقلي بهذه السرعة من قبل.. كنت حيا.. مع ليلي أكون أكثر حياة نعم.. ولكنني أيضا أشعر بالأمان.. لا يوجد كل هذا التيقظ..

"قلت أجرب حظي هنا.. الحقيقة أن العمل هناك غير مجد.. الكثير من التعب دون مال يذكر.. جئت هنا وسألت الدهابة.. فأخبروني أنكم قد تحتاجون لمن يعمل معكم فأربعة أشخاص عدد بسيط على حد علمي.. إلا لو كان بئركم لا يحوي ذهبا كثيرا.. في هذه الحالة لا بأس سأبحث عن بئر أخرى.. غير أن الناس هنا يثنون عليك ينادونك أب شنب ها.. أي رجل ينادونه أب شنب لا يرد الناس حين يطلبونه.. هل أنت أصلا صاحب البئر؟"

"المشكلة أني لا أعرفك.. ولا أحد هنا يعرفك.. نحن لن نجعل أي شخص يأتي ليعمل معنا ربما كان مجرما سارقا كيف سنضمنه.. وهذه ليست مشكلة كبيرة لأصدقك القول فلا أحد سيتجرأ على النصب علينا.. ما يهمني فعلا هو كيف أتأكد أنك رجل شدائد.. هذا العمل ليس سهلا.. ماذا لو مرضت هناك أو اتضح أنك مجرد عبء.. هذا العمل استثمار ستكون عبئا في الأكل والماء ثم هل تملك أدواتك الخاصة.. لا أظن.. إذا أنت ستكون ميزانية وعلي أن أضمن أن مردودك سيغطي الخسائر"..

"لا لا لن يحدث شيء من هذا.. قلت لك أنني عملت دهابيا من قبل وأعى تماما المخاطر.. وأنا نشيط لا تدع ملابسي تخدعك ربما أنا لم أتسخ بعد.. لكنني لا أخشى أن أتمرغ في أي شيء ما دام في الأمر ذهب.. ظننت أنك تعرف.. وأنك خبير.. لا يمكنك أن تحكم أنني لست رجل شدائد ما لم ترني أعمل فعلا"..

مسح أب شنب على وجهه في نفاد صبر..

"اسمع هذا مجرد كلام لا طائل منه أنا في حاجة لضمانه لشخص يشهد لك على الأقل."

قلت حائرا.. "لكن لا أحد هنا أعرفه.. وهذا لا يعني أنني لست مؤهلا.. ماذا تقترح أن أتصل بشخص من سوق الخمايس"..

"لا لا أنا لا أقترح شيئا.. أنت من عليه أن يقنعني"

صمت مطرقا للأرض.. كنت أشعر به يفلت مني.. فكرت مليا.. هو فقط يريد ضمانة فلأجد له ضمانة.. هو يفكر بطريقة منفعية بحتة.. إذا لابد أن أتعامل بطريقته..

"معك حق.. كلامك عين العقل.. سأقول لك.. ما رأيك لو أعمل معكم بنصف الأجرة لكن فقط في المرة الأولى.. حتى تتأكد ويشهد لي من معك بأنفسهم.. وفي الرحلة الثانية نتفق من جديد.. ها ما رأيك؟"..

ترك شاربه لأول مرة وضاقت عيناه أكثر.. ثم ودون أن يشعر –على ما أظن- كان يتمتم.. انتصب مبتعدا عن الجوال الذي كان يتكئ عليه..

"نصف الأجرة.. حل مقبول.. لكن ليس تماما.. فلنقل أنك ستأجر أدوات عملك لوحدك.. وهي ليست بالشيء الكثير.. أما الطعام فلا

بأس سنحسبك معنا وبعد أن نعود نخصمها من نصيبك.. أعتقد أن هذا عادل"..

لقد كان رجلا لئيما بحق هل كان مروان فعلا يعمل مع هذا الحثالة!.. كيف صبر عليه؟ ثم تذكرت أنني لست هنا من أجل المال بالرغم من ذلك شعرت أنني لو وافقت مباشرة فسأبدو مثيرا للشك..

"آآوه هذا كثير ألا تظن.. نصف الأجرة ومن ثم تخصمون مني حساب الطعام.. يا رجل.. اعتبرها كرم ضيافة.. حتى أنني لا آكل كثيرا سترى بنفسك.. اسمع خذ نصف حق الطعام من أجري وعلى بركة الله"..

عاد يوسف ليمسك شنبه بسبابته وإبهامه..

"حسنا لا بأس – ثم أضاف بصوت بدا كفحيح الأفعى- ولكن لا تخبر أحدا بهذا الاتفاق.. لا أحد"..

هززت رأسي.. اللعين يريد أن يأخذ الفائض من نصيبي لنفسه.. لهذا يبقي الأمر سرا.. مد يده للمصافحة على هذا الاتفاق فصافحته.. كانت قبضته هذه المرة أكثر حياة..

أشار بعينيه نحو شيء خلفي..

"هل تلك حقيبتك؟"..

تذكرت أنني تركتها هناك فعدت لحملها..

"هيا أدخلها إلى الخيمة سنقضي يومين هنا وبعدها سننطلق للبئر"..

دخل هو أمامي فتبعته.. كانت الخيمة مظلمة والهواء في الداخل ثابت.. كأننا خطونا داخل فرن وفي ذلك الجو الخانق رأيت شابا

مستلقيا في أتم الراحة.. نهض من مكانه حين رآني ونفض الغبار عن ثوبه.. كان طويلا مفتول العضلات بدونا أنا وأب شنب كالأطفال في حضوره.. مد إلي يده بملامح جامدة دون أن يكلف نفسه بوضع ابتسامة.. وظننت أنه يعتصر يدي عمدا كأنه يختبرني أو ما شابه.. فكرت أن الفتى لا يزال يعيش أطوار المراهقة..

"هذا الرفيق الجديد" قالها أب شنب وهو يربت على ظهري "وهذا سامي.. لكن لا أحد يناديه بهذا الاسم.. ناده بالأطرش" أكمل وهو يقاوم ابتسامة فبدا خبيثا حين برزت أنيابه..

"تشرفنا" قالها الأطرش وهو يعود للاستلقاء.. بنبرة تخلو من التشرف..

"لابد أن تعرف منذ الآن أنك عندما تتحدث معه لابد أن تعيد كلامك مرتين.. أي كلام تقوله في البداية هو فقط للنداء.. ثم عليك أن تعيده مرة كي يسمعك جيدا".. قالها وهو يضحك بالكامل.. كان لضحكته صوت يشابه زعيق القرود..

"ابن الحرام" خرجت الكلمة كالرصاصة من فم الأطرش لكن ذلك زاد من استمتاع أب شنب..

كان الجو متوترا وما زاد الطين بلة هو السؤال الذي طرحته "ولماذا أعيده مرة ثانية؟!"

"كي يفهمك"..

لم أضحك كي لا أدخل في حرب باردة مع ذلك الشاب منذ أول لقاء.. حاولت تغيير الموضوع بأن سألت عن مكان أضع فيه الحقيبة.. كانت الخيمة في فوضى عارمة.. بعض البناطيل الرياضية كانت في كل بقعة.. توقعت أنها للدهابي الآخر لأن أب شنب والأطرش يرتديان

الثياب.. رميت حقيبتي في ركن وانخرطت معهما في أحاديث جانبية.. من شاكلة "من أين أنت؟" و"هل أنت متزوج؟".. خلصت منها إلى أن أب شنب من الجزيرة.. متزوج وله أبناء.. أما الأطرش فهو في الثانية والعشرين من عمره.. من الهدندوة شرق البلاد حتى أنه يملك لهجتهم..

كان السؤال الوحيد الذي طرحه علي الأطرش هو "هل تجيد لعب الورق؟".. وبدا مرتاحا أو أكاد أقول أنه أحبني عندما أجبته أنني أعرف..

بعدها انهمكت معهم بإعداد العشاء.. لم يكن شيئا كثيرا.. العدس والسلطة.. واكتشفت فيما بعد أنهما الطبقان الوحيدان هنا.. ولو حالفنا الحظ فسنجد بعض الفول بالجبن.. عندما جلسنا للعشاء كان الاثنان.. أب شنب والأطرش مشغولين بالأكل لدرجة أن الجلسة كانت تخلو من الحديث.. عدا صوتي المضغ والبلع.. أشعرني ذلك بالحرج أنا القادم الجديد.. في لحظة ما.. اقتحم الجلسة جسد حشر نفسه بيني وبين أب شنب.. رجل أسود تتركز كينونته في رأسه الضخم والأصلع..

"يا كاجومة.. احترم الضيف على الأقل" نهره أب شنب..

نظر لي كاجومة بابتسامة بلهاء أظهرت صفين من الأسنان شديدة البياض..

"أووووه لم أنتبه.. تفضل تفضل قبل أن يمسح أب شنب الصحن.. لا يغرنك هذا النحيل.. اسم الكريم؟"..

"منذر"..

"تشرفنا.. أنا إدريس الشهير بكاجومة.. وجهك ليس غريبا هل التقينا من قبل؟"..

"لا.. لا أظن"..

تدخل أب شنب معلنا أنني سأعمل معهم منذ اليوم..

"أووه بديل الشاذلي.. هل أنت مولانا أيضا.. هل ستقضي الوقت في الصلاة والتعبد أم ستعمل فعلا"..

ضحكت وأنا أجيبه.. "سنرى"..

تجاوز كاجومة ردي وانطلق يتحدث كمصاب بفرط النشاط.. ولم يلهه عن التهام ما تبقى في الصحن.. كل ما فعلته أنا هو الاستغراب من كمية الحماسة التي تشع من ذلك الإنسان.. كانت من النوع الذي يغيظ.. لأنها بلا سبب واضح.. ثم تنبهت أن هذا هو الفوضوي الذي كانت بناطيله تملأ الخيمة.. وبدا لي الأمر متناسقا..

"لكن يا أب شنب–قال كاجومة- ألم تسمع عن عمك فاروق قالوا إن معه دهابي جديد.. يعرف أين يتجمع الذهب.. متعلم قال أنه درس جيولوجيا.. يقول أن الذهب يجري في أنهار تحت الأرض عليك فقط أن تتبعه.. كلام عجيب!"..

"جيولوجيا! ما هذه؟" سأله الأطرش تحت دهشتي وأمام عيني..

"أووه جيولوجيا يعني جغرافيا"

"ماذا؟"

"جغرافيا.. جغرافيا بالعربي.. جيولوجيا بالإنجليزي.. يعني التضاريس والجبال وهكذا"..

التفت نحو أب شنب فوجدته يجهز على الأكل.. لا يبالي بهم.. نهضت متحججا بأني شبعت وأريد ماء.. سرت مديرا لهم ظهري.. وبعد أن ابتعدت عدة خطوات.. فكرت في كمية العته الذي سأواجهه..

-3-

قضيت ليلتي معهم في الخيمة محصنا من زمهرير الليل دون أن أستطيع النوم.. استلقيت في ظلمة دامسة أسمع شخيرا من أحد الثلاثة.. وأصوات تنفس الباقين.. أخذتني تلك الليلة لسابق عهدي.. لزمان كنت لا أستطيع النوم فيه لليالي عدة.. سوى بضع ساعات.. كنت فيها حيوانا ليليا وحيدا يقتات على الأفكار الموحشة.. ضاق بي الحال.. فخرجت من الخيمة لأجد القمر مستعرا بالحمرة.. خطرت في بالي دنقلا أول ما رأيته.. جلست على الرمال متأملا يلسعني البرد ولكنني كنت مرتاحا في عزلتي.. وبقدرة ما غفوت جالسا هناك..

في صباح اليوم التالي ومنذ الفجر استيقظنا.. أشعل الأطرش نارا بمساعدة كاجومة وغلى اللبن.. ثم أضاف له الشاي ففاحت منه رائحة جميلة.. شربنا على عجل فقد كان علينا التجهيز للرحلة التي ستدوم أسبوعا.. قاموا هم بمعظم العمل بينما رافقتهم كي أعرف نظامهم كما قالوا.. ذهبت مع أب شنب لمقابلة سائق الشاحنة الذي يقلهم للبئر ويأخذ لقاء ذلك أجرا يساوي نصيب الدهابي.. دون أن يضرب حجرا.. لكن من ناحية أخرى فهو يقوم بأهم عمل.. إبقاؤنا أحياء.. فلو مثلا لا قدر الله نسى أن يعود إلينا.. أو ضل الطريق إلى البئر.. فغالبا ستكون نهايتنا محتومة..

ثم أخذني كي أستأجر أدوات العمل.. طوال سيرنا كان يتحدث عن أن صاحب المحل شخص ممتاز وأنه يتعامل معه منذ أن جاء للسوق قبل ست سنوات.. ساورني الشك من الطريقة التي كان يمتدح بها الرجل فأحسست أن في القضية منفعة شخصية له.. المحل كان عبارة عن أربعة أعمدة خشبية وبسقف من القماش يرأسها.. ورغم هذا المنظر المتأسف إلى أن المحل كان يحوي الكثير من الغرائب.. مطحنة

صغيرة ليست كطواحين السوق.. وهناك عدة أشكال وأحجام للعديد من المطارق والمزاميل والمصابيح.. وفي ركن ما كان يملك إطارات سيارات..

قدمني أب شنب لصاحب المحل.. كان هو الآخر يملك شاربا كثا وخدين ممتلئين.. لكن ما لفت انتباهي هو عيناه المحمرتان كالجمر.. وفي جفونه شيء من الصديد الأصفر.. كان جليا أن الرجل مريض فهو لم يتوقف عن حكهما..

"هذه المطرقة.. وهذا الأزميل قويان جدا لا تخف" ثم أزاح الرجل وجهه جانبا ساحبا نفسا عميقا.. وعطس.. تمخط بعد ذلك بكم ثوبه المتسخ وعاد يتحدث منتعشا "الحمدلله.. كما قلت لك تستطيع أن تكسر بهما جبل أحد"

وزنت المطرقة بيدي فوجدتها ثقيلة فعلا.. طرفها كان مسطحا على مساحة كبيرة.. "حسنا وماذا عن المصباح؟"

"طلبك عندي" اختفى الرجل خلف عدد من الطاولات مارا بأب شنب الذي اقتحم منتصف المحل.. كان يمسد جهازا له ذراع طويلة تلتف الأسلاك حوله.. "هذا هو الجهاز ها.. وصل أخيرا.. بكم تؤجره؟"..

"وصل نعم.. ذبحت كرامة لله أنني اشتريته.. فاصلت فيه وماطلت حتى اشتريته.. نظيف.. أأجره بعشرة آلاف للأسبوع"

"عشرة آلاف يا مفتري –صرخ أب شنب- لا لا حتى خمسة آلاف كثيرة عليه.. هل الجهاز يكشف الذهب أم يستخرجها مرة واحدة!.. من المجنون الذي سيعطيك من أجله عشرة آلاف".

عطس الرجل أولا قبل أن يجيب "أنت لا تعلم شيئا.. هذا الجهاز محجوز لمدة شهر من الآن.. هناك صف لمن يريد تأجيره"

"اه مجانين كلكم" قالها أب شنب ثم دخل مع الرجل في مفاصلة لشراء إطارات السيارات والبنزين.. وبعد أن توصلوا لاتفاقهم جاءني بالمصباح.. كنت طوال ذلك الوقت أركز على اليد التي سيمسك بها المصباح خشية أن تكون التي تلوثت بمخاطه..

بعد ذلك ذهبنا لشراء المؤن.. الخبز.. الخضر.. العدس.. الحطب لأنه كما أخبرني أب شنب قد لا نجده في الصحراء..

عندما عدنا للخيمة كان كاجومة والأطرش قد أحضرا براميل الماء.. أربعة من الحجم الكبير.. رغم أنني ظننت في العدد مبالغة لكن الاحتياط واجب دائما..

قرابة العصر تنصلت منهم وذهبت بحثا عن أوش الله.. كان الشخص الوحيد الذي أعرفه هنا.. وأستطيع الوثوق به.. غريب حقا أن يكون طفل في الرابعة عشر مقصدا للحوائج.. بحثت طويلا وانتظرت أكثر حتى وجدته أخيرا.. أخذته وانتأيت به بعيدا عن الناس.. كان متعبا ذابل الوجه..

"غدا ستذهب للبئر؟" سألني..

"نعم" رددت ساهما..

"لم أفهم.. كيف سيساعدك هذا في العثور على مروان؟"

"لست متأكدا"..

نظر لي باستغراب.. فشعرت أنا أيضا بالحيرة.. لم أعرف كيف سيقربني ذلك من مروان لكنه الحل الوحيد للحصول على الإجابات.. طالما أن الناس هنا لا يثقون بأحد.. وبما أنهم أنفسهم ليسوا مصدر ثقة فلابد من الاحتيال.. تجاهلت كل ذلك وتذكرت ما جئت لأجله..

"اسمع.. أوش الله أريد أن أطلب منك خدمة.. أمسك أولا هذا المال."

وضعت مبلغا في يده قسرا..

"إذا لم أعد معهم بعد أسبوع.. أريدك أن تذهب للدبة.. وتقصد قسم الشرطة الشمالي.. هناك ملازم اسمه ياسر كتبت اسمه لك في ورقة كي لا تنساه.. إن لم أعد أريدك أن تذهب إليه وتخبره باسمي وتقول له إنني الشخص الذي جاءك بخصوص مروان.. وتخبره بأن يبحث عني.. هل فهمت؟ أخبره بالقصة كلها.. حسنا"..

لم يستطع الكلام من ثقل ما قلته فهز رأسه..

-4-

مع ساعات الصباح الأولى.. حين لا يتاح للقمر فرصة الأفول.. فتزدان السماء بوجوده والشمس والنجوم الأشد تلألأ لبضع دقائق.. كنا في تلك الدقائق قد بدأنا تحميل الشاحنة بالحاجيات.. بينما شاي الصباح يغلي على بقايا الجمر من الليلة السابقة..

انطلقنا بعد ذلك مخترقين غيوم الضباب الرمادي وتكسر الشاحنة صمت الصحراء بزئير محركها.. كنت أنا وكاجومة والأطرش في حوض الشاحنة في الخلف.. أما أب شنب والسائق الذي اتضح أن اسمه عبدو في الداخل.. لم يكن الأمر سيئا.. فالشمس لم تكن في قوتها بعد.. كانت لا تزال تكشف عن نفسها بخجل.. استغل كاجومة الطريق ليكمل نومه.. فأسند رأسه على جوال خضر وغطى وجهه بساعده.. الأطرش كان ينظر.. ويتململ واقفا بين الحين والآخر.. عرفت أنه شخص قليل الكلام من نظراته الخاوية دائما.. أما أنا فقد تسمرت عيناي للبعيد لا أعرف ما الذي شدني؟!

لم تكن في المنطقة معالم.. لا تلال قريبة.. ولا واحة.. فقط بساط من الرمال لا ينتهي.. وليست حتى رمالا ناعمة كبقية الصحاري.. فالنوبة تحوي في قلبها صخورا مفتتة.. كأن الجبال نسفت ونثرت عليها.. حتى النيل العظيم بعد أن اتحدت كل فروعه لم يستطع اختراقها.. بل التوى كأفعى ومشى بمحاذاتها ليفصلها عن الصحراء الليبية غربا.. لا ألومهم حقا.. كل من يرى شيئا بهذا الاتساع والجمال لابد وأن يصيبه شيء من الجنون أو يجنح بخياله..

عندما قال السائق في السوق أن السحالب مسكونة بالجن تذكرت أيضا كلما يقال عن هذه الصحراء.. دوكي جيل هذا هو اسمها النوبي.. ويعني الرمال الحمراء.. يقال إنها كانت ترتوي من دماء النوبيين حتى

استحالت هكذا.. ويروى أن الجن سكنوها قبل النوبة.. وما زالوا.. قديما كان من يريد الاحتفال.. الاحتفال الحقيقي.. يتجرع من خمر البلح حتى يتجشأ ويمشي في الصحراء.. إلى أن يرى النار.. وحولها النساء الممشوقات كحيلات العيون.. ضفائرهن مجدولة وصراخهن حاد كأنك تحك الزجاج بالزجاج.. لا أعلم ما يحدث بعد ذلك.. ولست متأكدا أن كانت القصص مجرد ترهات شعبية أو هلوسات سكارى.. لكني أتذكر الشهاب الذي ضرب الصحراء قبل عدة سنوات.. لم نسمع صوت ارتطامه.. فقط هزة صغيرة كأن عاصفة مرت سريعا.. ثم رأينا ضوءا ينبعث من الأرض كأنها ابتلعت القمر..

أليست الشهب تضرب الجن.. ربما هم محقون في النهاية.. ربما هي مسكونة بالجن حقا..

أبحر عقلي بين الرمال متخيلا أشياء أخرى تتلاقفه الموجة تلو الأخرى.. وعندما أمسكت نفسي كنت قد تخيلتني ومروان في دنقلا.. في حفل زواجي.. الكل سعيد.. الكل راض.. كنت بعد ذلك أعي حماقة أحلامي فأستبدلها بشيء أكثر واقعية.. كأن أخسر قدما أو يدا في سبيل الوصول لمروان.. أو نعود لدنقلا سالمين لأواجه مشاكلي وأخسر أمامها.. والغريب.. أن الواقعية داخل عقلي تعني البؤس..

انتبهت إلى أن سرعة الشاحنة بدأت في التباطؤ وهو ما أخرجني من شرودي.. فمددت رأسي أنظر للأمام.. من البعيد رأيت ما يبدو كحطام جبل.. مجموعة من الصخور الضخمة تتراكم فوق بعضها لكنها قصيرة في نهاية الأمر.. كأنه جبل قطع رأسه.. وفي الطرف الأبعد من الجبل كنت أرى ظلالا لم أتبينها.. كانت مثل خيم أو مظلات.. عندما وصلنا قرب الجبل توقفت الشاحنة بالكامل.. انتفض الأطرش الذي كان نشيطا في حركاته دائما.. يتحول من السكون التام إلى النشاط دون فترة انتقالية من التكاسل.. رفس بقدمه كاجومة..

"هيه استيقظ.. يا زفت لقد وصلنا"

ثم حول نظره لي..

"سنرى اليوم قدرة تحملك يا شاب"

"وأنا جاهز" قلت كمن يدفع تهمة عن نفسه.. ومحاولا طمأنتها في نفس الوقت..

نزلت إلى الأرض بعد أن قفزت من طرف الشاحنة.. فحطت عيني مباشرة على الفتحة الواسعة بين حطام الصخور.. وصلتني منها أنفاس ساخنة كأنه فوهة بركان على وشك الهيجان.. ومن الأعلى كانت الشمس قد استعرت هي الأخرى.. خلعت قميصي وربطته على رأسي مبقيا.. لاحظت عيني كاجومة تتبعان خطوط البرص متفاديا النظر مباشرة لعيني..

"هيه".. ناداني الأطرش وهو يمد جوالا ويشير إلى بقعة كي أوصله إليها.. نظرت أولا إلى كاجومة الذي كان يحمل جوالا فوق ظهره ويمر أمامي.. فهمت ما علي فعله.. اقتربت من طرف الشاحنة وأوليت ظهري إليها.. وانتظرت.. بدأ الأطرش يدحرج الجوال نحوي.. في اللحظة التي أصبح ثقل الجوال بالكامل جاثما فوق ظهري اهتزت قدماي.. جاهدت لثوان ألتقط نفسا.. ثم بدأت أتحرك مرتجفا.. ليس فقط قدمي بل كل عضلة في جسمي ارتجفت.. كنت حتى تلك اللحظة بعيدا عن الرياضة أو كل ما يتعلق بالأعمال البدنية.. ورغم أن بنيتي عادية.. إلا أن نقل الجوال كان مهمة متعسرة فعلا..
كنت أشهق ملء صدري كلما أوصلت جوالا لمكانه.. مستغرقا في ذلك وقتا يكفي كاجومة لنقل جوالين.. وحتى أب شنب رغم نحوله ذاك كان أفضل مني حالا.. شعرت بالخزي حقا لكن لم يبد أن أحدا أعارني انتباها.. أو أن وضعي كان شاذا لدرجة مقلقة.. كان كاجومة مغتاظا من عبدو أكثر مني.. وهو يقف بعيدا يدخن سجائره بتلذذ.. "يااا عبدو –صرخ كاجومة- هل أنت حامل في الشهر التاسع.. تعال وساعدنا."

رد عبدو من مكانه.. "لا أبدا أراك لا تحتاج مساعدة.. أنا مستغرب أنهم يساعدونك أصلا"..

في لحظة ما انتبهت أن ما نحمله يكفينا لشهر أو ثلاثة أسابيع على الأقل.. لم كل هذا تساءلت في نفسي.. بعد دقائق وبينما أنا مشغول بنقل الأشياء ظهر شخصان من العدم.. هكذا.. ولم يبد على أحد الدهشة غيري..

صافحهما كاجومة بحرارة.. كان الأول يرتدي بنطالا رياضيا أخضر ممرغا بالرمال.. وفانلة داخلية بحمالات أصبحت بنية اللون.. وذا ملامح من أهل الغرب.. الآخر أيضا كان ذا بشرة سوداء إلا أنه كان أصغر سنا.. ويرتدي ملابس ناد كرة قدم إسباني..

"أحضرتم لنا الخير" قال أحدهما وهو يسير نحو الجوالات..

"الخير موجود.. خذا هذين الاثنين -قال الأطرش وهو يطبطب على جوال- لم نحضر لكم ماء قلتم أن معكم ما يكفي.. تتذكر.. قبل أن نغادر المرة الماضية"..

"نعم نعم.. هكذا كل شيء مضبوط.. هيه.. في الليل ها سنلتقي تعالوا هناك سنلعب حتى الصباح"..

وقبل أن ينطلقوا بجوالاتهم أشار بوجهه لي.. "جديد ها .. .. آآآخ مالك ومال هذا الشقاء لو اشتغلت سارقا لكان أفضل لك".. لم ينتظر ردي بل انطلق هو ورفيقه نحو الخيام التي رأيتها مسبقا.. بدت أكثر وضوحا الآن..

عندما أفرغنا جميع الأشياء على الأرض وراقبت وحدي الشاحنة تنطلق تاركة إيانا وسط العدم.. توجست.. داهمني شعور بالخوف.. كأن أمي أفلتت يدي وسط الزحام.. أردت أن ألحقه صارخا أريد العودة.. لكنني لم أحرك ساكنا.. راقبته يبتعد أكثر.. حتى تأكدت من استحالة التراجع.. وهذا كان مقدار الشجاعة الذي قسم لي..

ساعدت أب شنب والأطرش في نصب الخيمة.. فلاحظت أن الأطرش يعوض غباءه بالقوة حقا..

-5-

توقعت أننا سنبدأ العمل في اليوم التالي.. ولكنني أحسست بربتة على ظهري تبعها صوت كاجومة المتحمس.. "دعك من الخيمة وتعال.. آمل أن تكون مباركا ونقع على.. على خلية نحل"..

"ماذا؟!"..

لم يجبني بل أشار إلي أن أتبعه.. سرت خلفه حتى وصلنا فوهة البئر.. فناولني كاجومة حبلين وأشار لي بربط كل واحد منهما بصخرة من حطام الجبل حول البئر.. كان هذا الحبل هو مضرب المثل حين يقال: طول بالك مثل حبل اللالوب.. فقد كان طوله يقارب الخمسين مترا.. أخذت جل وقتي وأنا أحكم ربطه حول صخرة تأكدت أنها لا تتزحزح.. كانت لتكون ميتة شنيعة لو انزلقنا.. اتجهت مباشرة نحو البئر ملقيا نظرة.. أردت أن أرى القاع.. لكن الظلمة استحكمت والشمس لم تكن عمودية لتسمح لي بالرؤية.. وهذا ما زاد فزعي..

"لماذا أنت مستعجل؟" سألني وهو يضحك.. هززت رأسي وأنا مشدوه بظلمة البئر..

عدت أربط الحبل الآخر.. ثم رميت أطراف الحبال داخل البئر..

"أأنتم من حفر البئر؟" تبادر السؤال لذهني وأنا أتخيل كم من الوقت والجهد استغرقوا لحفره..

"لا.. لكن أب شنب كان من بين أول من حفر البئر.. قبل خمس سنوات"..

"أي شخص يستطيع التنقيب هنا؟"

"لا.. ليس دون إذننا.. هذه البئر صار لنا الآن" قالها وهو يفرد يديه في سعادة بالغة..

الأسوأ من أن تقدم على عمل خطير ومتهور.. هو أن تفعله لأول مرة مدعيا أنه كشرب الماء بالنسبة إليك.. أمسكت بإطار سيارة ووضعته حول جسدي كما فعل كاجومة.. مد لي بمصباح وأخذ هو الآخر وربطه حول رأسه.. ففعلت مثله.. أمسك كل منا بحبل.. تركته يتخذ الخطوة الأولى.. فقام بتحسس الجدار بقدمه بحثا عن موطئ قدم.. وعندما وجده وزع ثقله بين الحبل وموطئ قدمه ثم هبط.. كانت الخطوة الأولى سريعة.. في ثانية كان فوق الأرض.. وفي الأخرى صار معلقا في الهواء.. بعد أن نزل عدة خطوات رأيته يشعل مصباح الرأس.. وسمعت صوته يناديني لأنزل..

حاولت تقليده بحذر.. بحثت لقدمي عن نتوء اتكأت عليه ونزلت شادا على الحبل.. تنفست.. نظرت للهوة تحتي بضوء المصباح.. تخيلت كم سيكون سقوطي مؤلما.. كم سيطول صراخي.. رأيت كاجومة بعيدا وخفيفا ينزلق على الحبل والصخور كأنه يلهو.. وجدت موطئا آخر.. بعيدا.. تساءلت هل أخفف شدي على الحبل أولا.. أم أثبت قدمي.. كل شيء في العقل يبدو ممكنا.. وحين تأتي لحظة التطبيق يتبخر كل شيء.. مددت قدمي.. مددتها أكثر.. سالت قطرة عرق على جبيني ثم انحدرت على خدي.. تشتت انتباهي للحظة فانزلقت.. احتكت يداي بالحبل كأنها مكابح.. استطعت بعد عدة اصطدامات بالصخور التشبث.. هل الخوف ما جعلني أظن أنني انزلقت لمسافة كبيرة أم هو ما حدث فعلا؟..

"هيه يا!!!.. .. هل أنت بخير؟" سمعت صدى كاجومة في الحفرة..

وللحق كان للصدى تأثير مخيف.. أكثر من الانزلاق..

"نعم.. أنا بخير" أكملت في لحظة من الغيظ "اسمي منذر هل نسيت؟.. .. أو أبرص.. حتى لا تنسى"..

بعد تلك الانزلاقة تدفق الأدرينالين في عروقي.. فأكملت النزول بمهارة.. وجدت في حركاتي انعكاسات لم أتخيلها.. حالة من التوقد والثبات لم أعهدها فيه.. ولا أتذكر أنها موجودة..

عندما لامست قدماي الأرض نظرت للأعلى.. مسافة بعيدة قدرتها بخمسين مترا.. فوهة الحفرة كانت تضيء كقرص الشمس.. أو أكبر بقليل كي لا أبالغ.. انبهرت مني.. ولم أستطع إيقاف ابتسامتي.. جلت بنظري في المكان.. كان عبارة عن كهف ضيق أقرب إلى أخدود تحت الأرض.. والصخور بأحجامها الضخمة تتدلى من كل شبر..

جاءني صوت كاجومة وهو يقف قربي كمنارة.. فالضوء من المصباح لم يسمح لي برؤية وجهه..

"اتبعني.. وانتبه فالمكان ضيق" تردد صدى كلمة ضيق في المكان..

انحنينا ونحن نسير بخطوات حذرة.. ولأن الصخور كانت صلبة.. مصمتة.. فإن صوت خطواتنا كان مضخما حتى ظننت أنا جيشا يسير خلفنا.. تقدمنا إلى أن وصلنا حفرة أضيق فدخلها كاجومة حبوا بعد أن دفع بإطار السيارة أولا إلى الداخل.. تبعته حاشرا جسدي في الفتحة.. وما إن تجاوزنا الحفرة حتى اتسع الكهف أكثر.. تساءلت لمدة كيف لهم أن يشيدوا هذا الطريق فقط بتلك المطارق والمزاميل.. أي صبر هذا.. ولو أنهم يملكون مثل هذا الصبر ألا يمكن استثماره في أشياء أقل خطرا..

وجدنا مفترق طرق.. الأول كان استكمالا للنفق الأصلي.. والآخر يميل لليمين عنه.. مشى كاجومة مباشرة وتمتم بشيء لم أسمعه.. عندما وصلنا النهاية أنزل كاجومة الإطار عن كتفه.. ففعلت مثله..

"لا هذا سنحتاجه للصخرة الأخرى".. قال وهو يتسلق صخرة ويتلمس بأصابعه ما بدا لي كخيط يشق الصخرة.. كان يتوهج تحت

الضوء.. ثم قام بتثبيت الإطار على نتوء.. أخرج بعد ذلك زجاجة من جيبه وما إن فتحها حتى فاحت رائحة الوقود.. صب منها على الإطار وقام بإشعاله..

عدنا بوتيرة أسرع نحو مفترق الطرق واتجهنا يمينا هذه المرة.. كان هذا النفق أقصر من سابقه.. وقام حينها بإشعال الإطار الآخر.. في طريقنا للعودة كانت الحرارة ترتفع.. أعني أنني لاحظتها تتزايد عندما كنا نتقدم أكثر فأكثر إلى داخل البئر.. وهو شيء طبيعي لأن باطن الأرض مرتفع الحرارة.. لكن أن ترتفع الحرارة ونحن في طريق العودة كان مشكلة بالنسبة لي.. في لحظة ما تكاثف الدخان.. وامتلأ الكهف برائحة المطاط المحترق.. هنا أحسست أنني خدعت.. فقد قام كاجومة بكل خبرة بالتلثم بالشال الذي كان حول عنقه وهو ما لم أكن أملكه.. داهمتني نوبات سعال متقطعة حتى وصلنا لنقطة البداية..

أمسك كاجومة بالحبل كأنه سيتسلق الحفرة..

"سنخرج؟" قلت مفكرا في مشقة ذلك..

"أتريد أن تختنق يا زميل.. هذا شأنك"..

كان الصعود صعبا في ظل الدخان المتصاعد خارجا.. كنت أتشبث بالحبل بيد وأمسك الصخور بالأخرى.. ولا أرى موضع قدمي بسبب الدخان.. ارتقيت البئر في بطء شديد.. وكلما تأخرت زاد الدخان حتى بدأت أجاهد بحثا عن هواء نقي.. وبمجرد وصولي لمنتصف المسافة حتى حوصرت بالدخان للدرجة التي لم أستطع فيها رؤية يدي.. تزايد ثقل رأسي كأن وزنه من الداخل تضاعف.. توقفت مكان بغباء لا مثيل له..

انتابتني نوبة سعال مطولة حتى ظننت أنني أوشك على الموت.. وهذا الهلع هو ما أعادني لرشدي.. فقد عادت الطبيعة الحيوانية لتزيد

من تشبثي بالحبل ورحت أصعد مهتاجا.. كنت أرفس الصخر ولا أظن أنني كنت أتقدم للأمام.. استطعت تبين صوت كاجومة وسط تلك المعمعة التي أثرتها..

"أمسك بالحبل بكلتا يديك"

راح كاجومة يسحبني وأنا من جهتي كنت أتسلق بقدمي.. وشيئا فشيئا بدأت أقترب من الفوهة.. ويصلني الهواء النقي حتى خرجت من تلك الحفرة اللعينة.. استلقيت مباشرة على ظهري ورحت أسعل كأنني سأبصق قطعة من رئتي..

"لا تقلق ستعتاد الأمر.. هذه البئر عميقة فعلا لا ألومك" قال كاجومة وفي نبرته شيء من الشفقة..

-6-

جلسنا ننتظر قرب البئر.. كنت أعلم أن الغرض من الإطارات المحترقة هو تسخين الصخور ليسهل طرقها وتكسيرها.. ولا أظن أن للأمر فائدة ملموسة فتكسيرها لا يزال صعبا..

توقعت أننا سننقسم حال نزولنا للأسفل.. اثنان سيذهبان مع كل مفترق نفق.. وأنا.. أردت أن أكون مع كاجومة لأنه الثرثار.. ومنه أستطيع الحصول على المعلومات التي أريدها.. كان علي التقرب منه.. التظاهر بالحماس.. وقد أعادني ذلك شيئا ما إلى أيام الجامعة حين يكون تلفيق الاهتمام شيئا ضروريا لتسيير الحياة..

أخذت نفسا عميقا كأنني مقدم على الغوص.. ولعبت بعقلي.. خدعته.. أمرته.. لا أعرف كلمة تصف ما فعلته تحديدا.. هو شبيه بالخداع أن تفكر بعقلك في جمال الجو وروعة الطبيعة وتأخذ كل أمر سلبي موضع سخرية.. وسرعان ما يتدفق سيل من مركبات السعادة في العقل.. فيصل لحالة من النشاط والانفعال.. ربما لم أكن محظوظا مثل كاجومة الذي يبدو الحماس جزءا جوهريا من شخصيته.. إلا أنني أيضا أستطيع أن أكون مثله.. عند الضرورات فقط.. ومتى ما توفرت لي الطاقة للقيام بذلك..

"كاجومة.. أردت أن أشكرك على مساعدتي هناك.. أعني الآبار التي كانت في حلفا قصيرة.. بل أننا أحيانا كنا لا نحفر آبارا بل ننقب على السطح فقط.. ربما لهذا لم نكن نحصل على شيء يذكر"..

"لا لا عليك ستعتاد.. نحن نعمل هنا منذ مدة لهذا فكل شيء سهل.. ولا تتوقع أنه فقط لأننا نعمل جاهدين ونزل لبئر عميقة أن سنصبح أثرياء.. الحظ يلعب دورا مهما.. الدنيا حظوظ"..

"لكن يا رجل أنت تسلقت الحفرة وهبطت منها كأنك كنت تسكن في شجرة"..

"ضحك للحظة هل هذا واضح جدا؟"

"ما شاء الله.. ها فلتشهد.. حتى لا تقول أنني حسدتك"..

في ذلك الوقت كان الأطرش يعد طعاما فاحت رائحته من القدر.. كان عدسا بالطبع.. كنا وحتى الظهيرة لم نتناول شيئا سوى الشاي صباحا في الدبة.. ظننت لوهلة أننا لذلك سنأكل عدة أطباق سلطة مثلا.. لكن لا فقط العدس.. تحلقنا حول الصحن بعد أن انتهى الأطرش من إعداده وأكلنا.. أجهزنا عليه سريعا.. ولا أظن أننا شبعنا تماما لكن حرارة الجو حالت دون أن نأكل أكثر..

راقبت أب شنب وهو يحوم متوترا حول البئر.. ثم يعود معلنا أن الدخان ما زال يتصاعد.. يجلس قليلا معنا مستظلين بالخيمة التي نصبناها ثم يذهب للبئر مرة أخرى.. إلى أن عاد في المرة الأخيرة معلنا أن الدخان قد توقف.. نزلت معهم مرة أخرى.. في الأسفل كانت الرائحة الخانقة للمطاط المحترق تملأ الجو.. هذه المرة كنت أذكى وأخذت قطعة من ملابسي لألفها كوشاح حول وجهي ولولا ذلك لعاودتني نوبات السعال..

تبعت أضواء المصابيح حتى وصلنا المفترق.. اتجه الأطرش وأب شنب أماما وأخذنا نحن الطريق الأيمن.. نظرت حيث كان الإطار فوجدت آثار ذوبانه والسواد الذي غطى الصخرة الضخمة.. مد لي كاجومة مطرقة وأزميل.. كانا ثقيلين بالنسبة لحجمهما.. مركزان..

ثبت كاجومة الإضاءة على نتوء صخري بحيث ترسل وهجها نحونا..

لا أحب أن أبقي المصباح على رأسي وأنا أكسر-قال مفسرا- الآن كل شيء جاهز هيا..

تكالبنا على الصخرة كنحاتين.. أو لنقل كنحات ذو خبرة ومبتدئ.. جلس كاجومة متكئا على ركبته وموزعا ثقله على القدم الأخرى.. تك تك.. تك.. تك.. كانت الطرقات المدوية تتردد في الكهف.. ضرباته على الصخرة كانت مركزة.. وتستهدف أجزاء صغيرة في كل مرة.. بدأت أنا الآخر بالطرق.. في البدء جربت العمل واقفا.. لمدة بسيطة حتى تمكن مني الإرهاق فجلست مثله.. رحت أضرب بعشوائية وكأنني سأفجر الصخرة بضربة واحدة.. كان صدى ضرباتي أشبه بأوركسترا هوجاء.. بينما انعكاس ضرباته كانت كعقارب الساعة.. رتيبة ومتتابعة..

"لا تضرب.. أجرح.. ثم وسع الشرخ" قال كاجومة كأنه شيء بديهي ومعروف..

قلدته.. استخدمت طرف الأزميل لإحداث شرخ.. وثبت الأزميل فيه.. فأصبحت ضرباتي مركزة في تلك النقطة..

"قل لي يا كاجومة.. منذ متى وأنت تعمل هنا؟"

"أربعة سنة تقريبا" أردت أن أصحح عبارته لأربع سنوات لكن لا يهم..

كان السؤال الذي أود طرحه بعد ذلك هو "ألا يفترض أنك غني الآن؟" لكنه بدا مبكرا.. لابد وأن أمر بمرحلة ما من التعارف كي لا يراني فظا.. ولو أنني أشك بأن تلك الكلمة في قاموسه.. هو فقط إما يروقه شخص أو لا..

اتخذت الطريق الطويل نحو هذا السؤال..

"وماذا كنت تعمل قبل هذا؟"

"أشياء كثيرة.. منذ أن كان عمري في التاسعة بعد أن تركت المدرسة.. ولا أظن أنني بدأتها فعلا.. فأنا لم أنتظم أصلا.. في البلد هناك في كادوقلي كانت المدرسة بعيدة ونحن نسكن في مكان بعيد في

الخلاء.. لهذا لم تكن المدرسة أولوية كالماء والطعام.. .. بعد أن تركت المدرسة كنت أعمل على كارو.. أنقل به الماء من البئر وأوصله للسكان مقابل المال.. استمررت على هذا لبضع سنين حتى مات الحمار بالطبع –قالها وهو يضحك- في نهاية عمره أصبح هزيلا وترى عظامه بارزة تحت جلده.. أتعرف أنا لم تكن لي علاقة بالدراسة لكن هناك أبيات شعر سمعتها وعلقت في ذهني.. تقول ولو تراني راكبا على حمار الأعرج يمشي على ثلاثة كمشية العرنجل.. كان هذا بالضبط حال الحمار..

بحثت في ذاكرتي عن هذه الأبيات تبدو مألوفة لكنني لم أتذكر قائلها ولا القصيدة.. حثثته ليكمل..

"هممم.. هل كان لك أخوة أكبر منك؟."

"كنا ستة أربعة بنات وأنا وأخي.. كنت الثاني بعد أخت تكبرني.. وأخي هو أصغرنا.."

صمتنا قليلا.. لم أعرف كيف نعود لموضوعنا لكنه باغتني بنفسه..

"أين كنا.. نعم.. بعد أن فطس الحمار-ضحك مرة أخرى- هل تعلم فكرت أن أذبحه وأبيع لحمه لجزار لكنه بالطبع كان سيدرك أنني أحاول خداعه.. فنحن لم نكن نملك أي ماشية.. بعد ذلك اضطررت أن أبحث عن عمل آخر في السوق.. اشتغلت في بيع الليمون لفترة والسجاير.. أي شيء لتسيير الأمور.. كنت وقتها في الحادية عشر.. أو.. نعم في الحادية عشرة كان أحد أقرباء أمي يعمل بناء.. وفي حاجة لصبي يعينه.. تعرف.. ينقل الرمل.. يخلط الأسمنت.. هذه الأشياء.. عملت معه.. تعلمت الأساسيات.. لكن كما تعلم لا يوجد بناء كثير في كادوقلي.. فاا.. في يوم عرفت أن ابن عمي سيذهب للخرطوم فقررت أن أذهب معه"..

"جربت كل شيء ها"

"كل شيء.. في الخرطوم كان الوضع أفضل.. العمل.. الحياة.. أتفهم! شخص قادم من كادوقلي لم ير كل ذاك العدد من البنايات والسيارات.. وأنا كنت أظن أن السيارات للسفر بين المدن فقط وفي المدينة تتنقل بقدميك أو على حمار.. ثم أنني لم أر مدينة بكل ذاك الحجم.. عشت أول أيامي مبهورا بكل شيء.. العمل في البناء كان موجودا دائما.. فقط أنت وكسلك من يحددان ما ستجني.. لذا فالمال كان جيدا.. كنت أرسل لأهلي فائضا.. وسارت الأمور.. لكن كما ترى في آخر سنوات لم يعد الوضع جميلا ولا سهلا.. ثم انتشرت قصص الدهب.. فقررت القدوم وتجريب حظي"..

"وكيف العمل هنا إذا هل هو مجد؟" سألته وأنا أريح يدي اليمنى قليلا.. وخالعا قميصي الذي امتلأ عرقا..

"لا بأس به.. أفضل من الحرف الأخرى.. لكن كما ترى أحيانا أشعر بأني عالق".. تشتت كاجومة لثوان فضرب أصبعه بالمطرقة.. وسقطت بضع قطرات دم لمعت تحت ضوء المصباح..

"ألا تعود لزيارة أهلك؟"

"أتعرف نحن ارتكبنا خطأ غبيا نسينا أن نحضر ماء.. ذكرني المرة القادمة" "ماذا قلت؟!"

"أنا أيضا عطشت.. قلت لك ألا تعود لزيارة أهلك؟"

"بلى العمل هنا في رمضان مستحيل.. وعيد الأضحى أفضل أن أقضيه هناك بعد أن أوفر مالا لشراء خروفين".

"إذا الأمر ليس كما نقرأه في الجرائد ليس هناك أكوام من الذهب؟"..

"أنت وحظك.. أنا أعرف حظي الزفت.. لكن هناك من يجد ذهبا بحجم اليدين"..

"أرأيت أحدها؟"

"لا.. من الأحمق الذي سيحوم بذهبه ليريه للناس.. لكني رأيت تمثالا.. أتعلم بعض الأشخاص يجدون تماثيل صغيرة بالمصادفة.. أتعرف بكم تباع.. .. قد تصل لخمسين ألفا"..

"لماذا؟.. ما المشكلة في أن يرى الناس حجم الذهب الذي تجده؟"

ضحك كاجومة وهز رأسه..

"أأنت مسكين يا هذا؟.. سيقتلونك.. ويسرقون ذهبك.. "

كان وقع الكلمات علي مربكا.. هل هذا ما حدث لمروان هل طمع الدهابة فيما لديه وقتلوه.. هل قتله كاجومة هذا الذي يبدو بريئا وبسيطا.. راقبته بطرف عيني.. وهو يلملم الصخور التي كسرها.. يفرزها تحت الضوء باحثا عن شيء ما.. ثم يتلمس الأرض بحثا عن جوال.. اقترب منه عارف أين وضعنا الجوال.. كان هناك تحت الضوء لذلك لم يره.. هل فعلا قتل مروان؟!..

أمد إليه الجوال فيأخذه مبتسما.. هذه المرة تبدو ابتسامته خبيثة!.. أرى يديه الغليظتين متسختين بالغبار.. تحمل الصخور وترميها داخل الكيس وهو يدمدم بكلام لا أسمعه.. أرى شفتيه تتحركان.. ارتسمت صورة في رأسي لكاجومة ممسكا بصخرة.. ومروان على الأرض.. يتلوى ألما.. ثم كاجومة يرفع يده عاليا.. "أين خبأت الذهب؟" سمعت كاجومة يصرخ.. تجحظ عينا مروان لا يريد أن يخبره.. كيف له أن يسلم البيضة التي ستعتقه بكل هذه السهولة.. هي لم تكن له.. هي الثمن الذي سيدفعه ليحصل على حياته من جديد فكيف يسلمها له..

"هيا.. املأ الجوال بالصخور التي كسرتها.. أظن أن هذا يكفي لليوم.. لكن دقيقة.. سأذهب لأرى ما فعله الآخرون هناك"..

أخبرني كاجومة بذلك وانسل عائدا نحو المفترق.. بعد أن ربط المصباح برأسه.. تركني لأفكاري.. تخيلتهم لسبب ما يخططون شيئا ضدي.. أنا لا أملك ذهبا.. لكنهم لو عرفوا لم أنا هنا.. ولو كانوا هم فعلا قد آذوا مروان.. فلابد أنهم سيلحقونني به.. مهما بدوا مسالمين..

لكن حتى تلك اللحظة.. لم أكن قد أبديت سببا للشك.. ربما تأكدوا أنني لم أعمل في آبار ذهب من قبل وتنقصني أدنى المعرفة بالعمل.. لكن يبقى.. هذا ليس سببا للشك.. لابد أن أهدأ..

مساء اليوم الأول استلقيت داخل الخيمة وكل عضلة في جسمي تئن.. كل مفصل كان يصدر صريرا كأنه صدئ.. وعندما جهزوا العشاء داعب خاطري أن أنام خفيفا.. لكن معرفة ما ينتظرني في الغد جعلني اتغصب الطعام.. لم أعرف من أين جاؤوا هم بالنشاط نهاية اليوم.. بعد الأكل دعاني الأطرش وكاجومة للعب الورق.. قالا إنهما سيذهبان للجيران.. كانوا يقصدون المجموعة التي رأيتها صباحا.. رفضت الذهاب..

تركانا وذهبا.. عدت أتمدد بينما سمعت أب شنب يطنطن "غير مسئولين.. كلهم"..

سألته كي أبدو مهتما والحق أن النعاس كان متوليا زمام الأمور..

"لماذا لا تذهب معهم؟."

قال بشيء من الغيظ "أنا لم أصدق أننا تخلصنا منهم أولئك الملاعين"..

أثار كلامه تساؤلاتي.. في وقت آخر كنت سأتابع التقصي حتى أفهم.. لكنني نمت..

-7-

في الصباح التالي استيقظت مليئا بالتساؤلات.. من عدم التصديق للمكان والزمان.. أعدت في عقلي وأنا مستلق ملخصا ما أوصلني إلى تلك النقطة.. منذ اللحظة التي أغلقت فيها باب غرفتي اليتيمة في الخرطوم حاملا حقيبتي نحو دنقلا.. بقصد التحدث مع والدي عن قراري بالزواج.. وأتفق معهم ليرافقوني لخطوبة ليلى.. ثم ذلك الحدث العرضي حين عرفت أن مروان مفقود.. والذي لم يكن عرضيا في نهاية المطاف.. أنا الآن دهابي! رددت العبارة الأخيرة همسا فبدت غريبة لي.. غير قابلة للتصديق لكن أوجاع الجسد كانت خير دليل على الواقع..

حاولت النهوض لكن صدعا من الألم كان يشق ظهري.. جعلني أتوقف عن الحركة مباشرة.. حاولت تحريك يدي.. فإذا بأكتافي متيبسة كأن قطعا من الجليد تستقر فوقها.. بقيت على ذلك الوضع لمدة.. كالمشلول.. غير قادر على اتخاذ قرار النهوض.. تذكرت ذلك الصوفي الذي قابلته في الباص "ليس هناك طريق مستقيم في هذه الحياة" كان يقول..

سمعت صوتا قربي لكنني لم أجرؤ على الالتفات.. الخوف من الألم كان أقوى من الفضول.. سمعت أيضا صوت الخيمة يفتح وهكذا دخل خيط من ضوء الشمس.. ونسيم هواء بارد..

بعد مدة من الزمن عرفت أنني لابد وأن أتحمل الآلام وأغاليها للنهوض.. وهذا ما فعلته.. خرجت من الخيمة ليضربني شعاع الشمس جاهرا عيني.. احتجت ثواني حتى أتأقلم.. ثم تدريجيا تناهى لأذني صوت أغنية.. النغم والإيقاع.. ثم جاء صوت وردي فتأكدت أنني أسمع أغنية صدفة.. فتحت عيني على اتساعهما غير عابئ بالضوء فرأيت الأطرش

جالسا قرب النار وبجانبه مسجل.. من طراز قديم.. يبعث تلك الألحان وسط هذه الصحراء الخاوية..

توجهت وأنا أدندن مع الأغنية طربا نحو براميل الماء.. غسلت وجهي ويدي بماء كان أقرب للتجمد دفعني ذلك لأخذ أنفاس عميقة.. وما إن انتهيت حتى اقتربت من النار.. كان الأطرش يغلي اللبن عليها.. انطلقت بعد ذلك أغنية الجيلاني العصفور سألته مستغربا إن كانت الإذاعة تصل إلى هنا..

"الإذاعة.. لا أعلم.. لكن هذا شريط تسجيل."

"هل ما زالت هذه الأشياء موجودة؟"..

لم يرد بل مد لي بكأس الشاي.. ثم عطس جانبا..

أنا.. دارت في ذهني تساؤلات عدة من الليلة الماضية.. تذكرت الطريقة التي تحدث بها أب شنب عن المجموعة الأخرى ولم استطع كبح نفسي من النهوض فجأة والنظر تجاه خيامهم كانت هناك منتصبة على بعد مئات الأمتار.. لكنها لا تزال في مرمى النظر.. عدت أجلس سائلا إياه..

"كيف كان اللعب البارحة.. يبدو أن كاجومة لا يقوى على الاستيقاظ هل بقيتم لوقت متأخر"..

"اووه –قال وهو يتمدد- لقد فوت على نفسك.. كانت لعبة حامية استلمت هؤلاء الفئران لأربع جولات متوالية.. جميعهم مدينون لي بقرابة ألف جنيه".. لم يتوقف الأطرش عن حك عينيه وهو يتكلم..

فهمت من كلامه أنهم يلعبون قمارا لكنني لم أتفاجأ ولم يتحرك في شيء.. لم أرد فعلا أن أتحدث عن ما يفعلونه.. قلت مغيرا نقطة النقاش..

"قل لي منذ متى وأنتم تعرفونهم.. أعني هل هو طبيعي أن تتواجد مجموعتان بهذا القرب من بعضهما."

توقف الأطرش عن هرش عينيه.. أعتقد أنه كان يختار كلماته بعناية.. أي أنه ربما سيكذب علي..

"طبيعي!.. لا أعلم.. لا أظن أن في الأمر مشكلة"..

انتبهت إلى التورم الذي بدأ يتكون على جفنيه..

"لماذا لا تعملون معا.. ألن يكون ذلك أفضل؟."

تململ الأطرش واقفا..

"لقد كنا نعمل معا أصلا.. كانوا هم هنا معنا في هذه البئر.. لكنهم وجدوا عرق ذهب آخر هناك.. وقرروا متابعته وصار لهم بئر.. أنا وكاجومة واثنان آخران قررنا البقاء هنا"..

راقبته وهو يرفع إبريق الشاي ويمده لي.. كان علي أن أذهب لغسله.. فالأعمال بيننا قد قسمت بطريقة سلسة.. كل يؤدي دورا ما دون تذمر أو تأخير.. لكن ما فعله الأطرش كان بدافع إسكاتي أو ربما تغيير الموضوع.. نهضت حاملا الإبريق وكؤوس الشاي نحو البراميل الزرقاء.. كانت المياه قد قلت برودتها بحرارة الشمس المتزايدة.. وجدتها فرصة جيدة للوضوء والصلاة.. وحين وقفت للتكبير سمعت صراخ كاجومة المبتهج "يا مولانا ادع ربك يفرجها علينا"..

بعد أن فرغت من الصلاة وجدت أن العمل قد بدأ ولم يعد من مجال للتباطؤ.. كان أب شنب الذي ظننته يتجول دون هدف قد جمع الجوالات الثلاث التي ملأناها بالصخور من أسفل البئر في اليوم السابق.. جمعها قربه على حصير كبير.. وفي المنتصف كانت صخرة

كبيرة مسطحة تبدو كمنضدة أو سندان للطرق القادم.. فهمت أن علينا تفتيت الصخور لقطع أصغر..

جلست على الحصير بجانب الأطرش.. راقبته بادئ الأمر يضع الصخرة التي يريد ضربها في وسط حلقة من القماش.. كوسادة تحيط بالصخرة.. ثم ينهال عليها بالضرب.. كان الغرض من ذلك أن يبقي كل ما يتطاير من الصخرة في حيز واحد.. ثم بعد ذلك يعيد ملء الجوال بالفتات.. بدأت تقليده.. وضعت الصخرة داخل الحلقة القماشية وحين رفعت يدي لضربها.. أحسست بكتفي يتمزق.. ما زالت عضلاتي مرهقة من الأمس.. قاومت.. فليس هناك مجال للراحة ضربت وضربت.. الأطرش بجسده المفتول جعل الأمر يبدو سهلا.. بينما هو على العكس تماما.. كنت أحتاج في مقابل أربع ضربات يجهز بها الأطرش على الصخرة للتحول لحطام.. لعشر ضربات مثلها أو أكثر..

في لحظة ما جاء كاجومة وبيده خبز جاف يلوكه.. مد لي بواحدة.. ثم علق بكلام حول عيني الأطرش المحمرتين.. هنا.. عندما صار الأمر مرئيا للجميع.. بدأ نقاش عن أن في الأمر عدوى بدأت من السوق.. قال كاجومة أنه رأى عدة أشخاص بنفس الحالة.. وأنا وافقته.. لكنهم جميعا تجاوزوا الأمر إلى نقاش آخر.. بينما دب الخوف في.. لم يبد عليهم القلق من شيء.. وبافتراض أن العدوى انتشرت بيننا.. ونحن هنا في الصحراء.. حيث لا يوجد أي طبيب أو أدوية.. فستكون مشكلة كبيرة.. كيف لم يرو هذا؟..

قمت مباشرة وأمامهم بلف شال تبرع لي به أب شنب.. أحكمت إغلاق فمي وأنفي.. رمقني الأطرش بنظرة فهمت منها أنه اغتاظ من تصرفي ذاك واعتبره شماتة مني..

وبعد دقائق.. عندما انطلق أب شنب وكاجومة داخل البئر.. وجدتني وحيدا مع مصدر الجراثيم.. نفتت الصخور.. والشمس هي المشاهد الوحيد لنا.. كنت آخذ لحظة أو اثنتين أتأمل الصحراء في

صمت.. حتى أصوات الطرقات كانت تبتلع من قبل هذا الفراغ الشاسع فنعود للهدوء.. بينما كنت أهرس إحدى الصخور بضرباتي المتتالية.. قفزت قطعة واستقرت على الحصير.. لم أبد اهتماما بها.. لكن الأطرش سرعان ما رمى المطرقة جانبا وانحنى ممسكا بها..

"ألا ترى-قال والقطعة بين أصابعه- لقد كدت تضيع ناقرا كاملا"..

راقبته يتفحص الحجر على ضوء الشمس.. وعيناه تلمعان.. كأنهما تعكسان جنونا من الداخل.. أو لهفة.. أدخل الأطرش الحجر في فمه.. لاكه سمينا ويسارا.. ثم بصقه في يده فلمع بلونه الأحمر المصفر..

"هذا ذهب صاف.. لا يحتاج لأي شيء".. قالها وهو يضع الحجر في جراب صغير قبل أن يضعه جانبا..

لم أعره اهتماما.. كان همي ينصب على كمية الصخور التي لا تنقص.. وكأننا في عقاب إغريقي قديم.. مرت أكثر من ساعة ولم ننهي حتى نصف الصخور..

"أليست السحالب في ذاك الاتجاه؟.. قلت مشيرا نحو الشمس.. "

"السحالب!.. نعم" كرر الأطرش كلمتي قبل أن يجيب..

"يقولون أن فيها الذهب الحقيقي"..

لم يتجاوب معي..

"هل ذهبت إلى هناك من قبل"..

"ذهبت إلى السحالب.. نعم ذهبت"..

"لا تحب الكلام الكثير ها.. أفهمك.. لكن حقيقة أنك ذهبت وعدت شيئا عظيما.. لا مشكلة أن لم ترد التحدث في الأمر"..

ارتسمت على وجه الأطرش نظرة حيوان ضار.. حيوان يملك غريزة قوية ليس للعقل والمنطق دخل فيها.. فقد أحسست حينما تمحصت

في عينيه الضيقتين المبروزتين بتلك الحمرة المرضة أنه يرى داخلي مباشرة.. ويعرف تماما.. لم أسأل هذه الأسئلة.. وأنني لست هنا للذهب أو العمل.. لكن نظرته تجهل لم أنا هنا بالتحديد.. هو يستشعر خطرا مني لذلك فهو بنظرته تلك يقول إنه سيمحوني من الوجود إن حاولت إلحاق الضرر به..

لا مشكلة.. أنا لها هكذا فكرت مرتديا ابتسامة ذئب أنا الآخر.. إن كان قد فعل ما يستحق العقاب.. فسينزل عليه العقاب..

عدنا بعد ذلك للضرب دون أن نتحدث.. ليس كالمرة الأولى.. هذه المرة كان التوتر باديا في الأجواء.. فأصبح ضجيج الطرق والتفتيت والمحق وسيلتنا للقتال.. وللعجب فقد تقاربت ضرباتي منه.. فلم تعد الصخرة العتية تحتاج لأكثر من ست ضربات لتصبح غبارا.. وكنت كلما وجدت حجر ناقر ذهبي أضعه في جيبي أمام نظراته.. لم يجرؤ على أن يقول ضعه في الجراب مثلا أو أن يسألني عما سأفعل به.. أنا أعرف كما يعرف هو أننا لابد سنقتسمها في النهاية..

بعد أن فرغنا من تفتيت الصخور وإعادتها إلى الجوالات.. قمنا بإعداد الفطور.. هذه المرة سلطة بالخبز.. طماطم وعجور وبصل الكثير من البصل وفلفل أخضر والملح هو النكهة الوحيدة الموجودة.. أخذت منه مهمة تقطيع الخضر وغسلها كي لا يمسهما بيديه الملوثتين.. بعد ذلك نزلت أنا كخلد يعرف دربه تحت الأرض وناديتهما.. أب شنب وكاجومة.. وعدنا للأكل.. بعد ذلك الشاي والسجائر.. ثم نزلنا مرة أخرى جميعا للبئر..

وعلى نفس الوتيرة كنت أنا وكاجومة في خندق.. وأب شنب والأطرش في الآخر.. في نفس اليوم عندما نزلنا للبئر سألت كاجومة عن السبب الذي جعل الشاذلي يترك العمل.. فأخبرني أنه مل وتعب من الموضوع ولم يعد يرى فيه أي جدوى..

-8-

نهاية اليوم كنت مشبعا بالآلام كالليلة السابقة.. لكن هذه المرة عندما نهض كاجومة والأطرش للذهاب للجيران التحقت بهما.. رمقني أب شنب دونهما بنظرة خيبة.. أو استجداء لكنني ادعيت الغباء.. فأخرج أب شنب طمبورا لم أره حتى تلك اللحظة.. بدا كأنه يقول فلتذهبوا للجحيم أنا أملك ما يرافقني.. بعد عدة خطوات خارج الخيمة وصلت إلى مسامعي الإيقاعات التي عزفها أب شنب.. كانت جميلة يصعب التصديق أن شخصا مثله قادر على عزفها..

"أووه سيكون يوما حماسيا يا أبرص" رابتا على ظهري.. لم يستطع كاجومة كبح حماسه.. "اسمع يا مولانا مهما رأيت هناك فلا أريدك أن تأخذ فكرة سيئة عنا.. نحن فقط نستمتع بوقتنا تفهمني صحيح.. انظر حولك لا يوجد أي شيء نروح به عن أنفسنا".. هززت رأسي..

قبل أن نصل رأيت المصابيح مضاءة حول مجموعة من الرجال.. وأصواتهم تتعالى باللغط.. ولكن الصوت الواضح كان للأغاني المنبعثة من جهاز تسجيل.. هم أيضا يملكون واحدا.. لكن صوته أنقى وأعلى.. حال ما وصلنا إليهم اقتحم كاجومة جلستهم باركا على الأرض "أنا التالي" صرخ..

كانوا مجموعة من ستة يفترشون الأرض.. أربعة منهم يلعبون الورق واثنان في الانتظار يتابعون.. حييتهم فتولى كاجومة التعريف.. لم أحفظ أسماءهم طبعا إلا أثناء اللعب وليس جميعهم.. كانوا تشكيلة سودانية من كل البقاع لم يبدو أنهم يعرفون بعضهم سوى من العمل.. مثلنا.. جلست أراقب اللعب.. سألني أحدهم يجلس قرب المصباح وبيده دفتر..

"يا جديد.. هل ستلعب.. حريق.."

"نعم" قلت شاعرا أنني رسمي أكثر من اللازم..

"نسجلك بماذا؟" سألني.. فقفز كاجومة رادا بالنيابة عني..

"أبو المنذر.. ولا الأبرص"..

تعالت تساؤلات البعض عن أنني أبرص وهنا حتى من كان يلعب توقف للحظة والتفت نحوي.. قام أحدهم بكل بجاحة بتقريب الإضاءة مني ليروني بشكل أفضل.. عم الصمت قليلا..

"الأبرص لقب واضح يا جماعة.. البعاتي البعاتي جيد" قال وهو ينفخ دخان سجائره..

ثم وبطريقة غريبة التفت بعضهم نحوي ينتظرون الموافقة.. الإنسان له فرصة أن يختار اسمه هنا..

"البعاتي البعاتي.. لا يهم"..

هع ابتسم كاجومة مشيرا إلى أن الأمر حسم..

"ها أيها البعاتي.. ستدخل بكم؟"..

"كم ماذا؟"

"أووو-سمعت صيحة أحدهم دون أن أتبين وجه المتحدث- هل تريد أن تلعب هكذا.. بلا طعم"..

فرك صاحب الدفتر إبهامه وسبابته..

"الكاش يا صاحبي"..

"بكم ستدخل يا كاجومة؟"..

"مئتان"..

"مئتان إذا"..

بعد ذلك عاد انتباههم للعب.. كان الأربعة الذين يمسكون بالورق شديدي التركيز والسرعة.. أي أنهم على مستوى عالي من الاحترافية وربما كان للمال دخل في ذلك.. كانت اللعبة هي الحريق المعروفة كل شخص يمسك في يده أربع عشرة ورقة.. ويسحب من الصندوق ورقة في كل دور.. وعندما يزاوج الأوراق في يده ثلاثات يستطيع النزول.. لكنهم زادوا الصعوبة بأن النزول يكون من يد اللاعب على يسارك مع إبقاء سقف النزول عند واحد وخمسين.. كل صورة تحسب بعشر وكل ورقة تحمل رقما برقمها..

وفجأة.. وصلت لأنفي رائحة حادة.. استثارت أنفي.. التفت فانتهت إلى الكؤوس التي تمرر.. بسائلها الشفاف الممتلئة حتى المنتصف.. حين لاحظ ساقي الجلسة أنني التفت مد لي بكأس.. ازدردت ريقي.. كان الوقت في عقلي يمر بطيئا بدا أن يده بقيت دهرا تنتظرني.. حينها تدخل كاجومة مرة أخرى..

"هذا مولانا يا رجل.. لقد تهورت"..

ثم أخذ الكأس وفرغه في حلقه دفعة واحدة.. تحفزت بطني ومرت لحظة سريعة.. خاطفة كالبرق من الغثيان.. عدت أراقب اللعب راقبت الخاسرين ينهضان وينزل مكانهما اثنان من الجيران.. عرفت أن بعدهما سيأتي دور اثنين منا أنا وكاجومة والأطرش.. كان أحد اللاعبين الذي يلف عمامة خضراء على رأسه ويدخن كثيرا هو الفائز.. كان صامتا.. يحرك يديه بحركات سريعة استعراضية..

حين خسر الاثنان التاليان جاء دور الأطرش وكاجومة.. نزلا بجانب بعضهما.. ولا يزال الصامت ذو العمامة الخضراء هو الفائز.. كان كاجومة كعادته كثير الكلام حتى وهو يلعب.. ولكنه بعد عدة أدوار زاد

من تركيزه وتحفزه.. ولم يعد يتكلم كثيرا.. فهمت أن أوراقه أصبحت جاهزة للنزول.. بل وربما هو ينتظر أن يكلف الجالس على يساره ثلاثة نقاط إضافية إن قدم له الورقة التي تكسبه اللعبة..

أثناء تركيزي مع كاجومة.. شق صوت الأطرش المكان "ألف" وبدأ ينزل ورقه المجموعة تلو الأخرى ورمى بالورقة الأخيرة في وجه ذو العمامة.. لقد فاز الأطرش بالجولة في هدوء تام.. لم يبد عليه أي شيء..

نزلت أنا والفتى الذي كان ممسكا بالدفتر مكان الخاسرين كاجومة وذي العمامة.. كنت أنا في مواجهة الأطرش وبالتالي لن يتمكن أي منا جر الآخر لخسارة مذلة.. كل منا عليه أن يركز مع اللاعب على يساره ويمينه.. وزعت الأوراق.. رفعت الأربع عشرة ورقة ورتبتها.. كانت مقبولة.. وجدت زوجين مكررين لكنهما من صغار الأوراق.. وضعتهم جانبا لأنني سأتخلص منهم مبكرا.. دارت اللعبة الأولى فسحبت من الصندوق شائب الهارت ليكمل لي مجموعة الشيبان.. تخلصت من أحد الأزواج.. اثنان الأسود..

واصلت اللعب.. كنت أراهم مغتاظين لبطئي فأنا لم أمسك الورق منذ سنين طويلة.. بالرغم من ذلك كنت متحمسا بل سعيدا نوعا ما.. ونسيت لوهلة أنني في صحراء.. مع أشخاص غرباء قد يكون بعضهم مجرمين.. نسيت كل همومي.. وأصبح شغلي الشاغل هو الفوز بالدور.. حولي.. كانت الكؤوس تدور.. والسجائر.. وتتعالى أصوات النكات والضحك.. في لحظة من التوقد انتبهت أن صاحب الدفتر رمى لي بسبعة هارت وهي ما أحتاجه بالضبط.. أخذتها ونزلت ستة أوراق من يدي .. ثم رميت ورقة لا تنفعني.. رفعت وجهي لأجد الأطرش يرمقني باشمئزاز.. وكأنه يقول مبتدئ..

بعد عدة أدوار أخرى حمي الوطيس.. كنت أنا ممسكا بثمانية أوراق في يدي.. واللاعب علي يميني بثلاث.. الأطرش ممسكا بالأربع

عشرة.. وكذلك صاحب الدفتر.. كل منا كان ينتظر أن يخطئ من على يساره.. وأنا كنت أتوقع أن الصندوق سيمدني بالورقة التي أحتاجها.. الكثير من الترقب.. والصمت.. ودخان السجائر يتموج بيننا.. كنت أتردد كثيرا قبل أن أرمي ورقتي.. أقلب الورق.. أضطر في بعض الأحيان أن أفسد أوراقي.. وفي لحظة طيش.. رميت ورقة آس كلفتني اللعبة.. فسمعت الصرخة "ألف"..

خسرت اللعبة لكن عزائي في أن الأطرش أيضا قد خسر.. لكنه - ذلك اللعين المتهاون في مرضه- نقل المرض إلى كاجومة.. وبعض الجيران على مدى الأيام التالية.. كانوا يعطسون طوال اليوم مما صعب الحياة علي.. ويفركون أعينهم الصدئة مصدرين صوتا تستطيع تبين لزوجته وقرفه.. ولم يكفوا عن الشكوى من أن أعينهم جافة.. وتكاد تحترق.. لكنهم بالرغم من ذلك واصلوا العمل في تلك الظروف ماسحين عليها الرماد كل ليلة قبل النوم.

-8-

كنت أستيقظ كل صباح من ذلك الأسبوع كمن لا ذاكرة له.. فأبدأ بطرح الأسئلة على نفسي التي تقودني إلى منذر الدهابي.. تلك النسخة مني والتي ترتدي نفس الملابس منذ أيام.. وتكسوه طبقات من الغبار والعرق.. أنت هنا لإيجاد مروان.. كنت أهمس بهذا كل صباح.. وعندما أسمع كلمة "كيف؟" أنهض من مضجعي لأبدأ عملي.. انغمست حتى آخر بقعة برص من جلدي في ذلك الدور.. أحتسي الشاي قبل أن تشرق الشمس.. وأتدلى من حبل كبهلوان نحو بطن الأرض..

هناك.. بين الصدوع والشقوق.. كنت شخصا آخر.. كنت كيانا مختلفا.. أنا والصخرة والمطرقة والأزميل.. مربوطون بلجام.. لا أنا أستطيع الجموح بعقلي عن الضربة التالية.. ولا الصخرة تتقهقر من أجلي لننتهي.. كل منا كان يؤدي دورا محددا.. أنا أحرك المطرقة لتنقل ضربتي عبر الأزميل للصخرة.. وهي بدورها ترسل موجة من الصدى نحوي.. كان بيننا مد وجزر.. أو جدال.. أقرب ما يكون للعبة شطرنج تستمر لساعات.. على مدى أيام..

أما الجمال.. كل الجمال في ذاك الدور الذي تقمصته.. هو الإرهاق البدني الذي يحيلني طريح الفراش نهاية اليوم.. وفي تلك الحالة أكون أنا جمادا.. صخرة.. ناقلا لاهتزازات الطمبور التي تسري من أذني حتى أخمص قدمي.. وفي لحظة ما بين نغمة وبقايا نكتة قالها كاجومة.. أتلاشى..

أو أذهب لقضاء بعض الليالي لدى الجيران نلعب الورق حتى قريب الفجر.. وأعود لأنام دون أنا أتذكر ما حدث..

ثم كفرقعة الأصابع.. أستيقظ صباحا.. مع شروق الشمس وقبل أن يأفل القمر.. وحين تكون السماء مزدانة بالنجوم الأشد تلألأ..

فهمت نوعا ما لم أحب مروان هذا المكان.. أعني كيف صبر عليه وعلى ملاحقة حلم شبه مستحيل.. إنه الهدوء.. البعد عن العالم.. عن تفاهاته.. عن المجاملات.. عن إزعاج السيارات.. عن روائح البالوعات.. عن التمدن.. ماذا لو أبقى هنا للأبد.. أعود للمدينة عندما أحتاج لذلك.. أتزوج وأترك أهلي هناك.. سأكون هاربا من المسئولية لكن ليس بالكامل.. هل أستطيع؟!

بعد اكتمال العشرة أيام جاءنا سائق الشاحنة صباحا لنعود للسوق.. أخبرنا عبدو حين لاقانا عما آل إليه السوق بعد رحيلنا.. وكيف أن العدوى التي تركناها تفشت وانتشرت بينهم متحولة لوباء.. أخبرنا عن الأشخاص الذين وصل بهم المرض إلى فقدان البصر بعد أن أهملوه.. وعن الوزارة التي أرسلت مسئولين لأخذ الحالات وعزلها.. والمراهم التي قاموا بتوزيعها على الدهابة.. أخبرناه بدورنا أننا لم نسلم من الأمر أيضا.. وكيف أن الأطرش تماثل للشفاء وكاجومة لا يزال يحمل الجراثيم في عينيه كمصدر تهديد جديد..

أثناء ملئنا للشاحنة بالجوالات انتبهت إلى أننا أنجزنا أربعة عشر جوالا من الصخور.. وجدته أمرا مذهلا.. ذلك الجهد التراكمي والغير مرئي لعملنا.. لم أحسب له حسابا فقد كنت فقط أعمل كأنني سأموت في الغد..

لحظة وصولنا للسوق قمنا بإنزال الجوالات لتمر بمراحل الطحن والغسل.. لنخرج بذهب يساوي 300 غرام.. وبسعر البيع.. يصبح لدينا خمسون ألف جنيه.. لكن بعد دفع مبلغ لصاحب الطاحونة.. والغسالين.. ودفع مال الطعام وأجرة صاحب الشاحنة.. وحتى بعد كل هذه المصروفات يبقى دخل الدهابي هو ثلاثة آلاف في الأسبوع ما يعني اثنا عشر ألفا في الشهر وهذه تعتبر ثروة حقيقية.. بدا لي بعدها كل

شيء منطقي.. هؤلاء القوم ليسوا مجانين بل هم حقا يعرفون من أين تؤكل الكتف..

لكن كاجومة الذي كان يتقافز فرحا أخبرني أننا كنا محظوظين جدا في هذه الجولة.. وأن المعتاد هو نصف ما حصلنا عليه.. لكن حتى في تلك الحالة يكون العمل كدهابي أفضل من أي مهنة أخرى في البلاد..

بالطبع هناك دائما مشكلة الموت التي تتربص بك في أي لحظة.. بالتجربة عرفت أنه من المحتمل أن تتعرض للاختناق بعد حرق الإطارات داخل بئر ما.. وهو ما قد حدث لأشخاص.. هناك الزئبق.. الذي يسمم الغسالين تحديدا.. وهي الميتة الأشنع كما وصفوها لي هنا.. تسبب آلام في البطن وإسهال.. ثم يتوه العقل في دهاليز النسيان والجنون.. وفي مرحلة ما يبدأ الجلد بالتقشر مسببا آلاما لا متناهية.. تكون فيها الكليتان قد تعطلتا من فرط السموم وحينها فقط تبدأ سكرات الموت..

بحثت عن أوش الله في السوق.. أردت أن أطمئنه وأطمئن عليه.. وجدته حيث يتجمع هو وأصحاب الناقلات عادة.. اقتربت محييا إياهم وعندها رأيت الكدمات في وجه أوش الله.. كانت هناك كدمة زرقاء على خده الأيمن قرب عينه.. وعدة خدوش في وجهه.. لم يستطع النظر مباشرة في عيني.. وعندما فعل لثوان.. أحسست أنه سينفجر بالبكاء فتخيلت ما حدث.. بداية الأمر أصابني شيء من الدوار.. ثم ارتكزت بفعل فورة الغضب.. كنت أغلي من الداخل حتى أحسست بالحرارة في باطني..

أخذت أوش الله وتمشينا في صمت.. كان يسير بقربي مطأطأ الرأس.. مختلفا عن الشخص الذي عهدته.. كنت أمشي مع جثة

هامدة.. وغريب فعلا أن أراه هكذا.. أنا الذي سرت متجاوزا فصولا من حياتي ميتا..

لم أستطع كبح عقلي من التفكير في الانتقام.. أردت أن آخذ أوش الله ونجد من فعلا به هذا ونقطعهما إربا.. سأكسر أصابعهم الواحد تلو الآخر بمطرقة.. سأنخر باطنهم بالأزميل.. سأحفر أخاديد في جلودهم.. أردت أن أسمع صراخهم واستجداءهم.. أردت أن يسمعها أوش الله ليعرف كم هم حقيران.. وضعفاء وحثالة.. وحين يشفى غليلي منهم أخيرا سأنحر أعناقهم..

فكرت في لحظة إن كان هذا هو شعوري أنا المتفرج الذي لم يمسسني سوء.. فكيف به هو.. داهمني شعور بالعجز.. كأنني أريد الاندفاع غير أني مكبل.. كحيوان ضار في قفص.. فهو في هذه الحالة ليس ضارا أكثر من حشرة..

"كيف حالك أنت؟" سألته..

"كما تركتني.. ما زلت أتدحرج."

جاء صوته همسا.. كأنه يوشك على لفظ آخر أنفاسه ويريد توفيرها.. سرنا كثيرا حتى خرجنا من محيط السوق.. استطاع هو إخراجنا من التابو الذي لا نستطيع الحديث عنه فسألني "كيف كان التنقيب؟".. حكيت له عن التفاصيل.. عن أنني كدت أختنق.. عن الآلام والتعب.. واللعب في منتصف الليالي.. كان في حديثي شيء من الحماسة انتبهت لها ولم أستطع مداراتها.. أخبرته مازحا أنني ربما أبقى للعمل هنا..

"ومروان؟ هل.."

نزلت علي فجأة كل غموم الدنيا.. فكرت بم علي أن أجيبه.. هل أقول لم أعثر عليه.. سيكون السؤال حينها وماذا ستفعل وأنا لم أعلم ماذا سأفعل.. صمت وتركت حالي يجيب عن السؤال..

فهم أوش الله الإجابة من تعابير وجهي.. فأكملنا السير ونحن نتحاشى النظر لبعضنا.. كنت أسير أنا مفكرا ومنعزلا في إحدى نوباتي.. ومن البعيد لاح لي تل رملي فوق بقايا صخور.. ربما كانت لجبل نحتته الريح.. رأيته ولم أكن أمعن فيه لكن قدمي ساقتني نحوه.. أتذكر أن الوقت كان ظهيرة فلذا لابد وأن الشمس في الأعلى.. غير أني لم أنظر للسماء لأعرف.. ربما لو استبدلت بمصباح فما كنت حتى لأعلم.. والأرض كانت كما الأرض.. زلقة.. متزعزعة.. حائرة.. وكنت أنا أبرصا.. وبدا كل شيء حتميا..

سألت أوش الله بحنق لم أستطع كبحه..

"لماذا أنت هنا؟.. أعني ما الذي تفعله.. أنت لا تريد حياة كهذه.. عد إلى أهلك"

"من قال لك أن لي أهلا.. ومن قال لك أن حياتي خارج هذا المكان ستكون أفضل"

"هذه ليست حياة.. الحياة تحدث هناك بينما هربنا نحن هنا.. أنا مجبر.. ألا تفهم؟ بعد أن أجد مروان سأعود"..

"كلنا مجبرون.. ألا ترى؟!"

نظرت له بحنق لم يستحقه.. ما الذي يفهمه فتى في الرابعة عشر ليتحدث هكذا.. وجدته ينظر إلي بحيرة..

كنا قد وصلنا إلى التل.. فصعدته هربا من شيء لا أعرفه.. تبعني.. لم يكن عاليا وعندما وصلنا قمته جلست ونظرت للسوق.. أردت أن

أودعه.. ذاك السوق.. وأن أعود من التل بقفزة واحدة نحو الخرطوم لحياتي السابقة.. لكن لا ليس لنفس الرتابة.. أريد شيئا آخر.. شيء ألاحقه وأشقى في سبيله.. ويدر علي متعة كالتي حظيت بها في البئر.. كيف؟ كيف وأنا مكبل في السوق.. بمروان.. كنت أشعر أنني تعمقت أكثر من اللازم دخلت ماء لا أستطيع السباحة فيها ولا الخروج منها..

سمعت صوتا أخرجني من شرودي.. التفت نحو أوش الله..

"هل قلت شيئا؟" سألته..

"قلت لك غريب؟" قال وعلى وجهه ابتسامة جريحة..

"ما هو؟"..

"كنت ألقى مروان في السوق هناك.. نتحدث.. يعطيني أجرة نقل جوالات أكثر من الطبيعية.. ويقول أنا ذاهب.. أسأله إلى أين فيقول إلى الجبل"..

"أي جبل؟" قلت أستعجله الحديث..

"الذي نحن عليه"..

نظرت حولي مترددا بينما أكمل هو "كنت أقول له إن هذا تل لكنه يصر على أن يسميه الجبل"..

سمعت تلك العبارة من خلفي وأنا أقف على الحافة.. نظرت تحتي نحو أمواج الرمال.. تذكرتنا صغارا نقفز من الجبل نحو النهر.. ولا أعلم ما حل بالأبعاد.. كنت هناك في دنقلا.. وكنت في السوق.. وشعرت بمروان قريبا.. قريبا جدا.. أسمعه يقول اقفز.. ما حدث لي هناك كان انصهارا بين الزمان والمكان.. اختلاطا بين الإحساس بالحاضر ونبضات الماضي.. شعرت بأنني متلاحق الأنفاس.. وأنني أرى أصدقائي يقفزون

في النهر واحدا تلو الآخر.. مغترين بأننا صرنا أكثر مهارة في السباحة.. ممتلئين بحماس الطفولة.. كنا على أعتاب المراهقة..

أتذكر كيف أنني أخذت دوري خلفهم مباشرة وأنا أرمي بملابسي أرضا وأقف على الحافة.. راقبت سطح الماء يهتز.. تولد موجة وتموت أختها.. ويسير ككتلة واحدة نحو الشمال مصبوغا بحمرة الغروب حتى صار كالدم.. على تلك الحافة اتضح مسار حياتي.. لو أنني نظرت لأبعد.. لما قفزت..

كان الجميع يصرخون بي أن أقفز.. فقفزت مخترقا الماء ليلفظني للأعلى بعدها بثوان.. قائلا اخرج..

جدفت بيدي وقدمي نحو المنتصف.. ومع كل ضربة كنت أشعر بالماء يلطمني.. كأن التيار أقوى مما اعتدناه صيفا.. اقترح أحدنا علينا أن نتسابق فنظرنا مباشرة نحو مروان.. فنحن نعرف بحكم العادة أنه الأفضل بالرغم من بدانته النسبية.. كانت تجعله كالحوت في الماء.. اصطففنا.. في أقصى اليمين أخي زين يليه الحوت مروان.. شوقي الذي انضم جديدا للعصابة.. ثم أنا وعمر أتذكره هو الآخر.. تعالت أصواتنا بالعد.. واحد.. اثنان.. ثلاثة.. ثم انطلقنا كغواصات ستضرب سطح سفينة..

حدث كل شيء بسرعة..

جدفت بكل قوتي مقللا عدد المرات التي أخرج فيها رأسي لالتقاط نفسي.. بعد عدة تجديفات أحسست بأن من كان على يساري وهو عمر.. قد أصبح خلفي.. حفزني ذلك لأزيد من سرعتي.. فزادت حركتي في الماء دون أن أقطع مسافة تذكر.. ثم وجدتني أتباطأ.. أكثر فأكثر.. كأن عضلاتي تقلصت.. ثم دفعني التيار.. أو جرني.. نزلت تحت الماء

بقوة دفعه.. فوجدتني أتقلب في النهر محاولا الخروج.. أضرب وأضرب.. أصرخ فتخرج فقاعات الهواء أمامي..

الماء كانت له قدرة الإحراق حين يضل طريقه داخل الصدر.. لكن الألم دفعني للتعقل.. كصفعة غصت أكثر بقرار مني ثم مشيت بموازاة السطح.. شعرت بالضيق.. صمدت.. ثم بسرعة خرجت روحي إلى السطح.. فلحقتها بكل قوتي.. لأجتمع بها مع أول شهيق أجره..

بدأت أهدأ.. وانتظمت أنفاسي.. أحسست بالراحة تدريجيا.. ثم كالصاعقة نزل الهلع بي مرة أخرى.. زين.. أين زين.. تلفت حولي.. رأيت مروان يخرج على الضفة هناك ومعه شوقي..

زيـــن.. صرخت..

لم يجبني أحد.. نظرت لأصدقائي أستجدي الرد.. ووجدته في أعينهم الجاحظة..

ضربات قلبي وصلت حلقي.. يداي ارتجفتا.. أحسست بطاقة تكاد تفجرني من الداخل.. فأسرعت أسبح حيث كان زين.. سبحت.. وغصت.. صرخت.. ناديت.. وراح عقلي يقلب نفسه كصفحات كتاب في مهب الريح..

تخيلت صورة لزين وهو يلفظ أنفاسه.. مكتوما.. وفزعا.. ووحيدا..

تلتها ذكرى له وهو يأكل الكعك في العيد.. والسكر يغطي وجهه.. ثم صورته وهو يبكي عندما ضربته.. ثم شعرت به ممسكا يدي.. كما يفعل ونحن نائمان عندما يخاف.. ثم تذكرت كل مرة تذمرت فيها من مشاركتنا للسرير.. عندما يزاحمني.. يشد الغطاء.. يتبول في السرير.. ثم تخيلت نفسي أنام في السرير وحيدا.. فنظرت حولي.. ورأيت نفسي من الأعلى طافيا فوق النيل.. النيل العظيم.. الواسع الكبير.. رأيت

نفسي من الأعلى كنملة.. دهست بين السبابة والإبهام.. ثم طويت في ورقة.. ووضعت في كتاب.. وقفز فوقه شخص انتقاما..

كنت أطفو فوق الماء.. أطفو معلقا دون أن أصل للهاوية..

نظرت للسماء فرأيت الشمس تغرب.. بسرعة كبيرة.. لكن هل كانت سريعة أم أنني بقيت هناك لساعات طوال؟!.. أحسست بالريح تهب وتزمجر.. سمعت في عقلي أبواب ونوافذ تصتك.. ورأيت جدارا ينهار.. وسمعت المطر ينهال كالرصاص.. ثم رأيت زين من خلف الشمس.. بعينيه الواسعتين.. وشعره الخفيف.. وابتسامته الغير مكتملة الأسنان.. ثم انطفأت الشمعة..

-9-

في المساء أخبرت أب شنب والبقية أنني ذاهب للدبة لقضاء بعض الأمور.. إرسال المال.. والاتصال بأهلي.. بالطبع كنت أريد الاتصال بأهلي وطمأنتهم لكنني لم أقل ذلك مباشرة.. طلبت من أوش الله مرافقتي.. وعندما سألني لماذا اختلقت كذبة عن أني أحتاجه في أمر يخص مروان.. وأنني في حاجة له.. كان مرتابا لبعض الوقت.. لكنه اقتنع في الصباح..

استقللنا شاحنة أخذتنا من السوق في العاشرة صباحا.. فأكملنا نومنا فيها.. لنصل المدينة قرابة الظهيرة..

كنت في حاجة ملحة للأكل.. لخبز ليس بيابس وغير مبقع.. لشيء غير العدس والفول.. بحثت عن مطعم أنفق فيه أي مبلغ مقابل أن يوفر لي لذة الطعام.. كي أشعر أنني حي.. لكن قبل ذلك.. كان لابد وأن نستحم.. كنت خلال تلك الأيام قد اكتسيت بتلك الطبقة النحاسية التي تغطي الدهابة.. مضيفا لونا آخر إلى جلدي الأبرص.. استأجرت غرفة بسريرين من نفس الفندق الذي كنت قد أقمت فيه..

سألت الاستقبال عن أفضل مطعم وذهبنا له.. طلبنا الدجاج والأرز أولا.. وبينما نحن نأكل اشتهيت السمك فطلبته ثم قرأت قسم السلطات الذي لم أكن منتبها له من نهمي.. فطلبت سلطة الباذنجان.. طبقي المفضل.. أجهزنا على كل شيء.. وللحق لم أستطع مجاراة أوش الله الذي كان في حالة من الافتراس توازي الأسود..

بعد ذلك خطر في بالي الشاي.. رغم أنهم يقدمونه في المطعم إلا أن الطقوس لا تسمح.. خرجنا لنبحث في الشوارع عن ست شاي حتى انجذبنا لإحداهن كانت قد أشعلت بخورا تحت ظل شجرة نيم..

فاصطادتنا.. حتى الشاي كان مذاقه ألذ.. بلا غبار أو رائحة صدأ.. هناك استطعت تجميع أفكاري وكنت جاهزا لأخبر أوش لم أحضرته.. كان هادئا يراقب السيارات والمارة.. كانت آثار الكدمات لا تزال على وجهه..

"اسمع-قلت وأنا أنحني للأمام قليلا- بعد قليل سنذهب لقسم الشرطة.. سنفتح بلاغا بما حدث لك.. ستخبرهم بكل شيء.. حسنا.. وأنا سأشهد معك بما حدث في المرة الأولى.."

اتسعت عينا أوش الله ولكنه لم يرفعهما.. كان مشدوها يتحدث ووجهه للأرض..

"لا لا.. لا أريد أن أبلغ أو أي شيء من هذا القبيل.. ثم ما الذي أبلغ عنه أصلا.. أنا لم يحدث لي شيء"..

أصابته غصة وهو ينطق جملته الأخيرة.. وعيناه.. عيناه ترقرقتا كالنهر تحت ضوء القمر.. صمت قليلا أفكر فيما قاله.. التفت حولي لأتأكد أن لا أحد يسمعنا.. ليس لشيء سوى خصوصية الوضع والناس يحبون التدخل فيما لا يعنيهم.. يا للسخرية فكرت أن هذا الكلام ينطبق علي بالذات..

"أوش الله فكر في الأمر جيدا.. الشرطة ستأخذ لك حقك.. سيسجنون هذا أولا لن تراهم في السوق مرة أخرى.. ثم سيحاكمون ويتم إعدامهم.. وإن لم يحدث ذلك فهم سيبقون في السجن على أقل تقدير.. هل فهمتني.."

أطلق أوش الله ضحكة قصيرة وهز رأسه.. كنت أرى الازدراء في عينيه.. ليس لي..

"أنت الذي لا يفهم شيئا.. سيقولون شيئا عن أنني لا أتذكر ووجوههم بشكل جيد لأن الوقت كان ليلا.. وأن الوجوه قد تختلط علي وأتهم شخصا بريئا"..

ارتفع صوتي دون تحكم مني.. كنت أحاول يائسا إقناعه..

"أنا أعلم أن الشرطة سيتعاملون مع المشكلة ببرود صدقني أنا أفهمك.. لكنهم لابد في النهاية أن يقتنعوا إن ألححنا وطالبت بحقك في الاقتصاص منهم دون هوادة.. عليك أن تكون واثقا وحازما.. أو اكذب إن لزم الأمر قل أن الأمر حدث في وضح النهار.. أنت تتذكر وجوههم.. أو على الأقل علامات مميزة لهم؟.."

انتظرت رده في استجداء.. راقبته يغلق عينيه ويسحب الهواء على مهل حتى امتلأ صدره.. ثم زفره ببطء..

"أتظن أن هذا لم يحدث من قبل-قال وبدأ صوته يرتفع- لفتيان آخرين أعرفهم.. ألا تظن أنهم لم يبلغوا.. ادخل القسم هناك واسأل عن بلاغ معز وعمر- كان يعدد على أصابعه وعيناه تخترقاني- وهناك الكثير.. اسألهم.. اسألهم ماذا حل بالمجرمين.. أو كما يسمونهم هم المشتبه بهم.. طبعا لا أدلة.. ولا شهود يقنعون أولئك الحمقى.. هل تعلم ما يقولون.. ها؟.. عندما يريدون إنهاء النقاش.."

لم تسعفني الكلمات أو الخيال للرد فانتظرته..

"يقولون لو كنت رجلا لما حدث هذا لك.. كنت ستفضل الموت على أن يحدث هذا"..

اتكأ أوش الله على الكرسي وأشاح وجهه عني.. رأيت دمعة تسيل على خده وصوته الواهن يهمس..

"لو كنت رجلا لما حدث هذا لي"..

عرفت حينها أن الكثير من الأشياء تخفى علي.. كان كثيرا علي كل ذلك.. ولم تبق لي أي حجة لإقناعه.. ربما كان الأمر بلا فائدة كما أخبرني.. بالرغم من ذلك كان أوش الله يبدو هادئا.. أكثر من اللازم..

وكأنه عزم على أمر يجعله بهذا الهدوء.. فقط لمجرد التفكير فيه.. خشيت من شيء لا أعرفه.. وأردت أن أسأله ماذا ستفعل؟.. لكنني خشيت أيضا أن يقول لا شيء.. وأن تكون تلك الإجابة هي فعلا ما سيحدث..

عدنا إلى الفندق بعد أن اصطبغت السماء بحمرة دامية.. وكان في الجو حتى مع وجود تلك الأنسام شيء مشؤوم.. كليلة خريفية تنذر بقدوم الأمطار.. في المساء.. استلقيت على السرير متخما.. اسمع قرقعة بطني كلما تقلبت في السرير.. ونظري كان مثبتا نحو هاتفي الملقى فوق الطاولة..

سألني أوش الله "ألا تريد الاتصال بأهلك؟" قلت دون أن أزحزح عيني أن هاتفي ليس به رصيد..

"حسنا سأنزل لأحضر لك"..

"لا.. لا سأنزل بنفسي بعد قليل"..

كنت في الحقيقة أحاول التهرب من سماع صوت والدتي.. انشغل عني أوش الله بالتلفاز.. راقبته يقلب القنوات حتى توقف عند مباراة مصارعة.. ضحكت.. خيب أملي في الحقيقة.. ظننته أذكى من هذا..

أمسكت بنفسي أفكر في ماضيه.. ومصيره.. محاولا حشر نفسي كبطل في قصته.. أن أخرجه من تلك الغابة التي يسمونها السوق وأعيده للمكان الذي يفترض أن يكون فيه.. المدرسة.. ثم ضحكت.. مروان وأنا ذهبنا للمدرسة وها نحن.. أدركت أنني لم أعد أملك القوة لهذا.. أريد أن أنتهي من كل هذا حتى أعود لحياتي..

نزلت لأبتاع الرصيد.. ثم انزويت في طريق مظلم.. خال من الحياة.. كان صوت الجرس وخفقان قلبي يتناوبان على قرع أذني.. آلو جاءني صوتها الهادئ..

أمي.. كيفك.. قلت متلعثما..

"منذر حبيبي..كيف حالك.. أأنت بخير.. اتصلت بك كثيرا.."

سمعت أمي تدخل في مونولوج حزين.. يتسارع صوتها.. ويخفض.. وترني ذلك كثيرا قضيت وقتا طويلا حتى أقنعها بأني بخير وأفضل حال.. "لماذا لا ترجع يا بني.. لا ترهق نفسك.. سيعود هو بإذن الله"..

ونعم بالله..

"ستعود؟! متى سترجع؟!"

"ليس بعد.. قليلا فقط".. قلت كطفل يحاول إقناع أمه باللعب قليلا..

"لماذا.. لماذا تقطع قلبي يا منذر.. سأجن لو أصابك مكروه"

"أنا بخير يا أمي لا تقلقي.. "

"فقط أريد أن أفهم.. أنت لست مسئولا عما حدث.. لست ملزما بشيء"

"بلى ملزم.." قلت رغما عني.. كأن الكلمات هربت مني..

"لماذا؟ فهمني لماذا؟" صرخت هي ربما لأول مرة منذ أبد بعيد..

رأيت وجهه وفمه مغطى بالسكر من كعك العيد "من أجل زين" قلت وأنا ألفظ أنفاسي كالذبيح.. لم يكن ذلك تفسيرا يفهمه أي أحد.. لكنها أمي.. فصمتت..

"أريد أن أسلم على أبي هلا سمحتي.. قلت معلنا نهاية حديثنا.."

كان والدي أكثر هدوءا.. تحدثت إليه بثقة وأخبرته أن كل شيء على ما يرام.. دعا لي.. تحدثت إلى الصغيرة.. تلك التي لا تفهم شيئا بعد أخبرتها أنني سأحضر لها قرطين من ذهب معي.. وقد كنت جادا في هذا..

عندما أغلقت الهاتف ضعفت.. وجثوت على الأرض وحيدا في الشارع المظلم.. ثم تذكرت أنني سأصعد للأعلى فمسحت آثار فعلتي عن ملابسي.. دخلت الغرفة فوجدت أوش الله قد غفا أمام التلفاز.. ساعدته في الخلود للسرير ثم عدت أنا لأجلس على الكرسي.. أخفضت صوت التلفاز حتى انعدم.. وأصبح مجرد صور تتبدل.. على الشاشة كانت قناة الجزيرة تبث أخبارا.. أزمات.. الكثير من الأزمات.. الزحف الإسرائيلي يبتلع ما تبقى من فلسطين مستخدما الدبابات وكل الترسانة التي يملكها.. بينما حماس وحزب الله يطلقون رصاصة أو اثنتين فيتم اتهامهم بالإرهاب.. الوضع المعتاد.. الفقر يتفشى في اليمن.. مثلنا.. وبقية دول الخليج تحارب متطرفيها الداخليين..

في خضم ذلك رفعت هاتفي وطلبت رقم ليلى.. أسمع صوت الجرس بينما أراقب ألوان الشاشة تتبدل.. "أهلا" سبب لي سماع صوتها ارتخاء في العضلات..

"مرحبا.. كيف حالك؟" قلت بشوق أكبته..

"أنا بخير.. كيف حالك أنت؟" أجابتني بهدوء هي الأخرى.. لا.. ليست هذه هي الطريقة التي نتحدث بها عادة.. كنت أشعر بفعلتي قد تسببت لها بألم.. أو غضب تحاول كتمانه.. وأنا كنت أشعر بالذنب..

"أنا آسف يا ليلى.. حقا.."

"على ماذا؟" قالت ببرود.. أكره عندما تفعل هذا.. علي الآن أن أجر كمية الأخطاء التي أفعلها جميعا حتى ترضى.. وأن أوبخ نفسي بنفسي دون أن تتعب هي نفسها..

"على أنني لم أهاتفك قبل هذا.. لقد كنت في وسط الصحراء كما أخبرتك.. وللتو عدت.. لم أتوقع أنني سأبقى هذه المدة أعني لم أكن متأكدا من النتائج.. آسف أيضا على أنني اتخذت هذا القرار وحدي

وأتمنى أن تتفهميني.. آسف على جعلك تقلقين أيضا على.. على.. لا أعلم على كل شيء"..

"همم.. من قال إنني قلقة؟" سمعتها على الجهة الأخرى وأجزم أن شفاهها بدت تتسع بقرابة ابتسامة..

أعلم أنك كنت قلقة.. قلت.. ثم رفعت قدمي على الطاولة أمامي.. لقد اشتقت إليها فعلا.. أخبرتها مندفعا..

لقد اشتقت إليك..

لا تحاول-قالت محاولة جعل صوتها حازما- أخبرني أولا متى ستعود؟ وأين أنت أصلا؟..

أخذت نفسا طويلا ونظرت للغرفة حولي.. الطاولة ثم النافذة ثم الأرضية المتسخة.. أنا الآن في فندق في الدبة.. ولا أعلم متى سأعود.. خرج النفس الذي كنت أكتمه دفعة واحدة..

هممم هل أفهم أنك لم تجد صديقك بعد؟

لا لم أجده.. ثم أضفت بوهن.. ولا أظن أنني سأجده.. لم أعد أعرف.. كأنني أطارد شبحا.. لم أعد متأكدا إن كان فعلا عمل مع هؤلاء الدهابة.. ولم أعد حتى متيقنا من أنه حي..

سمعت صوت تحركها على الجهة الأخرى يبدو أنها غيرت الغرفة أو شيء مثل هذا.. إذا أنت لست متأكدا من أشياء كثيرة.. والمعلومات التي أمامك تقول إنه من المستحيل عليك المواصلة.. أو إيجاده.. فالحل المنطقي إذا ألا تكابر.. أن تعود..

"لا أستطيع ليس بعد.. قلت آملا ألا تطلب مني تفسيرا"..

"لماذا؟.. هل أنت مجنون؟.. هل كنت مجنونا طوال هذه المدة وقررت أن تظهر على حقيقتك الآن"..

أتعلمين أن جدتي كانت تحكي لنا القصص عندما كنا صغارا.. الكثير منها.. لم تكن تكرر القصة مرتين إلا إذا طلبنا منها ذلك..

"أنت فعلا مجنون".. سمعتها تقول ولم أعبئ فواصلت..

"كنا أن وزين ومروان أيضا نتجمع في سرير واحد.. أجسادنا صغيرة.. كنا في الخامسة وزين يصغرنا.. وهي جدتي كانت تجلس على الكرسي أمامنا متوشحة ثوبها.. والليل يرمي بظلاله على المدينة.. وفوقنا هناك ضوء القمر كان دائما يبرز من خلفها.. لدي الكثير من الذكريات عنها.. أعتقد أنها هي الشخص الذي قام بتربيتي فعلا أكثر من والدي.. كانت مضحكة لا تلق بالا لما تقول كحال العجائز.. مثلا كانت لها قصة تحكي عن أخوين "ولد الحلال وولد الحرام" هكذا كانت تسميها.. ولد الحلال هذا هو الأخ الذكي الطيب الذي يعتني بوالده الكبير ف العمر.. وولد الحرام كان غبيا متهورا.. في نهاية القصة كان يتسبب بموت والدهما.. كانت هذه قصتي المفضلة.. كانت مضحكة"..

"همم" قالت ليلى وأعتقد أنها ذعنت أخيرا وقررت الاستماع لما سأقوله.. فزاد ذلك شيئا من حماسي..

"أتعرفين.. جدتي كانت تستطيع أن تحول أي كلمة في المعجم الوسيط إلى دعاء.. خصوصا عندما تستاء"..

"كيف؟"

"مثلا.. .. إن أجبتها بلا تدعي أن يلوى حلقك.. إن قلت نعم تدعي أن لا ترى نعمة.. إن قلت جديد تقول يجدد كيك.. من الكي.. ثم هناك الدعاء على المصارين والكلى.. فمثلا إن قلت تراب تقول تترب مصارينك وكلاك.. وهذه الدعوة الأخيرة هي حقيقة ما ينفع مع أي

كلمة.. لأن أي وزن تفعيل منها يصيب المصارين والكلى هو شيء سيئ.. جربي خذي مثلا كلمة وسادة.. تصبح تتوسد مصارينك وكلاك.. تخيلي المنظر في عقلك الآن"..

"يعمع.. مصيبة.. جدتك هذي غريبة بالفعل.. كيف تقول ولد الحرام أمام أطفال؟"..

ضحكت وأنا أتذكر جدتي وهي تنطق بالكلمات.. كانت امرأة حية.. مشبعة بالمشاعر فيظهر ذلك في صوتها وتصرفاتها..

"كنت أحبها كثيرا"..

"رحمها الله" رددت ليلى.. ثم تذكرت أن تسألني بعد وهلة..

"لكن ما الذي جاء بنا هنا؟ ما الذي كنت تريد أن تقوله؟ لا تظن أنني نسيت ما زلت أظنك مجنونا"..

"آآه نعم-قلت مستدركا.. وأنزلت قدمي عن الطاولة مستعدلا في جلستي.. كما قلت لك كانت جدتي قديما قد حكت لنا الكثير من القصص.. بعضها.. كما كانت تقول عن أسلافنا.. النوبة.. عن سكان الرمال الحمراء.. عندما كنا صغارا.. وكان لي.. كما لمروان بيتان.. أنا أبيت لديهم بلا حرج وهو بالمثل.. كانت تلك الأيام هي الفرصة المثالية لتزرع جدتي البذرة التي نمت لتحدد مصائرنا.. وبالقصة التي بدت لنا وقتها الأسوأ.. قصة البيضة الذهبية.. أول مرة حكتها لنا كنا الثلاثة نفترش الأرض.. بينما هي في الأعلى على السرير.. وفوقها كان القمر يرسل وهجه كما العادة..

بدأت بذكر قوم أقوياء البنية.. يصارعون التماسيح.. يطوعون النهر.. وفي الحروب كما الصيد كانت سهامهم لا تخطئ.. كانوا متناغمين في حياتهم.. تسود بينهم المحبة.. كانوا بدائيين في حياتهم.. لكن كل شيء كان يسير بنظام.. إلى أن وقعت لديهم مشكلة لم يسبق

أن عرفوا مثلها.. تحكي القصة عن صياد شاب.. مزهو بنفسه.. ظل يلاحق طريدة بين الحقول استعصت عليه.. وحين تمكن من اقتفاء أثرها.. شد السهم على وتره.. وانتظر.. ثم في اللحظة التي أطلق فيها سهمه هبت الريح.. فانحرف السهم ليصيب أحد المزارعين..

عُرض الصياد الشاب أمام الحاكم بطلب من أهل المزارع.. والذين أرادوا أن يقتل الصياد جزاء لفعلته.. ولكنني لم أقصد قال الصياد وأقسم.. كان على الحاكم أن يتخذ قرارا صائبا.. فأمر أهل المزارع أن يطلبوا أي شيء عدا قتل الصياد.. وإن لم ينفذ ما طلب منه فعندها سيقتل.. ففكر أهل المزارع في شيء لا يمكن القيام به.. فكروا لأيام.. ثم طلبوا أن يحضر لهم الصياد بيضة ذهبية من الصحراء..

كانت الجبال المترامية في الصحراء حولهم تعج بقطع الذهب.. فبدا الأمر ممكنا.. ذهب الصياد للصحراء ومكث عدة أيام يبحث عن البيضة.. وعندما عاد بها قال أهل المزارع أنها لا تشبه البيضة.. وهكذا صار الصياد يذهب ويعود دون أن يحصل على العفو منهم.. وفي النهاية قرر أن يعيش في الصحراء.. يقتات على الأفاعي ويصطاد الضباع.. ويشرب من الواحات.. استمر على ذلك لوقت طويل.. نسي كل شيء عن حياته السابقة.. لكنه كان يحس بالوحدة.. وبأنه منبوذ.. ومكروه من الجميع..

في أحد الليالي أراد الصياد أن يأوي إلى مغارة.. فظهر أمامه رجل لا يشبه أهل المنطقة.. كان شاحبا ونحيلا.. وبيده صولجان ينتهي بجوهرة.. سأله الغريب: ماذا تريد؟.. أريد الدخول رد الصياد.. لماذا؟.. لأني أحتاج مكانا لقضاء الليل.. فالجو بارد.. أنت تعيش هنا؟.. في الصحراء.. وحدك.. سأل الغريب عما هو واضح.. نعم.. لماذا؟.. حكى له الصياد القصة..

حسنا –قال الغريب- ما رأيك لو أخبرتك أنك تستطيع الذهاب لأي مكان تريده.. بغمضة عين.. و تأكل كل ما تريده وتعيش مع من تريد.. ولا تشعر بأنك منبوذ.. بل أن لا تشعر بشيء إطلاقا..

مقابل ماذا؟ سأل الصياد متشككا..

أنت تعيش هنا.. في الصحراء.. كل ما عليك فعله هو أن تفعل ما يحلو لك.. لكن عندما يقترب أحد من هذه المغارة فعليك أن تعود هنا.. وتقدم له عرضي هذا.. أي أن تصبح حارسا للمغارة..

لماذا.. ماذا يوجد بالداخل؟

صولجان مثل هذا-قال الغريب رافعا صولجانه- وأشياء أخرى لا قيمة لها.. كل ما عليك فعله هو الدخول وأخذ الصولجان.. عندها ستصبح مثلي..

حسنا.. قال الصياد وهو يهم بالدخول..

لكن اسمع.. لا تلمس شيئا غير الصولجان.. لأن ما تلمسه في الداخل هو الشيء الوحيد الذي ستأخذه..

عندما دخل الصياد المغارة كانت مظلمة.. لكن الأشياء بدأت تشع من نفسها كلما تقدم هو.. في البدء رأى كأسا ذهبيا.. ثم تاجا.. ولكنه أيضا وجد عقدا من اللؤلؤ وهو شيء لم يكن الصياد قد رآه من قبل.. فأحس بالرغبة في لمسه.. لكنه تذكر كلام الغريب.. أكمل الطريق للداخل مارا بأشياء كثيرة لم يألفها ولذلك كانت مغرية جدا.. وعندما قارب نهاية المغارة رأى الصولجان يلمع عن بعد.. لكنه قبل ذلك التفت عن يمينه ليرى أجمل بيضة رأتها عيناه.. كانت لامعة ذهبية.. ولا يشوبها أي نتوء.. كأنها خرجت من أحشاء دجاجة تبيض ذهبا.. عندها تذكر الصياد حياته القديمة.. ووطنه.. وأهله..

فكر الصياد فيما يريده فعلا.. كان كل من الصولجان والبيضة في متناول يده.. الصولجان يليه الحصول على قوة مطلقة على كل ما يتمنى.. والعهدة على الغريب الذي لم يكذب عليه قبلا.. وهناك البيضة التي ستعيده لوطنه أخيرا.. لو وافق أهل المزارع وهو ما حاول الوصول إليه من قبل.. لكن الصياد كان يعرف شعور الوحدة.. ولا يحبه.. وهي الحقيقة الوحيدة التي يعرفها.. لذا مد يده نحو البيضة.. وبمجرد أن وضعها في قبضته.. بدأت المغارة تتداعى.. ركض بكل سرعته خارجا.. ومنها قطع الصحراء عائدا لموطنه..

كان أهل القرية قد نسوه.. ونسوا ما فعل.. لكنه عندما قدم البيضة لأهل المزارع.. لزوجته.. راحت تبكي.. وتبكي.. قالت أنها ظنت الصياد قد مات منذ وقت طويل.. ولقي جزاءه.. ولم يعد في قلبها أي كره تجاهه"..

بعد أن أنهيت كلماتي تنحنحت "وهذه كانت قصة البيضة الذهبية.. كما حكتها جدتي.. إن فكرتي في الأمر.. فمفهوم الدين الإسلامي كان موجودا لدى بعض الشعوب"..

"جميلة -جاءني صوتها مبتهجا.. لكن أيضا ما زلت لم تجاوبني ما علاقة كل هذا"..

"ماذا لو كانت القصة حقيقية.. أو لنقل ما هي إمكانية وجود بيضة ذهبية.. أو قطعة بحجم البيضة ليست مكتملة الشكل من الذهب.. هل وجودها ممكن؟"..

"عدت تتحدث بالألغاز.. نعم ممكن.. ثم؟"

"ماذا لو كان مروان يبحث عن هذه البيضة؟ وضاع أثناء بحثه.. أو.. مات"..

"ولماذا يصر على إيجاد بيضة.. ألم تقل أنه كان يبلي حسنا وأنه افتتح دكانا وتجارة ما"..

"لأنه مثل الصياد.. يريد التكفير عن ذنب ما"..

"لماذا لا يدفع مالا للتكفير عن ذنبه.. أو الأبسط أن يطلب المغفرة.. إلى أين تريد الوصول بهذا أكاد أضيع"..

"ما الفائدة.. أعني في القصة الهدف من البيضة هو استحالة الحصول عليها.. وبالتالي المعاناة.. والشقاء لكي يكفر عن ذنبه.. أوليس هذا هو المفترض أن يتعذب على ذنبه.. كما تعذبت.."

"ماذا؟ -انقضت ليلى علي بالأسئلة كانت فزعة- ماذا تعني بتعذبت؟ لم أفهم.. اسمع هل تتذكر عندما أخبرتك أنني أحب الطريقة التي تتحدث بها.. بالألغاز.. لم يعد هذا ممتعا أخبرني ما تريد قوله بوضوح.. لماذا تريد إنقاذ أو إيجاد مروان بكل هذا اليأس"..

كنت أضرب بأصابعي على الطاولة.. نظرت خلفي نحو أوش الله كنت أسمع صوت تقلبه على السرير.. تأكدت أنه لا يزال نائما.. ثم عدت أكمل..

"أظن.. أن مروان لم يستطع التوقف عن العمل كدهابي لأنه كان يبحث عن البيضة الذهبية.. وأظن.. أنه كان سيقدم لي تلك البيضة ويطلب الغفران مني.. والآن.. إن كان هذا فعلا هو الحال.. فمن غير الممكن أن أعود لمواصلة حياتي بعد أن ضاعت حياته في سبيل ذلك.. لن يكون شيئا صائبا.."

"لماذا؟ ما الذي فعله؟"..

أغمضت عيني وأنا أشعر بالصداع بدأ يتسرب إلي..

"ليس اليوم يا ليلى.. سأخبرك.. لكن ليس اليوم ولا على الهاتف.. لقد تأخر الوقت.. نخلد للنوم؟"

انتظرت ردها لوقت طويل..

"هل ستعود للبحث عنه إذا؟"

"نعم."

"وأنت لا تستطيع مواصلة حياتك دون حل مهما يكن هذا الشيء؟."

"نعم."

"إذا لا تعد قبل أن تجد الأجوبة التي تبحث عنها.. أو صديقك.. أو أيا يكن.. وإلا فأنني.. آآآآخ" أطلقت صرختها الهوجاء.. أصابتني بالطنين "انتبه على نفسك.. قالت بشيء من اليأس.."

"حسنا.."

عندما حاولت النوم أصبت بالشلل مرة أخرى.. أعتقد والله أعلم أن ذلك الفندق مليء بالشياطين في جميع غرفه.. وفكرت أنني ربما سأكتب خبرا عنه..

-10-

أيقظني أوش الله صباح اليوم التالي ذلك أنني استغرقت في النوم حتى الظهيرة.. كان قد نزل وأحضر مجموعة من السندوتشات للإفطار.. أكلنا وشربنا الشاي عندها فعلا بدأت دوائر مخي بالعمل.. كانت كآلة صدئة في حاجة للتشحيم.. استحممت بماء نظيف وساخن.. بقيت تحت الدش ربما لساعة أحاول غسل الإنهاك والقذارة العالقة قبل أن أقرر العودة للسوق.. خرجت لأجد أوش الله في الانتظار وانتبهت حينها أنه لم يكن يحمل أي ملابس أخرى غير التي يرتديها.. ذلك الثوب الرقيق الذي صار خليطا من الرمادي والأصفر.. والصدرية السوداء التي يفترض بها أن تقيه البرد.. والشال الذي يحوله أحيانا للثام..

فكرت في اختيارات ملابسه.. هي ليست عملية على ما أظن.. ولا تمت لقبيلته بشيء.. لماذا إذا يصر على ارتدائها؟ تأهبنا للخروج.. وعندما وصلنا للباب سألني بفضول ألن تأخذ حقيبتك؟.. ليس بعد قلت له سنعود هنا.. ثم سنذهب للسوق..

رمقني بعدم فهم لكن التبرير لم يكن ضروريا.. ذهبنا للسوق.. سوق فعلي للملابس.. كان عبارة عن شارع واحد تفتح الدكاكين على جانبيه وتظهر الملابس معلقة في واجهاته وأمامه.. لم يكن مكتظا.. تظاهرت أنني هنا لشراء لثام.. وقد كنت نوعا ما في حاجة إليه.. ثم أقنعته بعد أخذ وجذب أن نشتري له ملابس جديدة..

تركت الخيار له.. لم أرد أن أفرض عليه شيئا فلا يرتاح في ارتدائه.. لم يبتعد خياره كثيرا عن ملابسه السابقة.. ربما كان يحاول تقليد الدهابة.. اشترى على الله.. وهو لبس سوداني آخر يشابه أيضا ما يرتديه الأفغان والباكستانيون.. قطعتان سروال وثوب قصير.. كلاهما

فضفاض.. اختار لونا بنيا لهما وصدرية سوداء جديدة.. ولثاما أخضر..

وقبل أن نخرج من السوق لفت انتباهي محل يبيع أحذية رياضية.. فنظرت لقدمي أوش الله.. مغبرتان وتملأهما الجروح.. فكان لابد أن نشتري له حذاء بدلا عن النعلين الذين يرتديهما.. عدنا بعد ذلك للفندق كي يستحم ويبدل ملابسه.. استغليت أنا ذلك الوقت في الاتصال بأهلي ومن ثم ليلى.. لأخبرهم أنني سأعود للسوق وقد يمر زمن قبل مهاتفتي الثانية.. ثم راقبت مروحة السقف تدور وتدور.. صوت الماء يطرق جنبات الحمام.. وضوء الشمس يمر كشريط من النافذة أمامي وحوله تتراقص ذرات من الغبار..

شكرني عبدالله كثيرا في الطريق.. كان الامتنان باديا في عينيه.. هو وشيء آخر.. نوع من العزم كان في عينيه.. تخيلت.. أنه عازم على أن يرد لي شيئا مما فعلت.. غير أنه لم يكن في حاجة لفعل ذلك.. فأنا ربما كنت أرد له الجميل في الحقيقة.. فهو من كان يساعدني حتى هذه اللحظة.. عدا المرة الأولى.. ولكن مساعدتي تلك له لم تمنع الشر من الحدوث له في نهاية الأمر لذا.. فيبدو وكأنني خدعته.. حتى في هذه اللحظة أنا أخدعه.. ماذا يعني أن أشتري له بعض الملابس إن كنت سأتركه في الصحراء.. حيث ستهترئ مرة أخرى وتتقطع ويعاني البرد مرة أخرى.. ماذا يعني أن أطعمه ليومين غذاء جيدا ليعود لأكل العدس كل يوم في السوق..

أنا لا أقدم له شيئا.. أنا أحاول إسكات ضميري وحسب..

بعد أن سددت أجرة الغرفة وأخليناها.. توجهنا للموقف.. كان الوقت قرابة العصر ووهج الشمس كان أقل وطأة علينا.. وجدنا الموقف ممتلئا ذلك أننا في بداية الأسبوع ويبدو أن عدد لا بأس به من

الدهابة لهم عادة العودة للمدينة في نهايات الأسبوع.. ربما لم يكن على شكل دوري ولكن لابد لهم أن يغتسلوا ويأكلوا.. صعدنا على متن شاحنة.. كما المرة السابقة.. وكأنه شيء أفعله كل يوم.. لم أكن خائفا ولا مترقبا هذه المرة.. فقط أنتظر وصولنا بفارغ الصبر.. أما أوش الله الذي كان قد استيقظ باكرا فقد نام متكئا على طرف الشاحنة.. مغطيا كامل وجهه بالوشاح..

افترقنا عند وصولنا للسوق على أن نلتقي نهاية اليوم.. تخلخلت بين جنبات السوق كالسائل.. أعرف طريقي نحو خيمة أب شنب.. أو خيمتنا.. في الطريق وجدت شجارا بين مجموعتين.. كانوا أربعة أنفار ترتفع أصواتهم باللعان.. ثم ازدادت الدائرة حولهم.. سمعت إساءة أطلقها أحدهم وعرفت مباشرة أن الضرب سيبدأ.. أوليتهم ظهري وأنا أسير بينما المزيد من الدهابة توافدوا..

لم يكن في الخيمة أحد حين وصلت.. أدخلت حقيبتي واستلقيت في الداخل حتى مللت.. خرجت أتمشى ثم عدت دون أن أجد أحدهم أيضا وحين اقترب الغروب أشعلت النار.. كان أب شنب أول الواصلين جاء وفي وجهه علامات الحنق.. أخبرني أن الشجار الذي مررت به تورط فيه أحد معارفه.. وأنه الآن ملقى ومغطى بالكدمات في جسمه ولا يصدر منه سوى الأنين.. لكنه سيعيش.. يقول إنهم تكالبوا عليه ولو أنه عرف بهذا مبكرا لهب لنجدته.. سألته عن سبب الشجار.. فلم يبد أنه يعرف التفاصيل.. لكنه شيء يتعلق بدين لم يسدده صاحب أب شنب هذا..

بعد مدة من الزمن وصل الأطرش وكاجومة ليعيدا نفس القصة.. ثم يتناقش ثلاثتهم عما حدث.. في النهاية بعد أن أغلق الموضوع سألتهم

متى سنذهب للبئر فأخبروني أنه وبينما أنا أستجم في الدبة-هكذا قال كاجومة- قاموا هم بتجهيز كل شيء.. وأننا سننطلق في اليوم التالي..

كان كل شيء يسير ببطء الشاي ومن ثم العشاء إلى أن جاءني كاجومة وأنا مستلق داخل الخيمة يخبرني أن فتى يسأل عني في الخارج.. عرفت أنه أوش لكنني نسيته فعلا.. خرجت من الخيمة ليصفعني الهواء البارد.. رفع أوش الله يده فاتجهت إليه.. كان الليل قد ادلهم ولم يعد بالإمكان التمييز.. غير أن اضواء كانت تنبعث من عدة نيران ساعدتني على الرؤية شيئا ما.. أما القمر فقد كان هلالا بوهج ضعيف.. استطعت.. أول ما رأيت وجه أوش الله أن أتبين خوفا في عينيه.. كان ملهوفا.. نظر خلف كتفي ليتبين أن لا أحد من فريقي قريب..

"اسمع.. أنا في حاجة لمساعدتك.. قالها وهو ينظر بثبات في عيني"..

أجبته دون أدنى تردد "طبعا لا مشكلة"..

بدا عليه الإحباط..

"لا أعني أنني فعلا في حاجة لمساعدتك وأن ما سأطلبه سيكون خطيرا.. وسيئا.. ولا أملك أي حق في أن أطلب منك هذا.. لكنني أعدك أنني سأكون مدينا لك بحياتي.. كما أنني لا أثق بأحد غيرك.. لذا.."

زاد توجسي وأنا أرى علامات الجدية تتسم على وجهه.. هو أوش الله ذو الأربعة عشر عاما.. لم يسعفني خيالي ولا منطقي في تحديد ما سيطلبه مني.. ولكن.. بالرغم مما قاله فقد كنت على استعداد لتقديم يد العون..

"حسنا.. لا بأس.. ما الذي تريده.. هل هناك مشكلة ما؟"..

هز رأسه مشيرا إلي أن نتحرك من مكاننا وراح يتكلم بصوت خافض..

"الرجلان اللذان.. لقد وجدت أحدهما.. أنا أحفظ وجهه جيدا.. هل رأيت الشجار الذي حدث بين الدهابة في العصر لقد لمحته هناك.. وتبعته.. إلى أن عرفت أين يخيم.. لم أر الآخر معه.. لا أعرف أين هو.. كنت أراقبه منذ ساعات"..

"وصلنا البئر الذي يغسل فيه الدهابة فتات الصخور بالزئبق.. لم يكن أحد قربه" أكمل أوش الله وهو يلتفت نحوي..

"أريدك أن تساعدني.. أريدك فقط أن تساعدني على ربطه وتكميمه.. ثم سننقله بعيدا عن السوق.. لا أريد منك أكثر من هذا.. لا أستطيع حمله ولا جره بمفردي.. قد يستغرق ذلك وقتا وربما انتبه لي أحدهم.. فقط ستساعدني على نقله.. ها"..

تبدلت نظرته لشيء من التصميم.. هدأت أنفاسه التي كانت متلاحقة حتى وصلت لسكون.. أو ربما حبس أنفاسه انتظارا لجوابي.. راقبت كل تغيراته تلك في ثوان.. وأفكاري تتسارع.. أتخيل ما سيقدم على فعله.. أتخيل ما سأفعله أنا.. ما سيفعله بنا الدهابة لو انتبهوا..

"ها.. سألني أوش الله يحفزني على الرد"..

"وما الذي ستفعله بعدها؟" سألته..

لم يجبني بالكلمات.. لا أعلم لماذا لم يقلها.. لكنه وضع يده على بطنه متحسسا.. فبرز لي ما بدا كرأس خنجر.. اضطربت لثوان ذلك أنني بدأت أفكر في تقنيات مثل الشرطة والمحاكمة.. أعني إن كان ما سنفعله صحيحا في نظر القانون.. لكن التفكير كان فخا بالنسبة لي..

هدأت نفسي وأنا أتأمل السؤال الواحد الذي سيشكل فارقا بالنسبة لي..

"هل أنت متأكد أنه هو؟.. مائة بالمائة"..

"متأكد"..

حينها شعرت بالغضب لأنني ترددت للحظات.. ولكن الغضب جيد.. فيما سنقدم عليه..

تسللنا مستترين بالظلام.. أوش الله يقودني نحو خيمة ذلك الحقير.. مع كل منعطف وقرب كل نار مستعرة كانت بعض القهقهات تصلني عدا ذلك كان السكون يخيم على السوق.. تعمقنا.. حتى وصلنا تجمعا للخيام.. كان ذلك اللعين يسكن في مكان يصعب التخفي فيه.. وستكون مصيبة أكبر لو كانوا جميعا رفاقه.. لم تكن هناك نار ولا صوت.. بدا أنهم نيام لكن خيمة واحدة كانت تحبس الضوء ما يعني أن أهلها مستيقظين..

أشار لي أوش الله بوجهه.. نحو خيمة صغيرة في المنتصف..

"هل تعرف كم عدد الذين معه في الداخل؟" سألته..

"لا.. لست متأكدا.. رأيت شخصين يدخلان ويخرجان سابقا.. لكنني لست متأكدا إن هما هنا الآن"..

فكرت في طريقة لاستدراجه لكن ذهني لم يقدم حلا.. فقط مجموعة من الأفكار البعيدة عن التطبيق.. كأن نشعل نارا في الخيمة فيخرجوا.. ثم ننقض عليه.. بالطبع سيكون ذلك بلا فائدة لأننا سنكون مكشوفين..

"اسمع –قال أوش الله- سوف أدخل وأطلب التحدث إليه.. لن يعرفني في هذا الظلام.. سمعتهم ينادونه خضر.. سوف أناديه وعندما يخرج سنكتفه ونأخذه بعيدا"..

أخرج أوش الله حبلا من جيبه.. وفك لثامه مشيرا لأننا سنستخدمهما..

"لا لا.. هذا خطير.. قد يعرفك وحتى لو لم يتذكرك فربما خرج معه أحدهم وعندها لن نستطيع فعل شيء"..

"ماذا سنفعل إذا؟"

"سننتظر"..

انزوينا في ركن نستطيع منه مراقبة الخيمة دون أن نكشف.. جلسنا على الرمال الباردة.. في البداية كان انتظارنا مليئا بالترقب حتى أنا هبة نسيم تحرك طرف الخيمة كانت تبعث فينا النشاط.. استمر الوضع لساعات.. بدأ البرد ينخر فينا حتى وصل العظام.. كنت ألتفت لأوش الله بين الحين والآخر لأجده يفرك يديه وينفخ فيهما.. في واحدة من تلك النفخات لم أستطع أن أتمالك نفسي"أتعلم.. .. لا أحد يفهم لماذا أفعل ما أفعله.. أنا نفسي لست متأكدا من أي شيء.. فقط أشعر أن هذا واجب علي.. ماذا عنك؟"

توقفت يداه عن الحركة ونظر لي..

"ماذا تعني؟"

انتبهت أن سؤالي مبهم.. ربما لأنه خرج في لحظة حيرة.. ربما أعني ما الذي أوصلنا لهذه النقطة.. أنا وهو.. يعتصرنا البرد ولا نقاوم..

"ما الذي تفعله هنا.. في الصحراء.. لماذا لا تعود لأهلك.. اشرح لي بالله عليك" انتبهت أنني تحولت لوالدتي وليلى "أقصد هل أنت متأكد

أنه من الأفضل لك العيش هنا.. ألا تظن أنه من الأفضل أن تخرج من هذا المكان؟"..

قام أوش الله بضم يديه تحت أبطيه لتدفئتهما.. أجاب وفي صوته حزن..

"أنا لا أريد العودة"..

"نعم فهمت هذا ولكن لماذا؟" قلت مغتاظا

أخذ هو نفسا وأجاب ببرود "لأنهم طردوني"..

"هل قال لك والداك هكذا اخرج من البيت نحن لا نريدك؟" قلت متحديا..

"لا لا ليس والداي.. أهلي الذين بقيت معهم"..

"قاموا بطردك من البيت؟"..

صمت قليلا يحاول دفع الكلمات للخروج.. "قال لي خالي في إحدى المرات أنت ابن مجرم أصلا ما الذي أتوقعه منك.. لا أذكر ما هو الشيء السيئ الذي فعلته وقتها كنت في الحادية عشرة.. قبل ثلاث سنوات.. بعدها خرجت من المنزل ولم أعد"..

"ووالدتك؟"

"لقد قال خالي هذا الكلام وهي موجودة.. لم تقل شيئا.. هي أصلا كانت تلعن والدي في اليوم عشرين مرة"..

"وما الذي فعله والدك ليستحق كل هذا؟"

هز أوش الله رأسه..

"لست متأكدا.. أعلم أنه دخل السجن.. كنا نزوره أول أيام لكن أمي توقفت عن زيارته وبالتالي نحن.. أنا وأختي الصغرى.. أظن أنه

دخل السجن في شيء له علاقة بالمال.. كانوا يدعونه نصابا.. خالي وأمي وأهلها جميعا.. وأنا.. أعتبر ابن ذلك النصاب وليست مني فائدة.. وربما مجرد عبء عليهم.. لذا رحلت"..

"استغرقت بعض الوقت أتشرب ما قاله.. ما قام به أهله هو أمر مشين.. لكن هل كان الهرب هو أفضل خيار.. نظرا لما حدث.. وأين أعمامك؟ أوليس لك أقارب غيرهم؟"..

"بلى يوجد.. لكن ما الفائدة سأسمع نفس الكلام من جديد.. لم تكن أول مرة.. ما فعلته هو أنني ذهبت لبيت جيراننا القدامى حين كنا نعيش مع والدي بقيت لديهم عدة أيام استقبلوني وعاملوني أفضل من أهلي.. لقد كانوا يعرفون كل شيء عن أبي وأمي ومشاجراتهم.. تعرف أنت.. لكنهم بعد عدة أيام طبعا حاولوا مصالحتي مع أهلي أعني أن والدة صديقي تتحدث لأمي وهكذا.. ثم جاءوا يطلقون الوعود.. وتبدلت طريقة حديثهم معي فعدت.. لكن طبعا كان كل ذلك نفاقا أمام الناس.. لم يستطيعوا الحفاظ على الكذبة الجديدة لأكثر من أسبوع.. فهربت مرة أخرى.. لكنني في المرة الثانية سرقت بعض المال وابتعدت.. تركت المدينة برمتها أم الطيور.. وصلت الدبة.. لم أكن أعرف أحدا.. كنت أنام في أي مكان أجده.. في الزقاقات.. الجوامع.. إلا أن وجدت عملا في أحد المطاعم.. كنت الصبي الذي ينظف.. يغسل.. يذهب لشراء الأشياء.. كان حلا جيدا.. بعض المال والأكل وأنام في المطعم بعد أن يغلقوه"..

"ولماذا تركته؟ ألم يكن الحال جيدا؟"

"لا كان ممتازا.. لكن صاحب المطعم قرر بيعه بعد قرابة السنتين.. وهاجر من السودان.. أعتقد أنه ذهب للخليج أو مصر لا أعرف تحديدا.. وهكذا وجدت نفسي مشردا من جديد لكن ببعض المعارف..

فأحد الشباب يكبرني بعدة أعوام استضافني في بيت أهله بضعة أيام.. أشخاص طيبون.. لكن طبعا لم أكن لأبقى معهم فترة أطول.. الشاب نفسه سمع عن الدهابة وجاء للعمل هنا.. فجئت معه.. كان أحد معارفه يملك بئرا في الجهة الغربية من المنطقة وكنت أذهب معهم.. لم يسمحوا لي بالنزول للبئر طبعا لكنني كنت أقوم بأعمال أخرى.. نقل الحمولة.. تكسير الصخور.. الطبخ وفي النهاية أحصل على مبلغ جيد"..

"وأين هو صديقك هذا الآن؟"

"أووه لقد عاد.. في مرة وبينما أنا أعمل على سطح الأرض قرب البئر.. أتذكر اللحظة بالتحديد.. كنت أقطع البصل لأضعه في قدر مع العدس.. في تلك اللحظة.. تزلزلت الأرض من تحتي.. استغربت لثوان لكنني لم أعر الأمر انتباها مطولا.. ثم بعد قرابة الساعة خرج الدهابة من البئر.. كانت وجوههم مكفرة.. وشاحبة.. سألتهم عن أيوب صديقي.. فأخبروني أن البئر انهارت.. وأن صخرة سقطت على قدمه وهو عالق في الأسفل"..

"كيف؟ -انتبهت أنني صرخت فأكملت هامسا- هل هذه الآبار تنهار من الضرب؟"

"طبعا.. ألم ترى كيف تبدو من الداخل.. هل تظن أن مجرد أزميل ومطرقة يستطيعان إحداث كل تلك الخنادق لولا الانهيارات التي تحدث.. هذا يحدث كثيرا.. أنت وكمية الحظ الذي تملكه يحددان حياتك"..

أحسست بأنني كنت أغازل الموت كالأخرق دون أن أعي ذلك.. لو كنت أعرف شيئا عني فهو أنني لست محظوظا.. حتى تلك اللحظة..

"وما الذي حدث له بعد ذلك؟ هل مات؟"

"نزلت للبئر أصريت عليهم ودخلت.. كنت أسمع أنينه وصداه في الداخل.. والظلمة كانت حالكة.. كان شيئا مخيفا يحدث على بعد أمتار مني كل يوم دون أن أعي مدى خطورته.. عندما وصلته رأيت حجم الصخرة التي كانت تحط على قدمه.. كانت بحجم.. ماذا أقول لك.. بحجم سيارة ومن فوقها كانت صخرة أخرى تتكئ عليها.. اقتربت من رأس أيوب.. مغطى بالسواد والعرق يسيل منه.. كان يرتجف لا أعرف لماذا فالجو لم يكن باردا رغم ذلك كانت أسنانه تصطك كالمحرك.. المهم.. بعد يوم من القلق والتفكير.. ولأن تحرك الصخرة كان سيسبب مزيدا من الانهيارات.. والحقيقة أن قدمه ستكون هرست بالكامل.. بالكامل.. لو تتخيل فعلا حجم الصخرة.. في النهاية.. قمنا ببتر قدمه.. ثم كيها ونقلناه بعد أربعة أيام أخرى إلى المشفى.. طوال تلك الأربعة أيام كان يتخبط بالحمى ويهذي.. لكنه عاش في النهاية هل تصدق.. صحيح أنه فقد ساقه اليمنى.. لكنه حي.. هو عاد إلى أهله وبقيت أنا كما ترى"..

عندما أنهى أوش الله قصته لم يترك لي مجالا لغير الدهشة.. هل أسمي ما فعله تهورا؟ هل كان من الأفضل له أن يبلع الكلمات السامة التي يطلقها أهله ويعيش معهم؟ يأكل شاعرا أنهم يفضلون تجويعه.. ينام في سرير وهو يتخيل أنهم يفضلون لو طردوه.. وأن يقرر هو بنفسه أن يحول كلماته لواقع لهو شجاعة.. أي مستقبل ينتظر هذا الفتى.. جلت بعيني محاولا تبين ملامحه في الظلمة.. الحياة ليست شهادة جامعية أنا مدرك لهذا.. وهو يملك معرفة لا تخطر على بال.. لكن أين سيطبقها إن كان يعيش في هذا الخطر الدائم..

"لا أعرف ماذا أقول لك يا أوش الله.. لا أعرف أهلك.. ولا والدك.. وربما لا أعرفك حق المعرفة لكن مما سمعته وفهمته وأراه يحدث أمامي الآن.. أنت أقوى شخص من بين كل البشر الذين قابلتهم"..

لم يصلني رده.. ولم أر أي حركة في وجهه من الظلمة.. لكنني أملت أن يكون لكلماتي تأثير ما.. أن يعرف كم هو نادر.. وقوي.. على الأقل في نظري.. وأن يستخدمني كشاهد أن سولت له نفسه أن يذم نفسه يوما..

لم يتحدث أحدنا بعد ذلك.. استلقيت أنا أراقب السماء تتراقص النجوم عليها.. مشكلة خطوطا ودوامات بحثت بينها عن السهم الذي يشير للشمال.. وقد كان شيئا صعبا في سماء الصحراء.. كل النجوم تتلألأ بقوة.. وكلها تبدو متشابهة.. لكنني بغريزة أو رغبة قاهرة بحثت عنه.. حتى وجدته.. ربما كنت بطريقة ما أبحث عن طريق العودة دائما لشيء ما..

-11-

لم أنتبه متى بدأت السماء تتبدل.. تدريجيا بدأ اللون الأسود القاتم بالتلاشي وتعكر صفوره باللون الرمادي ثم راحت النجوم تموت تباعا.. الأضعف فالأضعف.. إلى أن انقلب الوقت سحرا.. كأنني لم أعد أقف على كوكب أعرفه.. من الرمال.. ارتفعت طبقة رقيقة من الضباب.. وأحسست أن عيني صارتا تميز الأشكال.. الخيام.. التلال البعيدة.. وطيات الملابس التي ارتديها.. بدأ يولد النور طارحا الظلال معلنا بذلك بداية بزوغ الفجر..

انتبهت أن أوش الله قد غفا قربي.. لكنني كنت متقد الذهن لسبب ما.. وهادئا.. لم أكن أفكر في شيء.. كنت فقط أنظر.. وأرى.. ثم بدأت أسمع صوت الريح أولا.. تلتها أصداء بعيدة.. كغمغمات لا معنى لها وأخيرا بدأت الحياة في السوق.. البعض كان يتوضأ والآخر يصلي.. وشخص آخر يوقد النار في بقايا حطب.. سمعت حركة من الخيمة التي ظللنا نراقبها طول الليل فأيقظت أوش الله بهزة خفيفة.. لم أحتج لأكثر من ذلك..

جفل متحفزا كثعلب.. وانحنى يراقب الخيمة.. كنا نسمع الأصوات محاولين حصر الأشخاص الذين استيقظوا منها.. الألوان كلها رمادية.. والضباب يتصاعد حتى وصل الركب.. ارتفع غطاء الخيمة وخرج منه دهابي يتثاءب.. كان يرتدي عدة طبقات من ملابس رثة طلبا للدفء.. ويلف عمامة حول رأسه.. ملامح وجهه كانت عادية من بعيد.. لكن فيها شيء من البروز خصوصا الحاجبان الكثان.. سألت أوش الله همسا..

"هل ذلك هو؟"

ضيق أوش الله عينيه مشرئبا برأسه أكثر.. حتى انتبهت لطول عنقه اللافت.. ظل على ذلك الوضع لبعض الوقت يتابع الدهابي يسير هنا

وهناك.. كان يبحث عن شيء ما.. في لحظة بينما أراقب وجه أوش الله رأيت منخريه ينتفخان وينفث منها بخارا..

"نعم هذا هو لا شك"

ازدادت ضربات قلبي وامتلأت يداي عرقا وأنا أقبض عليهما.. لم يكن غيره على مرأى منا ولكن أصوات تصل إلى مسامعنا.. لم يكن من الحكمة مهاجمته في ذلك الوقت..

"ماذا الآن؟" همس أوش الله..

"انتظر"..

كنت آمل أن يكون إنسانا طبيعيا ويقرر الابتعاد عن السوق بينما يقض حاجته.. راقبته وهو يملأ إبريقا بالماء ثم يتحرك..

"هيا الآن.. سنتبعه من مسافة معقولة لكن سنفترق.. ابق أنت خلفي فهو لن يتذكرني"..

سار الدهابي أمامنا يمشي ببطء دون أن يلتفت حوله.. أنا كنت أبعد عنه بضع خطوات إلى الخلف.. ومع كل خطوة كنت أتحفز للقفز عليه لكنني أثبط نفسي.. التف إلى اليسار بين خيمتين لنصل قرب المطاحن.. مر شخص آخر قربنا في الاتجاه المعاكس فتفاديت النظر إليه مباشرة.. تظاهرت بأنني أقلب الجوالات قرب إحدى الطواحين.. وبينما أنا أتظاهر وجدت جوالا من الصخور مفتوحا على الأرض.. فانحنيت آخذا صخرة.. حادة الأطراف أكبر من قبضة يدي.. كانت مناسبة تماما.. تلاقت عيني وأنا أنظر للخلف بعيني أوش الله فهز رأسه.. عدت ألحق الدهابي زادت المسافة بيننا ونحن نصل حدود السوق.. أمامنا بساط من الرمل يمتد إلى الأفق.. والشمس مستلقية على الأفق..

كان الدهابي ولحسن الحظ يبتعد أكثر فأكثر نحو مجموعة تلال.. وفي العراء.. دون إنذار.. عصفت بنا ريح دفعتنا للتوقف.. كانت الرمال تلسع جلدي كقرص النمل.. استمرت لثوان.. بعدها قام هو بالالتفات للخلف فاستلقيت على الأرض.. خشيت أنه ربما انتبه.. وأن كل شيء سيضيع.. لم أجرؤ على النظر.. لكنني فكرت أنه ربما لم يرني بسبب العاصفة.. وحتى لو رآني فأنا مجرد شخص ذاهب مثله لقضاء حاجتي.. رفعت رأسي تدريجيا فلمحته يسير كأن شيئا لم يكن..

عاودت السير من جديد.. غطى أحد التلال رؤيته عني.. فهرولت.. حتى وصلت التل ثم ارتقيته ببطء.. وهناك لمحته مقرفصا ينظر للبعيد يهز الإبريق يمينا ويسارا.. تلك كانت اللحظة.. تلفت حولي.. لم يكن هناك من أحد.. في الخلف كان ظل ما يلوح.. أوش الله على الأرجح..

قمت بالدوران حول التل زاحفا.. حتى أصبح ظهر الدهابي أمامي.. فنهضت.. أحكمت قبضتي على الصخرة.. اعتصرتها ككرة عدة مرات.. خطوت نحوه.. ولأن الرمال ناعمة لم يصدر أي صوت.. لكن أنفاسي وضربات قلبي كان لهما وقع الموسيقى الصاخبة.. على الجهة الأخرى كان هو مستمتعا.. يتمتم أغنية ما بصوت عال.. أرى رأسه يهتز طربا.. من الخلف أتخيل الصخرة تهوي عليه.. اقتربت أكثر حتى لم يعد بيننا سوى بضع خطوات.. وقدماي تغوصان في الرمل مع كل خطوة.. في نظري صار الدهابي مجرد رأس تغطيه العمامة..

في لحظة ما قرر هو النظر للخلف.. ربما كان يملك أذني كلب لكنه التفت.. فتسمرت.. رأيت عينيه تتسعان هلعا.. ولثوان بدا أن الزمن قد توقف.. صفرت الريح.. كنت أنا من خطا الخطوة الأولى.. فنهض هو رافعا سرواله..

طوحت بالصخرة ونزلت بها على رأسه بكل قوتي..

كان الأمر سهلا بطريقة مريبة.. ضربة واحدة وإذا به يتهاوى.. وقفت فوقه أنتظر أن يقوم بأي حركة.. تتقافز عيناي تمسحان جسمه.. يدان

قويتان تبرز أوتارهما.. جسم ممتلئ.. ووجهه كانت له ملامح بارزة.. حواجب كثة وكذلك الرموش.. وعظام وجه حادة تجعل وجهه مثلث الشكل.. على الجانب الأيمن كان الدم يسيل على وجنتيه من الفتحة في صدغه.. والعمامة كانت قد تشربت جزءا من الدماء.. كان هناك شيء كريه يميز ملامحه.. لم تغلق عيناه بالكامل وبؤبؤا عينيه كانا متقاطعين مم أضفى عليه بلاهة حتى في حالته تلك وهو فاقد الوعي..

انحنيت لأتأكد من حاله.. فاستثارت أنفي بادئ الأمر.. كانت رائحة البراز تفوح منه.. كتمت أنفاسي.. خيل إلي أنني أرى صدره يعلو ويهبط.. لكنني كلما دققت شعرت أنه لا يتنفس.. اقتربت أكثر وزادت قبضتي على الصخرة تحسبا لأي حركة منه.. قربت أذني من أنفه.. فسمعت صفيرا.. ثم حركة على الرمال.. جفلت بسرعة عائدا للخلف لكنه لم يتحرك..

"هل مات؟" جاءني الصوت فشعرت أنني زحفت خارج جلدي.. التفت خلفي فرأيت أوش الله يقف أعلى التل.. ونظرته بدت لي من الأسفل شيطانية.. جامدة.. شفتاه مزمومتان بشدة تكاد تنفجر دما..

لم تخرج الكلمات مني.. فهززت رأسي أن لا..

نزل أوش الله بخطوات واسعة.. ثم ركل الدهابي دون أن يبدي ذلك أي حركة.. أخرج الحبل من جيبه وبدأ يعقد ساقي الدهابي.. خلع عنه نعليه أولا وقذف بهما جانبا.. ثم ترك جزءا من الحبل يتدلى.. بعد ذلك خلع أوش الله اللثام عنه وربط به يدي الدهابي.. كانت ربطة محكمة.. بل ضاغطة.. ثم خلع عمامة الدهابي وربط بها فمه كي لا يصرخ إن استيقظ.. فعل كل ذلك في هدوء وإتقان فلم يبد أن للدهابي مجالا للتحرر حتى لو أعطيناه سكينا..

راقبته طوال الوقت صامتا شاعرا أن دوري قد انتهى.. وبالفعل.. التفت أوش الله نحوي وقال في هدوء متحسسا خنجره..

"من الأفضل أن تنتظر هنا وتراقب.. سوف آخذه بعيدا قليلا.. أخبرني أن جاء أحد"..

لم ينتظر ردي وهو يمسك بطرف الحبل الذي ربط به قدمي الدهابي ثم يجره خلف ظهر كغنيمة.. التصقت الرمال بالدم اللزج على وجه الدهابي.. ورسم خطا عريضا خلفه.. بعد عدة خطوات رأيت عينيه تنفتحان.. رأيته يتلوى قليلا بينما أوش الله يجره.. لكنه لم يكن سوى ذبابة في شبكة عنكبوت..
أمضيت وقتي أعلى التل.. مستقبلا السوق وتاركا أوش الله يفعل ما يراه مناسبا.. وصلتني بعض الصرخات.. أو ربما كنت أتخيلها بحكم الموقف.. لست متأكدا.. عندما عاد أوش الله كانت الشمس قد وصلت علوا والحركة قد زادت في السوق.. عاد وثوبه الجديد به لطخات من الدم.. يداه أيضا.. وخط من الدم على وجهه.. يبدو أنه مسح جبينه بيده وهي ملطخة.. أما عيناه فقد كانتا خاويتين من كل المعاني.. حتى الأطفال يتحولون لوحوش حين يقتضي الأمر..

وقف أمامي حائرا وكان كل ما قاله هو "لقد اتسخ الثوب"..

لم نحتاج للكلمات للتواصل.. عندما رمقت الخنجر في يده مضرجا بالدماء قام هو بكل هدوء بإخفائه داخل الغمد ثم تحت ثوبه.. سرت أنا نحو الإبريق الذي أحضره الدهابي فتبعني.. بدأت أصب له الماء بينما يغسل يديه.. سال الدم مخففا على الرمال.. ثم أشرت إليه أن يمسح جبينه ويغسل ووجهه.. ففعل.. في النهاية قام بدفن الجزء العلوي من ثوبه داخل سرواله..

عدنا إلى السوق أشخاصا آخرين.. هناك وجدت أن أب شنب ومن معه قد ذهبوا.. حزموا كل شيء وانطلقوا بما في ذلك حقيبتي.. رفعت رأسي للسماء حيث انتصفت الشمس.. كانت إحدى الخيام المنصوبة تشكل ظلا خلفها فاتجهت إليه.. استلقيت.. وما هي إلى ثوان حتى غطيت في النوم وكانت آخر فكرة عبرت في رأسي هي اللعنة على كل شيء..

-12-

رأيتني في باحة منزلنا.. كانت الشمس بعيدة تحجبها الغيوم.. والظلال كانت تغطي أجزاء مني.. قطعت حوش البيت الفسيح.. متجها للحمام.. خلعت ردائي خارجا لا أعلم لماذا؟.. استغرقت يداي الصغيرتان وقتا لزحزحة قطعة الخشب الكبيرة والتي هي بمثابة الباب.. وسددت بها المدخل.. هنا في هذه اللحظة بالذات.. علمت أنني أحلم.. شيء ما حولني لطفل صغير.. لما كنت عليه سابقا.. بلا برص.. نظرت لقدمي فرأيت الكثير من الجروح فيها.. ثم نظرت للسماء الغائمة كأنني أسأل.. وماذا الآن؟.. كنت أتحرك في الحلم تحت تأثير قوة ما.. كنت مسيرا بماضي.. حركني الحلم باتجاه الإبريق.. فرجيته حتى تأكدت من امتلائه.. رحت أصب الماء على قدمي وأغسل الجروح.. لكن الدم لا يتوقف.. ولم أشعر بالألم.. فجأة.. بدأت الأرض تصبح رطبة.. ثم موحلة.. وما لبثت أن تداعت وتزلزلت.. حاولت مد قدمي نحو الباب لكنني تأخرت.. فهويت..

كان سقوطا طويلا أعقبه اصطدامي بماء موحل.. كنت في النهر.. نظرت للضفة أمامي فرأيت الجبل وشجرة النيم.. رأيت في الماء أشخاصا.. لم أعرف أيا منهم.. وجوههم ضبابية.. ضربت الماء سابحا باتجاههم.. سبحت وسبحت.. لكن جسمي ضئيل.. ضئيل جدا.. فطنت لحركتي المتباطئة.. وأنه حتى تكتمل خطة الحلم لابد أن تنشل حركتي.. فما كان مني سوى الاستنجاد بمن في النهر.. صرخت.. توجهت أنظارهم نحوي بعيون مضيئة كالزمرد.. وانتظروا.. أحسست بيد تلتف حول قدمي ببطء كالثعبان هجت محاولا الفكاك لكني كنت أهبط نحو القاع كلما زادت حركتي وعندما غمرني الماء بالكامل رأيت وجه مروان قريبا جدا أزرق ومحتقن مخيف..

فتحت عيني قبل الغروب كدت أبكي مباشرة بعد أن استيقظت خوفا من أن يعاد كل شيء.. أحسست برعشة سرت خلف ظهري اهتزت معها أوصالي ومن ثم أحسست بفجوة داخل صدري.. أسفله تحديدا وفوق بطني.. كأنه حقل له جاذبية خاصة.. يمتص أحشائي وهي تقاوم.. كنت أشعر بالخوف.. كان أول ما فعلته أن خلعت قميصي ورحت أتفحص جسدي على آخر أضواء الشمس.. تتبعت كل بقعة برص بحثا عن أي علامات أنها عادت للتوسع أو تظهر أخرى جديدة..

جائعا ومتألما.. جاهدت نفسي كثيرا لأنهض من مكاني لكنني كنت خائر القوى.. شعرت بالحيرة تتملكني وبرغبة في الصراخ.. تجاهلت وضعي السيئ.. أنني حتى تلك اللحظة لم أصل إلى أي شيء مفيد.. وبدا أنني سأبقى في السوق للأبد لو استمر الوضع على حاله.. أو أن أستسلم.. وأعود.. وتلك الفكرة كلما خطرت في بالي.. أو وصلت إليها ممتطيا خط الأفكار تهالكت قوتي.. وشعرت أنني لا أقوى على حك عيني..

عدت لأغمض عيني.. وأتخيل شيئا جيدا أي شيء.. فكرت في ليلى.. في مستقبلي معها إن وجد..

بالطبع استحال علي ذلك.. وجدتني خاوي الذهن.. كأن جمجمتي تحوي تجويفا فارغا يقبع في منتصفه جهاز تسجيل معطوب.. يعيد كلمات من أغنية لا أتذكر اسمها.. "يا نديمييي دع ك من.. عثِراااتقوليي واد رع الكأساااا.. .. تنااااجي الكون مثلي.. .. لااااااااا تظنَني أبيد العمر لهوا.. .. اذ أنااا جسم.. .. به البركان يغ ليي"..

أظلمت الصحراء ولم يعد من مفر لإسكات جوعي.. نهضت متثاقلا صوب دكاكين الغذاء.. كنت آمل أن يتذكرني البائع الذي أتيته مع أب شنب سابقا.. ذلك أن محفظة نقودي مع بقية حاجياتي في الحقيبة التي أخذوها معهم أو لا أعلم ما حل بها على وجه الدقة.. شرحت للبائع أنني سآخذ منه بعض الحاجيات بالدين.. فلم يماطل كثيرا.. ربما لأن مجموع ما أخذته لا يساوي أكثر من عشرين جنيها.. أخذت

منه أيضا صحنا وقطعت فيه الطماطم والخضر وأكلت قرب الدكان.. ثم أعدت إليه الصحن..

تمشيت في السوق بعد ذلك دون وجهة.. بين طرقعة النيران وأصوات لعب الورق والهمهمات.. (يا نديمي دعك من عثرات قولي) اللعنة على كل هذا لم أعد أحتمل الحظ العاثر والألم والذنب (واترع الكأس تناجي الكون مثلي) متى ينتهي هذا الكابوس.. اللعنة على النهر وعلى مروان وعلى (لا تظنني أبيد العمر لهوا) بل تبيد.. نعم أن تضيع عمرك منذ ولدت تتخبط هنا وهناك.. لا علاقة بما حدث بما وصلت إليه الآن.. لا شيء.. لا النهر ولا البرص ولا مروان كل هذا بسببك وحسب.. سينتهي بك الأمر إلى الفشل دوما تلك نهاية محتومة (إذ أنا جسم به البركان يغلييييي) أنا سانفجر (يا نديييميي) اخرس.. اخرس يا أخي..

في مرحلة ما من مشيي أردت أن أتجه لأوش الله لكنني عدلت عن الفكرة.. لم أملك سببا سوى شعوري بالضيق.. كنت مستاء مما فعلناه.. ليس لأنه خاطئ بالكامل.. كنت أسوغ لنفسي أن الدهابي استحق الموت.. هذا ما لا شك فيه بالنسبة لي.. ولكن.. ليس بتلك الطريقة.. لكن الأمر انتهى.. ولم يعد هناك مجال للعودة وإذا كان الذنب سيطرق بابي فليكن في وقت آخر.. قمت.. كما أفعل.. بتكويم الفكرة.. كقطعة ملابس متسخة.. وفتحت دولابا في عقلي وما إن بدأ ينفتح حتى كادت محتوياته تنهال.. لكنني أثبتها.. وأحشر القطعة الجديدة حشرا.. وأجاهد مغلقا الباب..

"ليس الآن".. قلت لنفسي..

واصلت التسكع في السوق تحت جنح الليل.. سرت خاوي الذهن بين الدهابة أنظر إليهم من تحت غشاء.. إلى أن لمحت كتابا.. كان

يحمله شخص وهو مستلق تحت مظلة مربوطة بأربعة أعمدة خشبية.. ومن أحد الأعمدة يتدلى مصباح يطلق وهجا أصفر.. الكتاب أعرفه جيدا "الغريب" ألبير كامو.. توقفت.. كان غلاف الكتاب يحجب قارئه عني.. وكل ما أراه منه هو بنطالا رياضيا أزرق اللون ورداء ذا أكمام طويلة من الصوف بني.. أحسست أنني أطلت الوقوف فأكملت سيري.. ثم توقفت مرة أخرى.. عدت إليه من جديد وألقيت جملتي بصوت عال..

"هذا الكتاب جيد حقا"..

سقط الكتاب على صدره مزيلا الحجاب عن صاحبه.. كان شابا في مثل عمري تقريبا.. أصفر البشرة أو ربما بسبب الإضاءة رأيته كذلك.. اتسعت عيناه ورفع حاجبيه بود..

"آآه نعم منتاز-لفظ الكلمة بحرف النون- ربما هذه المرة العاشرة التي أقرؤه فيها.. قصير كما ترى.. ويعتبر أفضل خطاب تحفيزي"..

أظن أنني توقفت لظني أن شخصا يمسك بكتاب لكامو في مكان كهذا سيكون شخصا.. لا أعرف.. شخصا أستطيع أن أتفاهم معه وسط هؤلاء الحمقى.. لكن الفكرة طارت بعد كلماته تلك.. هل يحسب أنه يقرأ أحد كتب التنمية البشرية..

"خطاب تحفيزي! لم أكن لأصفه بهذه الطريقة خصوصا بتلك النهاية الكئيبة"..

استعدل الشاب جالسا متصالب الساقين.. كشيخ يحفظ طلبته القرآن..

"طبعا النهاية كئيبة.. ونعم كامو كتب روايته تلك كامتعاض عن قانون الإعدام هو وبقية الكتاب في زمنه.. لكن.. لا أعلم إن كان فعل

ذلك عامدا أو أن هذا ما أحسست به فقط.. لكن بطل الرواية استحق ما حدث له.. أعني أنني لم أتعاطف مع إعدامه أبدا.. حسنا ربما قليلا ولكنني لم أرفضه"..

"إعدام شخص ارتكب القتل عن طريق الخطأ.. وأنت لا ترفض شيئا كهذا.. هممم"..

ابتسم الشاب وضاقت عيناه.. انتبهت لوسامته.. فكرت في أن النساء لابد ويحببنه حقا.. كان من النوع الذي يتحدث ويضحك ويتواصل عن طريق عينيه فقط.. فيهما سحر غريب.. كأنهما تخترقانك مباشرة..

هذا بالضبط مقصدي.. انظر.. هذا الشخص البطل.. الذي لا أتذكر حتى اسمه عبثي جدا.. أو لنقل باهت.. لا يفعل أي شيء ولا يبدي اهتماما بأي شيء.. حتى تلك الفتاة التي تحبه عندما تطلب منه الزواج يجيب بكل برود نعم إذا أردت ذلك.. إذا أرادت هي!.. وماذا يريد هو!... إنه لا يفعل شيئا هل فهمتني فقط يتعايش مع الأشياء.. حتى عندما أزهق روحا.. وهو أمر جلل.. شيء عظيم قد أحبه من أجله إن كان له سبب وجيه.. لكنه لا قتله بالخطأ... لذا هل رأيت؟! هو حقا يستحق أن يكمل حياته العبثية تلك والتي لا يختار فيها شيئا حتى موته.. حتى موته.. لذلك عندما أقول لك أنه خطاب تحفيزي أعني أنك ستكره ضعف إرادة البطل.. وترى إلى ما أدت إليه فاا.. ستشمئز من أن تكون مثله"..

اتكأت على العمود إلي يساري وبقيت أنظر للأرض لثوان.. نعم كنت قد أحسست بأن البطل يتسم بالعبثية لكن ليس بالطريقة التي يقولها هو أعني أن مبدأ البطل في ذلك أنه نوعا ما يؤمن بحرية مطلقة لدرجة تصعب على الفهم..

"اسمع... أظن أن البطل غريب فعلا كما هو اسم الكتاب.. لكن غرابته يمكن تفسيرها.. قد لا تصل لتطبيقها على الواقع أو لا تجد شخصا مثله لكنها قابلة للفهم... لو لاحظت فالبطل وقح جدا.. صريح في موافقة إرادة الناس مهما بدت غريبة.. أعني بذلك جاره الذي ضرب حبيبته وأهانها حتى جاءت الشرطة.. وعندما يحكي الجار ما فعله للبطل ويقول إنه فعل ذلك لأنه حقه وأنه يريد ذلك فإن البطل يقول نعم من حقك أن تفعل ما تريد.. هناك أيضا عدة مواضع يحث فيها البطل الناس على فعل ما يريدون مهما كان ذلك.. هو يؤمن بالحرية المطلقة.. هو نفسه يطبق ذلك لكنه لا يفصح عن رغباته هو فقط يفعلها.. ولأنها تافهة وبسيطة ربما لم تنتبه لها.. أما ما يجعله يبدو باهتا... أظن... أنه ومن أجل تلك الحرية المطلقة فهو لا يملك أي روابط... بأي شيء... لا أمه ولا حبيبته التي طلبت الزواج.. حتى فكرة الزواج تلك لا يرى لها فائدة أعني هو سيفعل كل شيء يوجد تحت إطار الزواج دون أن يضطر لطلب موافقة العالم وشهادته.. هو حر"..

أغمض الشاب عينا ومال برأسه..

"لا لم أفهم شيئا... كيف لشخص أن يكون منفصلا هكذا عن كل شيء ويفعل ما يريد وقتما يريد.. وهذه مشكلة أخرى لي معه.. لماذا لا يحترم قوانين وأعراف مجتمعه.. لماذا يضاجع فتاة قابلها في اليوم التالي لدفن أمه.. حتى وإن كان لا يشعر بالحزن لوفاتها لماذا لا يحترم ذكراها أو لا أدري... مشكلتي معه أنه لا يملك تلك الروابط لا أظن أنه قطعها أصلا هو لم يملكها أبدا.. ولهذا فهو غير طبيعي.. لم يختر أن يكون كذلك بعد تفكير فلسفي عميق.. لأن من يصلون لمثل هذه الأفكار يجدون أن الحل الأمثل هو الاندماج في أفعال المجتمع ما دامت لا تضر حتى لو بدت عبثية هي الأخرى... أظن أنه مريض"..

"مشكلة الفرد والمجتمع هذه لن نحلها الآن... لكنك قلت لي أن البطل لا يريد شيئا... لماذا شعرت بذلك أعني أنه في النهاية عندما حكم عليه بالإعدام لم يرض ويرضخ.. لو كان مسلوب الإرادة كما وصفته لما بقى يدافع ويحاول حتى آخر لحظة.. ذلك أنه يريد الحياة... أليس كذلك؟"

"نعم يا صديقي... لكن هذه حياة.. هناك غريزة كاملة للدفاع عن شيء كهذا ليست حتى إرادة."

"ربما... لكن قد تتوقع من شخص بصفات البطل أن لا يعطي حتى للحياة قيمة.. بل ربما ينتحر من نفسه.. لكنه قاتل حتى آخر رمق ليعيش.. ربما فقط صدف أن هذا ما يريده.. متع الحياة الصغيرة... لا يريد أن يكون رئيسا أو رائد فضاء أو... يريد فقط أن يستمتع.. ألا يستحق ذلك أن نحترمه"..

"وأنه لو صدف ووجد شيئا آخر يريده لقاتل عنه وكنا سنرى ملحمة أخرى"..

"ربما نعم"..

"كلام معقول... وبما أنك أوضحت وجهة نظرك لنعد للمجتمع.. أترى أن شخصا مفصول تماما عن مجتمعه يمكنه أن يكون فعالا.. أو لنقل يستطيع أن يعيش بصورة جيدة؟"..

"يقول هذا الكلام شخص يقرأ كامو في سوق دهابة"..

"ما بهم الدهابة–قالها وهو يضحك- مجتمع يحوي أي إنسان... ألا ترى نحن الاثنان نتكلم عن الغريب ولا شيء غريب هنا"..

"نعم ولكن هذه صدفة... يا رجل أنا أعمل مع أشخاص يظنون أن جيولوجيا هي الكلمة الإنجليزية لجغرافيا"..

"تبا أليست كذلك؟!... كما قلت لك كل مجتمع يحوي الكل عليك فقط أن تلتصق بمن يشابهونك.. كما في الخارج"..

"لكن المشكلة أنه بدا واثقا ومتأكدا.. من تظن أنه يصنع أعراف المجتمع... هذا النوع.. وهم أكثر من ينتقدون من يغرد خارج السرب... ليسوا كالغريب"..

المهم أنني وفي تلك اللحظة لم أسمع رد الشاب لأن عقلي تفتق بحل.. تذكرت الجيران الذين يعملون قربنا في البئر.. ماذا كانت أسماءهم... أحدهم كان يدعى ال..م.. قم.. ما كان اسمه! والفتى الذي كان بيده الدفتر أثناء لعبنا الورق... الساري..

"عفوا ماذا كنت تقول لقد سرحت للحظة"..

"قلت لك لا بأس بنظرية الغريب في أن يدع الناس وشأنهم.. لكن طبعا ليس بطريقته تلك أنا أجزم لو كان له ابن فإنه سيدعه يرتكب أخطاء جسيمة من منطلق تركه وشأنه"..

كانت الفكرة لا تزال تلح علي فأجبته على عجالة..

"هممم... أنا معك هذه طريقة خاطئة ولكن ما هو البديل.. لو تحدثنا بجدية فإن البديل الحقيقي هو أن تمنعه.. أعني تجبره جبرا على فعل الصواب.. لكن ما مدى تأثير ذلك في يوم ما سيرتكب الخطأ انتقاما مثلا.. بالطبع ستقول لي من المفترض أن أنصحه وهذا كلام جميل لكنه يملك احتمالين أن يفيد أو لا.. لذا ربما كان مبدأ الغريب هنا هو توفير الجهد.. وأن أي شخص سيتعلم بنفسه في نهاية المطاف... اسمع هل تعرف شخصا يدعى الساري.. قصير.. أسود"..

"الساري... الساري... لا لا أظن أنا أعمل لوحدي كما ترى ليست لي مجموعة"..

"كيف ذلك؟"..

"بجهاز الكشف ذاك استثمرت نقودي في شراء واحد"..

نظرت إلى حيث أشار كان الجهاز مربوطا بسلسلة حول سريره.. كي لا يسرق كما أظن..

بالنسبة لشخص لا تروقه أفعال الغريب أنت تشبهه بعض الشيء... "اسمع... هذا الساري لابد أن أجده الآن فاعذرني"..

قلت وأنا أمد يدي.. نهض عن مكانه وصافحني بود..

"وأنت ها قد وجدت ما تريده حقا... بالتوفيق"..

-13-

وجدتهم في نهاية المطاف.. استعنت بأوش الله ومعرفته بكيف يبحث هو وأصدقاؤه.. لم يستغرقهم من الوقت سوى نصف ساعة شربت فيها الشاي وأنا مليء بالأمل.. توجهت إلى مكانهم في السوق فتذكروني مباشرة.. حكيت لهم معضلتي وأنني أريد الوصول للبئر.. أخبرتهم أنني تأخرت لسبب طارئ في الدبة ولذا فوت مجموعتي.. رحبوا بذلك بسرور.. وأخبروني أنني محظوظ بالفعل.. وأنه كان من المفترض أن يغادروا هم صباح اليوم لكن إطارات الشاحنة كانت في حاجة للتغيير وبالتالي تأخروا..

خلاصة القول إنني قضيت ليلتي معهم نلعب الورق مرة أخرى.. حتى غلبني النعاس.. وفي الصباح صعدت معهم على متن الشاحنة للتحرك.. كانت هذه المجموعة من الأشخاص أكثر حركة منا.. ربما بسبب العدد.. كانوا جميعا أحياء ومتوافقين.. كانوا أيضا يعاملونني بود لم أر مثيلا له بين الدهابة.. وأنا الذي كنت قد صنعت صورة مسبقة عن الدهابة أنهم صعاب المراس.. عندما انطلقت الشاحنة توقعت أن يعود الجميع للنوم ذلك أننا سهرنا لوقت متأخر في الليلة السابقة لكنهم حيروني بنشاطهم.. أمسك أحدهم بطبلة وراح يقرع إيقاعات مختلفة.. والبعض منهم يغني.. والبعض يتسامر..

بعاتي "ناداني أحدهم بعد أن لاحظ أنني لا أشاركهم بأي شيء سوى النظرات.."

"ما رأيك أن تترك أب شنب وتعمل معنا... أنظر... ألسنا رفقتنا أكثر بهجة منهم"..

هلل بعضهم صارخا بحماسة.. لم يتوقعوا مني ردا.. ربما لأنهم لم يكونوا جادين في طلبهم فضحكت..

أخبرنا... هل ما زال يوقظكم قبل أن تشرق الشمس.. ويطنطن في كل تأخيرة.. كأنه صاحب مزرعة وأنت عبد عند أبيه"..

ابتسمت من وصفه..

تقريبا"..

"ييييك... كان الله في عونكم.. لا أفهم كيف يصبر عليه كاجومة والأطرش.. وأنت لأنك جديد لكن حين تضيق ذرعا به صدقني سنرحب بك... هو يظن أنه ضغط علينا عندما طردنا من بئره لكن ها الحمد لله فتحت عندنا.. والذهب موجود"..

"لماذا؟... هل طردكم هكذا دون سبب؟"..

تحمس شخص آخر للرد على سؤالي فصرخ..

"من غير أي سبب.. أقصد ليس سببا لنا دخل فيه.. أعني أن العمل تضاءل في فترة ما ولم يعد مردود ما نجده مجزيا للجميع لذا كان يلومنا على التقصير وقرر تهجيرنا وحين يقل العدد ستزيد أمواله فهمتني... لكن هذه ليست طريقة.. الحياة معاشرة... ملعون أبو الذهب الذي يدعوك لفعل مثل هذا... أه لكن دعك منا.. ربما نكون أنا والشباب جدد عليهم وقتها.. لكن حتى من كانوا يعملون معه بالسنين تركوه"..

هنا انتشى عقلي لسماع كلامه.. ابتلعت ريقي وحاولت استدراجه..

"من تقصد هل هناك غيركم... سمعت عن مولانا ذاك ما اسمه الشاذلي... هل هناك غيره؟"..

نعم نعم مولانا... وذاك الآخر.. الصامت... ماذا كان اسمه؟"..

التفت نحو صديقه ما كان اسمه ذاك الذي ذهب للسحالب وفتحت عليه..

"ود الجبل - تكلم صديقه فكدت أقفز من مكاني- كان اسمه مروان نعم... ذاك المحظوظ.. أرأيت المشاكل التي بدأها أب شنب نفعت الناس كلهم إلا هو.. مروان هذا يقولون إنه ذهب للسحالب بعد أن تركنا.. وهناك فتحها الله عليه"..

"كيف؟... كيف عرفتم أنه وجد شيئا ربما عاد بيدين خاويتين؟"..

"اسمع معروف طبعا الذي يعود من السحالب ومنها يفضل العودة مباشرة لأهله يعني أنه وجد شيئا يريد الحفاظ عليه... مروان ذاك عندما عاد كان يحبو من شدة التعب.. كان يريد العودة مباشرة إلا أن أقنعه البعض بأن يرتاح قليلا.. ولم يرض أن يقضي ليلته سوى مع فريقه القديم كاجومة والأطرش أعتقد أنه كان يثق بهم.. ومولانا أيضا كان وقتها موجودا لم يرحل بعد.. كل ذلك يعني أنه يملك ذهبا يخشى عليه من السرقة هذا واضح جدا"..

"وما الذي حدث له بعد ذلك؟" كنت متلهفا..

"لست واثقا.. أظن أنه عاد لأهله.. ماذا سيفعل غير ذلك"..

أحسست بأن السمكة أفلتت من صنارتي.. لم يعد بإمكاني طرح أي سؤال دون أن أكون واضحا.. ولا يبدو أن أحدا يعرف ما قد حل به فعلا.. أكملت استدراجي لهم..

"وتتخيل أن أب شنب والشباب تركوه هكذا دون أن يأخذوا ضريبة منه.. لم يأخذوا أيا من الذهب الذي حصل عليه؟ هذا غير معقول"..

تلفت حوله لرفاقه.. ثم سدد لي نظرة فيها الكثير من خيبة الأمل..

"لا لا طبعا... صحيح أن أب شنب بخيل وكل ما يهمه هو الذهب.. لكن.. حتى هو ما كان ليخون هذه الثقة.. أتعلم أن الرابط الذي بينك وبين أخوك هذا هو شيء لا يهدم من أجل المال.. لو انعدمت هذه الثقة فما كان السوق ليوجد من الأصل.. لكان هذا المكان ساحة حرب فقط"..

أكمل الشخص الذي بجواره..

"ولنفترض أن أب شنب ساورته الفكرة.. ما كان ليقدم عليها في وجود البقية.. ناهيك عن وجود مولانا.. أنت لم تعرف مولانا ذاك كان حادا كالسيف في مثل هذه الأمور"..

زادت إجاباته من حيرتي.. إن كانوا لم يؤذوه فعلا فأين ذهب مروان.. هل يمكن أن يكون تعرض لشيء بعد خروجه من السوق وفي طريقه لدنقلا مثلا.. ربما لم يعثر على البيضة وجن جنونه لا أحد يعلم شيئا.. لا.. أب شنب والبقية يعلمون على الأقل.. هم الحلقة المفقودة/ لابد أن أعرف الحقيقة منهم.. هم وحدهم يعرفون..

"هل من المحتمل أنه عاد للسحالب مرة أخرى... أعني مروان ذاك هل يمكن أنه عاد طمعا في المزيد؟"..

"ربما... ولكنه سيكون جنونا منه.. الحالة التي جاء بها كانت لا تسمح بأن يذهب للدبة ناهيك عن أن يعود للسحالب"..

"هل تلك السحالب خطيرة كما يقولون؟"..

"أووووه دع سامر يخبرك عنها هو الوحيد الذي ذهب منا... سامر... سامر"..

أوقف الفتى الذي كان يضرب على الطبل إيقاعاته المبهجة فبدا على المغنين الاستياء..

"يريد أن يعرف كيف هي السحالب"..

"لا تذهب إليها هذا كل ما تحتاج لمعرفته".. نطق بكلماته وعاد يطرق لكن هذه المرة إيقاعا بطيئا ليس فيه أي فنيات.. رتيبا كضربات الساعة.. نظرت له بتحد..

"أنت عدت منها... أي سوء قد يصيبني لو ذهبت"..

صدرت عن البعض ضحكات.. وبدا أن سامر نفسه تحفز ليحكي أهواله.. ليبدو كبطل عائد..

قل كلامك هذا بعد أن تقضي أسبوعين دون أن ترى مخلوقا.. هكذا لوحدك هائما في الصحراء كالعفريت.. تمر عليك لحظات تصرخ لوحدك.. وتضحك لوحدك كالمجنون.. هذا أبسط شيء.. أما الخوف الدائم من التوهان.. ونفاد المؤنة والماء.. فهذا شأن آخر تماما.. يا أخي أنا كنت آكل مرة واحدة في اليوم.. وأتفقد المؤنة عشر مرات.. فقط لأتأكد أنني ما زلت أملك الأكل.. أتوضأ مرة واحدة في اليوم.. وآخر أيام كنت أتيمم.. مهزلة.. والحمدلله أن السيارة التي استأجرتها لم تتعطل.. كنت مستعدا لدفع أي مبلغ كان للحصول على سيارة جيدة فلو لا قدر الله تعطلت.. انتهى.. الموت فقط.

توقف سامر عن الكلام وهو ينفض يديه.. لم أكن قد حصلت على ما أريده منه بعد..

"وما فائدة كل هذا؟ ألم تجد شيئا بعد كل ما مررت به"

تدخل أحدهم مقاطعا "هذا الجزء الذي يمغص حقا.. أخبره" قال مشيرا لسامر..

جال سامر بنظراته بيننا ثم أخذ نفسا عميقا "طبعا.. البحث هناك مسألة حظ بالكامل.. تنتشر في كل اتجاه آملا أن تجد بقايا جبل أو

صخور على الأرض.. إن وجدتها فنسبة أن تحصل على الذهب كبيرة جدا بين الصخور.. كنت أتفقد كل شيء حين أنزل على قدمي.. وفي الليل تبدأ الأشياء الغريبة بالحدوث!"

"أشياء غريبة؟!" قلت مستفسرا ومحبطا من الدراما الرخيصة التي يبديها سامر..

"نعم.. ترى أشخاصا يسيرون ولا يلتفتون إليك أبدا.. ليست لهم ملامح.. تسمع أصوات.. تخبرك أن تتجه هناك حيث الذهب.. أشياء لا تصدق أقسم لك لكنني كنت واثقا أنها تحدث.. في مرة رأيت طائرا أسود.. نزل ينبش بمنقاره قربي.. وكان له صوت طفل يتحدث.. ذاك كان أكثر شيء حقيقي رأيته في حياتي هل تتخيل!"

كان ينظر إلي ينتظر تجاوبا.. فهززت له رأسي في شرود.. أفكر في كل الاحتمالات المنطقية لما يقوله.. ربما كان هذا السامر مجنونا.. أو كاذبا.. أو كي لا أظلمه ربما أصيب بضربة شمس أدت إلى كل هذا الهذيان.. مع ذلك الضغط النفسي من كونه وحيدا هناك..

أكمل سامر "في آخر يومين قبل أن أعود وجدت بينما أنا أنقب حول كومة صخور أربع قطع ذهب.. أربعة.. كانت ملقاة هكذا على السطح تلمع.. يااه الحالة التي أصابتني.. صرخت وبكيت وسجدت شكرا.. تمنيت لو أن أحدا يراني في تلك اللحظة.. كنت أسعد إنسان في هذه الأرض.. لن أحتاج لشيء آخر في حياتي هكذا فكرت.. حملت الذهب وانطلقت عائدا.. لم أنم.. كنت أحسب الأمتار التي تفصلني عن البيت.. آآآخ" أطلق سامر صرخته الأخيرة وهو يضحك بحرقة "اسألني أين ذهب كل ذلك؟"

"ما الذي حدث؟"

"الملاعين.. أولاد الحرام.. أولاد الـ.. آآآخ.. في طريق العودة اعترضتني شاحنة حكومة.. تخيل في كل تلك المساحة تسلطوا علي ووجدوني.. نزل منها مسلحون.. جلف.. فتشوا السيارة شبرا شبرا حتى وجدوا الذهب وأخذوه.. قالوا إن هذا حق الحكومة وأن التنقيب هناك ممنوع.. أولاد الحرام"

دخلنا بعد ذلك في نقاش مطول عرفت فيه أن هؤلاء المسلحين هم قوات الدعم السريع.. وأن الذهب هو أحد طرقهم لتمويل تسليحهم.. أخبرني بعد ذلك أحدهم سرا عن الحالة التي عاد بها سامر.. وأنه تشاجر مع المسلحين أولئك.. وامتلأ بالكدمات والجروح.. وعن الإسهال الذي أصابه لعدة أيام عندما عاد إليهم.. والذي لا مسوغ له سوى الغبنة التي كانت تتملكه.. لم يكن يأكل فقط يشرب الماء ويتمنى الموت وينحب نادبا حظه..

يا لها من ألعوبة هذه الحياة.. تطوح بأحلامك أمام عينيك.. تسمح لك بمداعبتها بأصابعك حتى تعتاد عليها.. بل تتركك تتملكها لثوان.. فقط لتسحبها منك في النهاية تاركة ذلك الشعور السافر بالخديعة..

-14-

لم أطل بقائي لدى الجيران بعد أن نزلنا من الشاحنة.. وكبادرة مني قمت بمساعدتهم على إنزال حمولتهم ثم انطلقت لبئرنا.. كانت شمس الظهيرة ضعيفة على غير العادة والسماء كانت تحوي بعض الغيوم التي تزين السماء.. عندما وصلت خيمتنا عرفت أن لا أحد موجود.. وأمام الخيمة قدر يغلي ببطء.. تفحصته فبدا أنه قد وضع قبل مدة وشارف الطعام على النضوج.. انتظرته عدة دقائق.. ثم أبعدته عن النار.. عدت لأبحث في الداخل وبين الجوالات عن عدتي.. الأزميل والمطرقة والمصباح ولما وجدتهم توجهت للمدخل.. كنت أعلم أنهم هناك في باطن الأرض.. وأن علي النزول..

أخذت نفسا عميقا وأنا أنظر للظلمة في الأسفل.. ثم أمسكت بطرف الحبل وبدأت النزول.. بدا كل شيء مكررا.. حطت قدماي على الأرض المستوية ورحت أتسلى بصوت الصدى بينما أخطو للأمام.. اجتزت الفوهة محنيا ثم وصلت المفترق فسمعت صوت الطرق إلى اليسار.. فتبعته.. كان الضوء المنبعث من مصباح الرأس تنبها لهم أن أحدا قادم فتوقف الضرب.. ولما وصلتهم بدا عليهم الاستغراب..

الوحيد الذي بدا عليه بعض الحماسة لرؤيتي كان كاجومة.. أما أب شنب فقد بدأ بتوبيخي على التأخر وجزم مرارا أنهم انتظروني لساعات ولم آت.. ضغطوني لأفصح عن الأسباب التي تغيبت من أجلها.. نظرت لكاجومة بطرف عيني كنت آمل أنه لم يأت على ذكر أوش الله.. كذبت وأنا أخبرهم أنني اضطررت للعودة للدبة لمهاتفة أهلي.. تذرعت بأن والدتي على وشك الدخول لعملية جراحية..

وكيف هي الآن؟" سألني أب شنب بعد أن هدأ قليلا.."

"بخير"..

أخذت بعد ذلك مكانا أشاروا إلي به.. حيث ينتهي عرق الذهب.. وبدأت عملي.. عدة ضربات لأحدث الشرخ.. ثم أثبت الأزميل فيه وأطرق بكل قوتي.. كانت في الأجواء سيمفونية من طرقاتنا.. وبعض الهمهمات على فترات متباعدة.. سألوني إن كنت تفحصت القدر في طريقي للنزول فأخبرتهم أنه جاهز.. ظللت شاردا بعد ذلك.. لم أتفوه بأي كلمة حتى انتهينا.. تناولنا الطعام قبل الغروب بساعة ربما.. بعد ذلك نزلت وحيدا لجمع الصخور التي كسرناها.. طفقت على إدخالها للجوالات ونقلها قرب المدخل لأقوم بعد ذلك بربطها بالحبل بينما يسحبها أب شنب للأعلى.. أخذت أنا تلك المهمة الشاقة كتعويض على تغيبي.. وللحظة بينما كنت أنحني للالتقاط صخرة انتبهت أنني أضعت تماما ما أنا هنا لفعله.. وأنني بطريقة ما تقمصت الدور أكثر من اللازم..

في المساء.. بعد أن أنهينا النشاطات المعتادة من نقل للصخور ثم الشاي ثم العشاء استلقيت في الخيمة متكئا على حقيبتي التي وجدتها.. كانوا يتحركون من حولي.. يتحدثون.. أب شنب يعزف.. كاجومة يضحك.. الأطرش يخط على الرمال شيئا.. كنت أنقل عيني بينهم.. كأنني أتابع نملا يتحرك على الأرض.. بفضول.. أريد أن أعرف غايتهم..

رماني كاجومة بعود فأصاب جبهتي..

"هيه أين أنت؟!.. أنت غريب اليوم.. ما بك؟"..

"لا شيء"..

"هيا نحن سنذهب للعب الورق قلت إن الشباب وصلوا.. أنا أنتظرهم منذ يومين.. هيا أطرش"..

"لا اذهبوا أنتم أنا متعب اليوم"..

راقبتهما يخرجان.. كاجومة والأطرش.. فتحا مدخل الخيمة فهب نسيم من الخارج.. طلبت منه أن يرفع قماش المدخل ويربطه للأعلى كي يسمح للهواء بالدخول.. ألقيت نظرة خاطفة على أب شنب.. فوجدته ينظر لي هو الآخر.. كأنه يريد أن نتحدث عن أي شيء وألا أتجاهله.. عدت أنظر لأعلى الخيمة.. وللمصباح الأصفر المعلق.. بعد عدة دقائق من الصمت الكثيف استسلم أب شنب أطلق كحة ثم تحدث خيل إلي أن صوته يرتجف..

"لقد ذكرتني بوالدتي حين توفيت رحمها الله قبل سنتين.. كنت أعمل هنا ولم يصلني الخبر إلا عندما عدت للدبة.. كان مفاجئا"..

صمت قليلا ثم استدرك على عجالة..

"أتمنى أن تشفى والدتك بسرعة وربنا يكتب لها عمر طويل.. لكن لو أردت العودة فيمكنك ذلك ومكانك هنا محفوظ لقد أثبت نفسك"..

لثوان لم أفهم عما يتكلم ثم تذكرت ما قلته لهم سابقا.. تفاجأت من كلامه.. كان لا يزال متكئا على جنبه.. وينظر للأرض..

"رحمها الله" قلت..

هز رأسه وأكمل..

"مشكلة هذه الحياة.. أنها غير متوقعة.. وهنا.. هنا تنسى الكثير من الأشياء المهمة في سبيل الحصول على الذهب.. لا أحد يريد هذا لكنه الوضع.. لو كان الأمر بيدي لما بقيت هنا ساعة زيادة"..

لا أدري لما كنت متحاملا عليه.. لكنني شعرت بكلامه مبتذلا وأنه يردد فقط كلمات سمعها.. سألته من باب اللباقة..

"هل لديك عائلة يا يوسف؟"..

دبت الحياة في صوته أجابني وابتسامة ترتسم على شفتيه.. ولأول مرة لم يبد لي خسيسا..

"نعم.. متزوج وعندي ولدان.. حسن الكبير في الصف الخامس والصغير علي في – حاول التذكر- في الثاني.. لا لا في الثالث.. أرأيت ليس جيدا أن ينسى الشخص أعمار أبنائه.. مشكلة.. لا أراهم كثيرا ولكنهم تربوا جيدا يمكثون مع أمهم في بيت جدهم.. وخيلانهم وخالاتهم يربونهم.. هذا أفضل"..

أخرج من محفظته صورة لهما.. غريبة بعض الشيء لأنها أخذت في أستوديو.. فكانت تخلو من الحياة لا تليق بأطفال.. كانا يشبهانه.. أعدت إليه الصورة وراقبته يبتسم قبل أن يعيدها للمحفظة.. فكرت وأنا أنظر لأطراف الخيمة فوجدتها نافذة لأعرف ما يمكن وما لا يمكن أن يفعله أب شنب..

"هل تفكر فيما سيحدث لهم لو أصابك مكروه؟"

"دائما.. ولكنني لن أتركهم معدمين.. فأنا قد وفرت لهم بعض المال.. هناك أرض باسمي لم أكمل بناء البيت فيها لكن.. "

"ولكن لماذا تظن أن مكروها قد يصيبك هل تظن أن أحدا قد يؤذيك؟"

"لا ليس هذا أنت ترى الموت هنا أسهل ما يمكن أن يحدث لك.. يمكن أن أموت غدا.. تسقط علي صخرة وينتهي الأمر"..

"أتتذكر قريبك الذي تشاجر في السوق.. هل يحدث كثيرا أن يختلف الدهابة؟"

"طبعا.. كثيرا جدا"..

"وهل يقتلون بعضهم؟"

"نعم يمكن"

"ولكن لماذا؟ لماذا؟"

"الناس يفعلون أشياء كثيرة من أجل المال"..

"وهل هناك من تستطيع الوثوق به هنا.. كل الناس يحبون المال.. هذه هي المشكلة أليس كذلك فلنفترض أنك وجدت كمية كبيرة من الذهب.. هل ستثق فيمن حولك.. في أنا مثلا"..

بدا أن أب شنب تاه في أسئلتي وشكك فيما أريد أن أصل إليه..

"فليأت ذلك الذهب أولا ولا تقلق حينها سأقتسمه معك لو اضطررت"..

غاظتني إجابته المتهربة تلك فضغطت عليه أكثر..

"ماذا لو كان العكس.. لو كنت أنا من حطت يداه على ذهب ماذا ستفعل أنت؟"

"لا شيء سأدعو أن يوفقك الله ويزيدك.. ماذا عساي أفعل"..

"أنت رجل طيب فعلا.. لكن ما أظن أنني كنت سأفعل مثلك.. ربما انتظرتك لتنام مثلا وأسرقك وأهرب.. أو لو استعصى الأمر كنت سأربطك وآخذ الذهب عنوة.. سأفعل ما بوسعي كي لا أؤذيك لكن لو اضطررت فلا مفر.. أعني كما تعلم الحياة فرص ولا يمكن تضيع بعضها حتى لو اضطررت لخيانة شخص كنت تعمل معه.. بالذات لو كنت مكانك.. أعني أن لدي أبناء علي أن أهتم بهم وضربة كبيرة ستريحني.. ومعها ستقل فرص أن يتربى أبنائي دون والدهم"..

حملق في أب شنب.. بدا عليه الاستغراب وربما القلق.. كان صمتا استمتعت به أنا شعرت أنني قد تملكت عقله.. هبت ريح إلى داخل الخيمة محملة ببعض الرمال.. فنهض هو ليغلق المدخل.. ثم وبتردد سألني إن كنت أريد المصباح.. فلم أرد عليه.. أغلقه وهو يتمتم..

"غدا أمامنا يوم شاق.. آمل أن يعود الغبيان باكرا كي لا نتأخر"..

لم تفتني نبرة التوتر التي اكتست صوته.. ربما عنى أنه يأمل أن يعودا باكرا كي لا نبقى لوحدنا مدة أطول.. وهناك شعرت بأنني ربما أقترب من مروان..

-15-

استيقظت قبل الجميع هلعا من الكابوس.. الحلم الذي رأيته قبل عشرين سنة يتكرر كأنني لم أبارح مكاني.. الكابوس الذي كان له دور كبير في لون جلدي الأبرص.. لابد أن الوقت نفسه الآن.. لابد أن الخريف قد أتى ما زلت أتذكر اليوم الذي بدأ فيه هذا..

وقتها كنت قد بلغت خريفي الحادي عشر.. مستلقيا كما اعتدت على سريري في حوش البيت.. أنظر نحو السماء الزرقاء تتوسطها الشمس.. وألاحق بعيني طائرا بعيدا.. يحوم كالبندول.. جيئة وذهابا.. إلى أن دخلت تلك الغيمة الصورة.. بدأت من زاوية نظري فانتهت لها.. رمادية.. عريضة كأنها موجة عاتية.. راقبتها تقترب أكثر من قرص الشمس.. ولاحظت ظلها الذي سقط على جدار البيت عن يساري.. وسار ببطء.. حتى استقر علي.. أدركت حينها أن الخريف قد وصل..

كنت أسمع خطوات أمي في الحوش.. تسير نحو المطبخ ومنه إلى الصالة.. وتمر بي متجهة لغرفة والدي القصية.. تفعل أشياء لا ألقي لها بالا.. جاءتني في لحظة ما ومدت لي نقودا.. قالت بصوت يشبه الاعتذار "خذ.. أحضر صلصة وخبزا حتى أعد الغداء".. راقبت جفنها يرتفعان من منتصف عينها حيث يستقر الحزن.. إلى ارتفاع كامل حين يصيبها الهلع..

ما هذا؟ سألتني وهي تمد أصابعها الدافئة أسفل فكي الأيمن.. ومسحته نزولا إلى عنقي.. هل سقطت؟

لا.. قلت بشيء من اللامبالاة.. غير عابئ بما تشير إليه.. وربما كنت أحاول بهذه الطريقة أن أخفف من روعها.. لأنه أيا يكن ذاك.. فهو لم يؤلمني حينها..

عبثا كانت محاولتي.. أخذتني من يدي نحو غرفة والدي المحرمة.. وانتهكت حرمتها بأن فتحت الباب على مصراعيه دافعة إياي أمامه.. قربانا.. لفحتني الرائحة المربكة.. خليط السدر والفصد والنعناع.. رفعت والدتي رأسي للأعلى بهدوء.. فطاوعتها.. شاعرا بكل جوارحي أنها لحظة الراحة.. اللحظة التي سينحران فيها عنقي.. وأخيرا.. أغمضت عيناي.. أحسست بيد والدي الخشنة تمس النقطة.. تماما حيث ينبض الشريان..

تمتم والداي بأشياء.. ما هذا؟.. لا يبدو جرحا.. لا تقلقي.. ثم شعرت بيد مبتلة تحاول إزالة شيء ما.. ثم انتهى.. أبعدا أيديهما عني فعدت أنظر إليهما.. ستزول قال والدي..

ثم مد لي بمرآة من الطاولة.. فقربتها نحو وجهي.. كل شيء كان طبيعيا عدا تلك البقعة الرمادية.. أو البيضاء المحمرة.. أو القيء أسفل فكي.. كان لونا دخيلا على سمرتي.. وضعت أصابعي عليه.. فأحسست ببرودة الثلج.. كأنني ألمس شيئا خاليا من الحياة..

بالطبع.. كان لابد أن أحضر الصلصة والخبز.. فالحياة أولويات.. وبطبيعة الحال كنت أتلمس فكي في الطريق للدكان.. وفي البيت.. وأثناء الأكل.. بينما قال والدي أن علي ألا ألمسها فهو العارف بمثل هذه الأمور.. لكنه أخطأ.. لم تزل البقعة.. ولم يغير توقفي عن لمسها من انتشارها.. وظهور أخواتها..

بعد عدة أيام من ظهور أول بقعة قررت والدتي أخذي لطبيب من نوع آخر.. النوع الذي يرتدي المعطف الأبيض.. وهو ما لم تكن زيارته شيئا طبيعيا في الثمانينيات.. خصوصا في دنقلا.. ألبستني أمي ملابس العيد الفائت واتجهنا للمشفى.. هناك.. قابلنا طبيبا فحصني دون أن يبدو عليه الخوف أو التقزز.. وهو ما أعجبني فيه.. ثم تحدث بطريقة

مدير المدرسة حين يلقي خطابا على شرف والي دنقلا.. كلام كثير.. وغير مفهوم.. عن أن عوامل مختلفة تتسبب في ظهور المرض.. والذي هو في الأصل وراثي.. وقد لا يظهر إلا لأشخاص معينين..

عوامل مثل ماذا؟ -سألته أمي- كي أبعده عنها..

حولت نظري للطبيب الذي باعد بين يديه مشيرا إلى عددها.. قال إن الأمر ليس واضحا حتى للأطباء أنفسهم.. لكن التعرض للشمس أو قلته قد يسبب ذلك.. و بعض الالتهابات الحادة قد تزيد من حجم البقع.. والتوتر أيضا عامل مهم..

"لا أظن أنه أصيب بالتهاب في الفترة الماضية.. لكنه -قالت والدتي وهي تنظر إلي بحزن- لكني أسمعه في الليل يئن كأنه يرى أحلاما"..

شعرت تلك اللحظة بالانتهاك.. كيف عرفت أمي بأحلامي.. تخيلت أنها تعرف أيضا بمحتوى كوابيسي.. داهمني حزن مقيت..

"ربما يكون هذا ما أثار المرض.. نعم"..

"وهل هناك علاج؟"

حك الطبيب صلعته.. وشعرت من وجهه الممتقع أنه محرج..

"ما يحدث لابنك هو أن جسمه ينتج مضادات حيوية من المفترض بها أن تحميه.. لكنها تهاجم خلاياه الصبغية.. بصورة أخرى.. هو يهاجم نفسه.. لكننا لا نستطيع إخراج هذه المضادات من جسمه لأننا سنعرضه للخطر"..

وبهذا.. ومع مرور الوقت تحولت تدريجيا لبقرة صغيرة كما أسموني في المدرسة.. وتغيرت نظرات الاتهام التي كنت أشعر بالكل يوجهها نحوي لنظرات الشفقة المذلة.. وللصدق.. مشكلتي لم تكن في البرص أبدا.. بل للذكرى التي يحملها..

وها أنا أعود لأتقهقر نحو الماضي.. للأحلام التي ربما أوصلتني إلى هنا.. إلى صحراء النوبة.. مستلقيا كما كنت قبل عشرين عاما منتفضا من الكابوس.. أشعر أنني ما زلت طفلا تائها وضعيفا..

وكعادتي تجاوزت الحلم وتوضأت مصليا الفجر.. ثم قمت بإشعال النار.. بحثت حتى وجدت بقايا الغاز ورششته على الحطب الموجود.. جلست قرب النار أتدفأ.. تساءلت عندما أجد مروان هل سيكون هذا كافيا لأشفى.. هل سأرتاح.. أو هل سيعود إلي ذلك الجزء الذي فقدته داخلي والذي سيصلح كل شيء.. سيذهب الشرود.. والتردد.. وسأكون سعيدا.. ربما لم يعد ذلك ممكنا.. ولكن ما زال علي أن أجده على الأقل حتى لا يسوء الوضع.. حتى أستطيع النظر لوجهي دون أن تغمرني الرغبة بالبصق علي..

أكملت اليوم على نحو طبيعي.. كنت أثناء تكسير الصخور أشعر بحرارة ما تعتمل في صدري وودت الانفجار في أي كلمة يقولها أحدهم.. ربما لهذا عندما انتهينا وجلسنا بعد الغروب في الخيمة لم أتمالك نفسي.. فقاطعت حديثا كان يدور بينهم..

"هل كان هناك شخص اسمه مروان عمل معكم؟"

الصمت في الصحراء مضاعف.. كأنه ضغط سالب يسحب الموجودات.. وسؤالي كان انفجارا..

"لماذا تسأل؟" قال أب شنب وهو يضبط أوتار الطمبور.. متفاديا الإجابة..

"عندما كنا في السوق تعرفت بأحدهم.. فسألني مع من تعمل.. أخبرته.. ثم حكى لي قصة مروان.. هل هي صحيحة؟"

"ما هي القصة أصلا؟"

نظرت لكاجومة الذي تظاهر بأنه بعيد عن الحوار.. أما الأطرش فكأنه توقف عن البحث..

"إنه وجد كمية كبيرة من الذهب في السحالب.. وأنه.. وأنه قتل"..

"هذه سخافة.. لم يقتله أحد"..

كنت قد أضفت الجملة الأخيرة لحاجة في نفسي..

"إذا هو لم يجد أي ذهب في السحالب؟!"

"هو لم يعد أصلا.. لا أعرف من أخبرك هذه القصة لكنه يخرف.. أو ربما أراد أن يضيع زمنه فيك"..

تدخل كاجومة مؤيدا.. نعم لا تصدق كل ما يقولونه..

"إذا ما قصة مروان هذا؟"

أنت نشيط هذه الليلة.. غريب أمرك.. لكن دعني أقل لك حاله مثل حال أي شخص قرر الذهاب للسحالب.. إما مفقود أو مات أو عاد مجنونا ولم يتذكر من هو أصلا.. المهم أنه ذهب للسحالب ولم يسمع عنه أحد بعدها.. "

لاحظت وجوههم مكفهرة.. الأطرش نفسه كان يبدو عليه الاشمئزاز مما يقال.. منذ ذلك اليوم تعززت شكوكي بهم.. هم يخفون شيئا.. على الأغلب أنهم آذوا مروان.. عندها تسللت خيبة الأمل إلى قلبي بسلاسة.. ووجدت مكانها جاهزا وفسيحا فتربعت فيه.. كنت أكذب.. على نفسي.. وكنت في نفس الوقت مصدقا للكذبة.. العثور على مروان هو ضرب من الجنون ورطت نفسي فيه..

تعاملهم تغير معي بعد ذاك النقاش.. أصبحوا يتفادون الكلام معي.. وحتى تكليفي بالمهام.. ففهمت أنهم يستعدون للاستغناء عني..

مما يعني أنني فشلت.. هذه المسرحية التافهة والتي حاولت لعب دور البطل فيها فاشلة.. لم يصدقها أحد.. لم يكن لها معنى.. كنت أشعر بالضيق من السذاجة التي تصرفت بها في إتباعي لهذا الهوس.. مؤمنا لأيام بأنه سيقودني نحو الخلاص..

لكني واصلت رغما عن ذلك في تأدية واجبي.. كان أمامي خيار الاستلقاء في الخيمة حتى نعود.. وهذا سيترك في قلبي إحساسا بالذنب كوني آكل وأشرب وأنام دون أن أعمل.. وهو شيء مضحك حين تنظر إليه.. لكن ما باليد حيلة.. لذا نزلت كل صباح حاملا أزميلا ومطرقة.. وفرغت الكثير من نفسي في الصخور..

لم أعد أتحدث مع أحد.. ولا مع نفسي.. لم أعد أفكر.. كنت يدا تطرق الصخور..

-16-

في إحدى المرات.. خرجت من البئر يدفعني العطش.. صعدت حيث البراميل وشربت حتى ارتويت.. ثم خطر في بالي أن أريق كل الماء.. هكذا.. للاشيء.. وعندما اقتربت من مدخل البئر.. أقشعر بدني.. واستثار حتى آخر شعرة فيه.. فكرت.. أن أسحب الحبال عنهم.. هممت نحو حبل.. أمسكته واقتربت من الحافة لأتأكد إن كان أحدهم موجودا.. رحت أراجع الفكرة من جديد.. سأسحب الحبال.. وسيعلقون في الأسفل للأربعة أيام القادمة.. سيدفعهم العطش للتكلم.. سأعرف ما حل بمروان.. ثم..

توصلت إلى نتيجتين إما أن أدعهم يموتون.. أو أخرجهم ويقتلونني.. ربما لا تكون النتيجة بتلك البشاعة.. لكن أي من الخيارين لم يبد جذابا.. لكن الفكرة استحكمت.. كانت تقول ستعرف بما حل بمروان.. وفي هذا يكمن الخلاص مهما كانت العواقب..

رحت أحوم حول البئر كذئب.. تارة أفكر في أنني إن فعلت هذا ستكون لي اليد العليا.. سأحصل على ما أريد.. فأهم بسحب الحبال.. وفجأة تبرز النسخة الرعديدة مني لتمسك بزمام الأمور محتجة بالتعقل.. ونبذ العنف.. وتقول ماذا لو سألتهم بكل لطف.. استمررت على هذه الحالة دهرا.. وفي النهاية..

"اللعنة على كل هذا" همست لنفسي وأنا أسحب الحبلين عنهم.. ثم جلست أنتظر على الحافة.. كان قرارا اتخذته ولتذهب العواقب للجحيم.. أحسست ببعض الغثيان وأنا أجبر نفسي على الهدوء ساحبا أنفاسا عميقة.. ضممت قدمي لصدري وطوقتهما بذراعي.. سمعت أصوات قريبة تصدر من الفوهة فانحنيت لأنظر.. لم يتضح لي شيء فأشعلت مصباح الرأس.. حواف الصخور.. الجرف.. ولا شخص في

الأسفل.. عدت لمكاني أحسب الوقت.. ربما ساعة أخرى ويقررون الخروج.. وعندها سنرى ما يحدث.. حين يأتي ذلك الوقت لن يكون هناك طريقة للتراجع.. نظرت لأطراف الحبال بقربي.. متلوية كالأفاعي..

كان ظلي يستطيل على الرمال حتى فاتني طولا.. تناقصت الحرارة تدريجيا بينما الشمس تتوارى بين التلال مرسلة وهجا بنفسجيا وأحمر وأزرق في السماء.. كانت لوحة بديعة.. رحت بعقلي إلى دنقلا.. كنت أرى من مكاني والدي يدخل حاجيات الدكان إلى الداخل استعدادا للإغلاق وقبل أن ينصرف للبيت يحاسب ست الشاي ويزيد على الحساب المطلوب منه.. في البيت.. أمي تجهز الغداء.. أراها تقلب شيئا على النار.. ذا رائحة طيبة.. حادق.. مليء بالبهارات.. تنادي أختي إيمان.. التي تتذمر في طريقها.. تطنطن وهي تساعدها.. تتسع الصورة لأرى بيت مروان.. وأهله.. ابنته غفران.. ثم تتسع الصورة أكثر لأرى النهر.. يسير بتباطؤ لكن بثبات نحو الشمال.. أسير عكس التيار.. أجدف.. إلى أن أصل للخرطوم.. لشقتي ذات الغرفة الواحدة والمطبخ والحمام.. مؤسفة لكن مريحة.. أتذكر الطمأنينة التي تصاحبني فيها.. كصومعة راهب.. أخرج من البيت نحو الجريدة راكبا المواصلات.. الزحام.. الأصوات.. الروائح.. لا تزعجني هذه الأشياء الآن كنت أراها عشوائية.. لكنها فقط الحياة..

جفلت للصراخ القادم من الفوهة.. ثم تبعه الصدى مترددا داخل صدري.. يهزني.. سحبت النفس وزفرت معه كل الصور التي تفحصتها.. وشيئا فشيئا عدت إلى الصحراء.. إلى الرمال.. إلى الغسق.. سمعت الصراخ مرة أخرى هذه المرة ميزت الكلمة..

"البعاااااتي"..

اقتربت من الفوهة ناظرا للأسفل على ضوء المصباح.. كانت الأجساد الثلاثة في الأسفل.. كاجومة يحجب بيده الضوء عن عينيه ويصرخ.. "الحبال.. أين ذهبت.. أنزلها"..

أغلقت مصباحي واكتفيت بالوهج المتدفق من القمر.. كنت أراهم صغارا.. "لا.. لا أستطيع فعل ذلك" قلت بصوت هادئ وحرصت أن يكون مسموعا..

"ماذا؟.. لم أسمعك؟" جاءتني صرخة أحدهم خمنت أنه أب شنب..

"قلت لك سأنزل الحبال بعد أن أعرف ما حدث لمروان" صرخت بصوت واضح هذه المرة.. وانتظرت في صمت مطبق ردهم..

"هل جننت؟ هذا ليس وقت المزاح.. هيا أسرع نحن جياع ومرهقون.. وعطشى.. وليس لدي أي قدرة لاحتمال هذا.. هيا هيا أنزل الحبال بسرعة" تولى أب شنب الحديث باسمهم..

"أنا لا أمزح.. قلت لك لو أردتم الخروج عليكم أن تخبروني الحقيقة أولا"..

"أي حقيقة أيها الأبله.. ما الذي تريد أن تعرفه خلصنا"..

"مروان ياسر.. ود الجبل.. ما الذي حدث له؟"..

لم أجد ردا من أحد.. لكنني تحت ضوء القمر رأيت أجسادهم تقترب من بعضها.. أجزم أنهم يتناقشون عن شيء ما.. ثم انتبهت أن أحدهم جلس على الأرض متكئا على جدار البئر.. كان كاجومة.. يبدو أنه أذكاهم فقد علم أن الأمر لن ينتهي بسرعة كما تخيلوا..

"وما دخلك بمروان أنت.. من أين تعرفه؟" أكمل أب شنب بعد أن أنهوا تحاورهم.. لابد أنهم سيماطلون.. فكرت مليا في الإجابة..

"لا يهم من أين أعرفه.. فقط أخبرني الحقيقة ما الذي فعلتموه به"..

"يلعن أبوك على أبو الحقيقة التي تريدها-تدخل الأطرش- اسمع.. لو لم تنزل الحبال الآن فأقسم أنني سأكسر رأسك هذا عندما أخرج.. أتسمع.. أنزل الحبل الآن"..

لم أرد على استفزازه.. كنت أنتظر أن يجيبني شخص بعقل فتركته يكمل لعلعته..

"يا غبي.. إلى متى تظن أنك ستبقينا هنا كلها يومان أو ثلاثة ويعود عبدو بالشاحنة ويخرجنا وما الذي ستفعله أنت حينها ها.. لن يكون أمامك مهرب.. بل أقول لك اهرب.. من الأفضل لك أن تهرب.. الصحراء واسعة وستموت كالكلب وحيدا"..

"سنرى من سيموت كالكلب في النهاية".. قلت معلنا ثبات موقفي.. كنت في الحقيقة آمل أكثر منهم ربما أن ينتهي الأمر بسلاسة.. كان كاجومة ما يزال جالسا عازلا نفسه عن كل هذا..

"لقد قلنا لك-تحدث أب شنب- مروان ذهب للسحالب لأنه كان يريد المزيد من الذهب ولا نعلم ما حدث له.. فقط اختفى"..

انفعلت.. هذا الأحمق يستغفلني وما يزال مصرا..

"أنت تكذب.. الكل يعلم أنه عاد من السحالب.. وأنه كان يريد العودة للدبة.. لكن شيئا حدث له.. وأنه كان معكم حتى آخر لحظة فما الذي فعلتموه؟"..

"لا شيء لم نفعل له شيئا.. ربما عاد لأهله ما الذي يدريني"..

كان الإحباط يعتمل في صدري فصرخت فيه..

"لقد استجوبتك الشرطة وتعلم أنه مفقود.. وتعرف ما الذي حدث له.. وإن كنت لا تريد اللحاق به فمن الأفضل أن تقول الحقيقة"..

وقف لثوان دون رد.. تخيلت عينيه الرماديتين تبحلقان في.. يفكر كيف عرفت أن الشرطة استجوبته..

راقبت ظله يجلس هو الآخر.. وبقي الأطرش يجوب في الأسفل يركل الحجارة مع كل خطوة.. جلست أنا الآخر على الطرف أراقبهم صغارا كالنمل.. سأعرف الحقيقة لا مفر الآن.. لقد تدحرجت الصخرة من أعلى الجبل ولا شيء سيوقفها.. لن يخرجوا من هنا حتى أعرف ما حدث لمروان.. ولو لم يتكلموا فليموتوا ولتمت معهم الحقيقة.. رحت أعبث بالرمال وبحصى صغيرة بين يدي.. أشعر بالوقت يمر بطيئا وثقيلا.. كالنهر يسير للشمال.. لكنه يصل وأنا سأصل.. الجوع كان قد بدأ ينخر في بطني.. والعطش كذلك.. كنت أستطيع الذهاب في أي وقت وإشباع حاجاتي تلك بينما هم في الأسفل.. لابد وأنهم يتألمون.. جيد.. سيتكلمون في النهاية كل ما علي فعله هو الانتظار..

نهضت وأحضرت لنفسي كأس ماء وخبزا وقدر العدس بالكامل.. جلست قرب الفوهة آكل.. آملا أن الرائحة تصلهم.. فكرت للحظة ماذا لو كانوا لا يعرفون شيئا حقا.. فغصت اللقمة في حلقي.. ازدردت ريقي ببعض الماء ثم انحنيت لأتفحص حالهم.. جفلوا مباشرة لدى رؤيتي.. وسمعت أصوات تحركات سريعة.. أشعلت مصباح الرأس لأجد كاجومة يحاول التسلق وقد نشب يديه وقدميه في جدار البئر.. مرتقيا عدة أمتار للأعلى..

انزل صرخت فيه انزل..

لكنه لم يستمع إلي وأكمل خطوة للأعلى.. فزعت للحظة وتلفت حولي.. ركضت سريعا حيث جوالات الصخور.. حملت بعضها بكلتا يدي وعدت.. كان لا يزال معلقا.. ويحاول الصعود.. ببطء..

"انزل يا كاجومة وإلا رميتك.. انزل"..

على الضوء رأيت وجهه ينظر نحوي.. متوسلا.. قبضت الصخرة بقوة ورفعتها عاليا مطلقا تحذيري الأخير..

لم يستجب.. فرميت الصخرة بكل قوتي.. ارتطمت قرب أصابعه فأطلق صرخة.. لم تصبه فرفعت الصخرة التالية..

"هذه المرة سأصوبها على رأسك الكبير.. ولن أخطئه.. انزل"..

تكلم وهو لا يزال متشبثا مكانه "هل كنت تكذب علينا طوال هذا الوقت؟.. أنت لم تأت هنا لتعمل.. جئت لتبحث عن مروان"..

انزل قلت لك..

"ولن تعود حتى تجده؟ ولكن ماذا لو لم تكن هناك طريقة لإيجاده.. ماذا لو لم تعجبك الحقيقة" بدأ بالنزول للأسفل حتى حطت قدماه على القاع وتكلم وهو ينظر للأرض.. "ماذا لو أخبرناك الحقيقة وانتهى بنا المطاف لأن نموت في النهاية.. أو ماذا لو متنا دون أن نتكلم.. لن تستفيد شيئا"..

"لماذا ما الذي أنت خائف من قوله.. ماذا فعلتم؟"..

"نحن لم نقتله.. لكن كيف ستصدقنا"..

"ما الذي حدث؟"..

لم يجبني كاجومة رأيته يفعل الشيء الذي اعتاد أن يفعله طوال الوقت.. خلع شاله ووضعه فوق صخرة واستلقى..

-17-

قضيت الليل ساهرا.. جالسا ومتوترا.. كلما سمعت صوتا انحنيت أراقب البئر لأجد أنهم نيام.. كنت أنا الجلاد ولكنني أقاسي أكثر منهم.. ربما كنت مشبع البطن ومرتويا.. لكن الراحة كانت معهم هناك في الأسفل.. في لحظات كان يغلبني النعاس وتسول لي نفسي أن أغلق عيني لثوان.. فأفعل.. لا أعلم كم من الوقت يستمر ذلك لكنني كنت أستيقظ فزعا على خيال ما.. مرة والأطرش يطوح مطرقته لهوي بها على رأسي فأجاهد لأجحظ بعيني.. فأنتبه أنني ما زلت وحدي.. وما إن أهدأ.. حتى يغريني النعاس مرة أخرى فأغلق عيني.. لقد مت في تلك الساعات آلاف المرات.. وبأبشع الطرق الممكنة.. بينما كل الوجود من حولي كان هادئا ومرتاحا..

في لحظات أكون مستيقظا ومتقد الذهن.. تحوم الأفكار في رأسي.. والخطط.. كي أدفعهم للتكلم.. فكرت في أن أوقظهم كنوع من التعذيب لكن بالطبع سيدخلون أكثر إلى البئر وتنتهي المحاولة الفاشلة.. وسأبدو في موقف ضعيف.. أفكر أيضا فيما قاله كاجومة.. أن الحقيقة قد لا تعجبني.. ربما قتلوه وبالتالي لن أسمح لهم بالخروج.. لهذا فقد أنكر هو أنهم قتلوه.. ولكن كيف لي أن أصدقهم.. كنت أرى المعضلة في كلامه.. وفي الورطة التي وقعنا فيها جميعا..

سألت نفسي إن كنت سأتركهم للموت لو اعترفوا بقتل مروان؟.. وحتى لو تركتهم.. ربما سيتمكنون من الصمود لأربعة أيام حتى يحضر عبدو.. وعندها سيخرجون.. وأموت أنا..

لكن هذه ليست مشكلتي.. لا يهم من يعيش ومن يموت.. أنا أريد أن أعرف الحقيقة.. وعندها فليحدث ما يحدث..

نهضت وتمشيت حول الفوهة.. درت حول الفوهة عدة مرات.. ببطء.. ولما أصابني الملل تأكدت من أنهم نيام مرة أخرى وعدت للخيمة.. أحضرت بطانية لأن البرد قد تزايد.. ملأت علبتي بلاستيك بالماء وأخذتهما معي.. عدت للجلوس أنتظر أن تشرق الشمس ويستيقظوا لأرى ما سيحدث.. وعندها سأتصرف تبعا لذلك..

"بعاااتي"..

أيقظني صراخ أحدهم.. فتحت عيني لأجد أن الشمس قد أشرقت وارتفعت في السماء.. شعرت بالغضب من إهمالي وأسرعت نحو البئر..

كان كاجومة واقفا ينظر نحوي.. نريد ماء.. صرخ بغضب عرفت ذلك من الصوت لأن ملامحهم لم تكن ظاهرة حتى مع ضوء الشمس..

"هل ستخبرني بما حدث لمروان؟" قلت بحزم بعد أن تمالكت نفسي وتأكدت أن كل شيء لا يزال تحت السيطرة.. نظريا..

"لم نقتله قلت لك"..

"ماذا حدث؟"..

"أستعطينا الماء أم ستتركنا نموت"..

"فلتموتوا"..

ركل كاجومة شيئا في طريقه ثم عاد للجلوس.. ذهبت أنا بعد ذلك لشرب الماء وشعرت بالضيق فعلا كوني أستمتع به وأتركهم للعطش.. لكنني كبحت تلك المشاعر.. عدت أتمشى حول الفوهة.. بتؤدة.. لا شيء يمكن فعله.. فقط الانتظار.. أجلس وأنهض وأدور.. تأخذني الأفكار وأنا أنظر للبعيد.. للأفق.. خط الرمال الأصفر يندمج مع زرقة السماء لكن جسما أسود يتمايل أفقيا..

جسم أسود صغير ومن حوله تتوهج الرمال.. ثم انتبهت للفجيعة.. تلك الجهة حيث يخيم الجيران..

ضيقت عيني وحجبت أشعة الشمس عنهما براحة يدي.. فرأيت الجسم يكبر شيئا فشيئا.. وظلال يديه تطوح من كلا الجانبين.. لا شك أن أحدهم قادم.. حملت الغطاء.. فظهرت زجاجتا الماء اللتان أحضرتهما لنفسي.. قذفتهما لهم في الأسفل.. كانت محاولة مني لإسكاتهم.. راقبت كاجومة والأطرش يلتقطانها ويشربان.. ثم أب شنب.. تبادلنا النظرات لثوان قبل أن أتركهم.. أسرعت لداخل الخيمة حاملا الغطاء.. رميته في الداخل.. ثم انفجرت الأفكار في رأسي.. كصنبور ماء انكسر ولم يعد من طريقة لإيقاف التدفق.. انكشف كل شيء.. ما العمل.. علي أن أهدأ.. تجولت في الخيمة وعندما حطت عيناي على قدر الطبخ حسبته الخلاص.. خرجت به من الخيمة نحو جوالات الطعام.. عدت أنظر للخيال في الأفق وهو يقترب أكثر.. أبدل نظري بينه وبين مدخل البئر.. برقت في رأسي صورتي وأنا أضربه بالمطرقة على رأسه.. الدم يسيل على الرمال.. لو فعلت هذا ستسوء الأمور أكثر..

عندما شارف على الوصول نهضت موجها كل جوارحي نحوه.. وكأنني هنا لاستقباله.. ابتسمت..

"أووه الجيران"..

كان هذا سامر.. البطل العائد من السحالب.. عليه اللعنة.. جاء يرتدي فانلة داخلية بحمالات ولا تبرز من يديه أي عضلات.. ذلك النحيل اللعين.. ابتسم هو الآخر.. وانتبهت إلى المسجل في يده..

"يا بعاتي.. كيف الأمور.. اسمع أريد بطاريات لهذا المسجل.. لقد نفدت.. وأنت تعرفني لا أعيش بدون الطرب"..

هل هذا وقته أيها الحقير.. لم أعرف بما أجيبه.. وضعت القدر جانبا ثم اقتربت منه حاملا المسجل.. فتحت مدخل البطاريات.. لأجد البطاريات القديمة قد بهت لونها.. وآثار العض تغطي كل إنش فيها..

"دقيقة- قلت له - لا أظن أنه توجد بطاريات ولكن.."

توجهت نحو الخيمة.. وفي طريقي كنت أثبت نظري على البئر.. وقبل أن أدخل الخيمة.. تأكدت أن سامر باق مكانه.. ما إن دخلت وانفردت بنفسي حتى عاد الهلع.. أين يضع الأطرش اللعين مسجله.. جلت بنظري.. الأغطية.. بنطال أخضر مرمي.. حقيبة.. هذه حقيبتي ركلتها جانبا.. رفعت غطاء الأطرش لم يكن تحته شيء.. أشعلت المصباح الأصفر بيأس.. وكأن ضوء الشمس المتسرب من المدخل ليس كافيا.. تحدثت بصوت عال من التوتر كي أبقي سامر اللعين مشغول..

"لقد كان هنا.. ذاك المسجل.. أين ذهب.. في الصباح كنا نستمع إليه.. أغنية محمود عبدالعزيز.. ما اسمها.. آآآ"

ركلت العديد من الأشياء.. قبل أن أسمع صوت سامر.. وهو يدخل الخيمة..

"قل لي الكلمات وسأعطيك اسمها.. كان يجول بنظره هو الآخر في المكان"..

"آآآ.. من القلب والدندناا.. أتاري في جواااي نغم"..

أطلق سامر ضحكة مدوية فتوقفت أنظر إليه.. كان يتقلب على الأرض ممسكا بطنه..

"يخرب بيتك.. دمرت الأغنية.. ألا تعرف أغنية من القليب والدندنا!!"

"لا يهم" قلت مدافعا.. لا يعرف هذا اللعين أنني في هذه اللحظة لا أبالي بالتراث السوداني كله..

قلبنا الخيمة عدة مرات دون جدوى.. فانتبهت أنني أطلت المدة دون تفقد البئر.. خرجت وأنا أنظر نحو الفوهة.. تخيلت أن يخرج كاجومة في أي لحظة..

"لم لا نسأل الأطرش -قالها سامر وهو يخرج- هم في البئر أليس كذلك؟"..

ازدردت ريقي.. من أين جاءني هذا اللعين.. تفاديت السؤال لأنه لم يكن في حاجة للجواب ورحت أجوب المكان بحثا عن المسجل.. خلف الخيمة حيث توجد الإطارات.. وجوالات الحطب والغاز.. وجدته كان يرقد أعلى أحد الإطارات.. أخذته بسرعة ودرت من جديد.. لأجد اللعين متجها نحو البئر..

"ساااامر" صرخت فيه..

جفل وهو يلتفت نحوي.. فرفعت المسجل مغتصبا شفتي ليرسما ابتسامة.. جاء نحوي بخطوات بطيئة..

"حمدا لله.. ها"..

فتحت المسجل من الخلف أيضا لنتفاجأ بأن البطاريات ليست من نفس الحجم..

اللعنة بعد كل هذا..

لا بأس خذ المسجل معك "قلت وأنا أمده له.."

"حقا.. ماذا سيقول الأطرش.. أنت تعرف لا أريد أن يضربني ذاك الضخم الغ" قاطعته مباشرة بود مفتعل..

"لا لا.. لا تقلق.. سيأخذه في أي وقت آخر"..

نعم.. يستطيع أخذه الليلة عندما تأتون للعب الورق.. أين كنتم بالأمس لم تأتوا.. خائفون ها..

"لا لا فقط التعب" كان باديا على إجاباتي أنها مبرمجة.. وأن عقلي ليس معه أبدا.. توجهت نحو القدر لأعلن له بطريقة ما أن ينصرف.. خيل إلي للحظة أنني أسمع صراخا.. فنظرت نحوه لأتأكد إن كان سمع شيئا "لكننا سنأتي الليلة حتما"..

نظر لي.. ثم للبئر.. ورفع كتفيه مستسلما "حسنا" راقبته يجر قدميه أخيرا نحو بئرهم.. كان مشيه ثقيلا ككلب جاثم على صدري..

انتظرته حتى ابتعد بضعة أمتار.. ثم ركضت نحو البئر بأقصى سرعتي.. وفي يدي صخرة.. جاهز لرميها بكل قوتي.. سيكون قريبا هكذا فكرت.. وعندما أرميها عليه سيهوي مسافة طويلة.. وربما يموت.. فوهة البئر تكبر مع كل خطوة.. ثم المكابح كي لا أسقط.. أخفف سرعتي وأنحني.. الملاعين.. كانوا مستلقين كما تركتهم..

أدركت بعد هذه المغامرة التافهة أنني لا أملك الوقت.. هم يملكون متعة الانتظار هكذا حتى تفرج بينما أنا علي أن أجد حلا يدفعهم للكلام.. لا التوسل.. ولا التجويع يبدو ذا نفع.. كنت في حاجة لطريقة أسرع وأكثر فاعلية.. من يعلم قد يأتي أحد الجيران ليلا وينتهي كل شيء.. ونهاية بشعة كما أظن.. جلست مدلدلا قدمي على الحافة أنظر إلى الفئران الثلاثة.. وهم يبدو عليهم التعب والتوتر حتى لو حاولوا إخفاءه.. فتقييد الحرية شيء مهلك.. ليس النوم على الأرض مشكلة إن كان باختيارك لكنه لو كان فرضا يصير أكثر إيلاما..

"ها هل أنتم مستعدون للحديث الآن؟"..

لم أجد جوابا وهو ما زاد استفزازي.. حسنا.. بسيطة جدا.. عدت نحو الخيمة وأحضرت أحد إطارات السيارات وزجاجة البنزين والكبريت.. أتيت بهم قرب حافة البئر وانحنيت نحوهم مجددا.. حرصت على أن يروني وهذا ما كان.. فتحت زجاجة البنزين ببطء ورحت أسكبه حول الإطار.. في كل شبر.. ومن ثم أشعلته.. مباشرة اشتعلت النيران على شكل حلقة كبيرة.. وتصاعد الدخان برائحة المطاط.. صحيح أن الهواء لم يتجه للأسفل لكن الرائحة وصلتهم رأيتهم الثلاثة يفزون من مضجعهم..

"ماذا تفعل يا مجنون!" تعالى صراخ أب شنب..

وجدت نفسي أصرخ أنا الآخر وكأن للإطار المحترق صوتا.. أنتم اضطررتموني لهذا.. قلتها وأنا أرمي بالإطار للأسفل.. اصطدم بالجدران عدة مرات وما زال محتفظا باللهب في حلقة.. حال اصطدامه بالأرض تطاير بعض الشرر.. وسمعت صراخهم من الأسفل.. كاجومة بالذات.. ثم حجب الدخان المتصاعد عني الرؤية.. كان يرتفع كثيفا.. أسود برائحة كريهة.. مصحوبا بهواء سموم.. تركتهم على هذه الحال وانطلقت مسرعا نحو براميل المياه.. ملأت سطلين كبيرين.. وعدت.. دلقت السطل الأول على مصدر الدخان.. فجاءت لحظة انقطاع بسيطة للنيران والأبخرة.. فألحقته بالآخر لكن النار لم تخمد..

"ارم لنا الحبال.. .. أرجوك" سمعت صراخ أحدهم.. لشخص على وشك الموت..

هلعت أكثر.. ركضت نحو البراميل.. وأحكمت إغلاق أحدها ودحرجته.. أمسكت بيدي على جهة الغطاء كي لا ينفتح.. يتمايل مني وينحرف باتجاه مختلف.. فأعود للتوجيه.. استغرقت بعض الوقت حتى وصل الفوهة والدخان لا يزال يتصاعد.. فتحت البرميل.. وتركت

الماء ينهال كالشلال.. ثوان وتوقف الدخان الأسود عن التصاعد وحل مكانه بخار ماء أبيض..

كانت اللحظات التالية مربكة.. كنت خائفا أنتظر أن يبرز أحدهم من بين تلك الأبخرة ويقول إنهم أحياء.. خشيت أن يتأذى أحدهم فعلا.. وفي نفس الوقت أردتهم أن يخافوا.. كانت عيناي ترتجفان في محجريهما تتابعان في الأسفل.. أشعلت ضوء المصباح.. فانتبهت للإطار في الأسفل.. ذائبا.. ومتآكلا كجيفة كلب ميت.. انتظرت هناك آملا.. وشيئا فشيئا بدأت أفقد الأمل.. ماذا لو اختنقوا؟.. هل سيغمى عليهم لدقائق ويفيقوا.. أم أن الأمر انتهى؟!.. كنت أنتظرهم كسفينة إنقاذ.. والوقت كان ثقيلا كالزيت..

"هيـه.. كاجومة!.. أطرااش..

هيـه يووسف!.."

لم أجد أي رد ففكرت في النزول إليهم.. لكنني لسبب ما شعرت بأنهم يحاولون خداعي.. المدة التي تركت فيها الإطار محترقا لم تدم أكثر من عشر دقائق على الأكثر.. والمساحة في الأسفل ليست بتلك الضيق.. لكن الهواء.. الهواء في الداخل قليل..

سمعت أصوات.. سعال.. وأن يصل صوت سعال إلى هذا العلو يعني أن رئتي ذلك الشخص تكاد تخرج من مكانها.. ذلك السعال كان بمثابة الصرخة الأولى للرضيع.. مليئة بالحياة.. وبالنسبة لي كانت فرحتي توازي فرحة الأب.. أنا لم أزهق روحا بعد.. راقبت تحركاتهم تحت غشاوة.. واحد.. اثنان.. أين الثالث! أين هو.. وأخيرا ظهر الجسد الثالث فتنفست الصعداء.. ارتميت على ظهري أنظر للسماء.. كانت هناك سحابة من الدخان تتلاشى تدريجيا..

"مااااء" سمعت نداءهم.. عدت لأتفحصهم من جديد.. كانت الشمس قد بدأت بالغروب فأشعلت مصباحي وعلى ضوئه رأيت السواد يغطي ملابسهم ووجوههم.. منظر تعيس..

"ماء.. ماء"..

ملأت لهم زجاجة ماء واحدة ورميتها لهم.. وشاهدتهم يتنافسون عليها.. أثار منظرهم شفقتي.. لكن لابد من طرق الحديد وهو ساخن.. "ها.. الآن هل ستخبروني ما فعلتموه بمروان؟"

شعرت.. بمدى حقارتي في تلك اللحظة.. وتخيلت نظراتهم لي وهم هناك في الأسفل.. يملؤها الحقد.. حقد مبرر.. لم أجد سوى الصمت المؤلم.. كنت أتألم فعليا حتى صعب علي ازدراد ريقي.. استجمعت ما تبقى لي من قوة وصرخت..

"سأمهلكم ساعة.. لا يزال هناك المزيد من الإطارات" حاولت أن أبدو متماسكا أثناء حديثي..

حين انحنيت نحوهم بعد مرور الساعة.. وحتما بدوت لهم كشيطان بذلك الضوء المنبعث من رأسي..

سألني كاجومة..

"هل تريد معرفة ما حدث فعلا؟.. لك ما شئت.. لقد كان مولانا محقا بعد كل شيء.. سيطاردنا ما فعلناه للأبد"..

-18-

عندما اخترقت جدار الأشجار الميتة.. وتكسرت أوراقها تحت قدمي جاءني نسيم خانق.. كانت له رائحة ذكرتني بمعقم الجروح.. أو للتدقيق.. عندما شممت رائحة المعقم بعد سنين طويلة ربطتها بتلك الرائحة.. ربما كان الخلل في أنفي.. أو عقلي.. اقتربت من الضفة.. رأيت مركبا يتحرك مع تيار النهر.. وددت لو يتركني أختلي بزين وحدي.. جلست على الأرض ورحت أتذكر ملامحه.. صوته.. اللحظات التي قضيناها معا.. ثم تدريجيا راح عقلي يختار المواقف بعناية.. ذكريات لم أعلم لها وجودا حتى تلك اللحظة.. يربط بينها خيط متين واحد يتشكل من أخطائي نحوه.. ذهلت لعدد المرات التي أبكيته فيها.. التي شتمته.. ظلمته.. هو حقا كان مظلوما.. وأخوتي تجاهه تتمثل في كوني جلادا..

سمعت تكسر أوراق خلفي أخرجني من دهاليز عقلي.. التفت.. فتفاجأت بمروان.. وهو أيضا تفاجأ بوجودي لأنه وقف هناك فاغرا فمه.. اقترب لكنه لم يجلس.. التقط حصى من الأرض وراح يرميها في النهر.. نظر مروان نحوي وحجر كبير في يده.. سألني.. "هل تتذكر قصة البيضة؟".. ظللت أراقبه لم أقوى على الرد فأكمل "ذلك المزارع.. والبيضة الذهبية.. وذاك الحاكم الذي طلبها ليعفي عن القاتل"..

"نعم تذكرت.. ما بها؟"..

"هل تظن أنها موجودة؟"..

عدت أنظر للنهر حيث رمى مروان الحصى.. حقا سيكون من الجميل لو أنها موجودة..

"لا أعلم"..

صمت مروان لوهلة كأن الإجابة لم ترقه.. ثم جلس قربي في صمت بقينا نراقب النهر الغدار..

في الصحراء.. كان القمر مكتملا لدرجة لم تسطع معه أي نجمة.. صفحة سوداء يتوهج وسطها القمر وحيدا ملقيا بضوئه مباشرة على البئر.. وفي الأسفل كانت الإضاءة تسقط على جزء من كاجومة.. قدماه وجذعه حتى بداية عنقه.. أما وجهه فكان في الظل.. كنت أرى أيضا يدي أب شنب فقط.. أما الأطرش فقط كان جل الضوء عليه.. كان صوت كاجومة واضحا يلحقه الصدى في الكلمات التي يعلو فيها صوته..

أما أنا فقد كنت مشدودا في كل عضلة من جسدي.. كقط ينشب مخالبه في شجرة وهو ينظر للهاوية..

"عندما عاد مروان من السحالب-رفع كاجومة صوته- كان متعبا.. ومتهالكا حتى ظننا أنه سيموت من فوره.. لقد وجده مولانا قرب دكاكين الأكل يحاول شراء طعام له.. لم يكن في جيبه أي نقود.. ومن شدة تعبه لم يعرف مولانا حين رآه.. أحضره للخيمة.. فأطعمناه.. وسقيناه.. وبمجرد أن انتهى من ذلك نام.. حتى ذلك الوقت لم نكن نعرف ما الذي حل به أو وجده هناك.. لا شيء.. وربما ما كنا لنعرف بأنه أي ذهب لولا ما حدث.. ولا أعرف إن كان ذلك السارق الذي اقتحم الخيمة كان يعلم أن مروان يحمل تلك البيضة أم أنه مجرد حظ.. لكن حدث ما حدث.. في الليلة تلك استيقظنا على صراخ مروان.. وضجة ما.. وما إن أشعلنا الضوء حتى فر ذلك الجسد تاركا مروان يتلوى على الأرض وبيده تلك البيضة تلمع.. كانت أكبر من حجم البيضة الطبيعية.. تملأ راحة اليد بأكملها.. ملساء.. شيء غريب.. نسينا كلنا أمر ذلك السارق حين حطت أعيننا عليها.. ومروان لم يدع

لنا مجالا فأدخلها في قميصه لتستقر في بطنه.. ثم نظر نحونا.. كأنه يقول فليحاول أحدكم كي يموت"..

صمت كاجومة بما يكفي لأن يزدرد ريقه فقط لكن وللهفتي أحسست بالوقت دهرا..

"طبعا ما كنا لنسرقه لا أعرف لم نظر لنا هكذا.. شعرت بالخيبة.. لكن ربما لو كنا سرقناه لكان أفضل.. على كل بعد أن رأينا تلك البيضة لم نعد للنوم.. كيف لنا.. جلسنا جميعا ومعنا مولانا في ذلك الوقت نستمع لمروان وهو يخبرنا كيف حصل على ثروته تلك.. قال إنه لم يترك شبرا في السحالب إلا وبحث فيه مستخدما جهاز المعادن ذاك.. وأنه لم يترك جبلا إلا وتفحص كل شق فيه.. لأيام وأيام.. وأنه وجد مغارة في جبل.. بعد أن تعدى رمالا تتوهج ليلا.. وأنه دخل تلك المغارة ليلا وسار هكذا ببساطة ليجد البيضة تلمع فأخذها وخرج.. لكنه يقول إنه وأثناء خروجه بدت له كل الصخور في الداخل مشعة لكنه لم يعرها انتباها"..

لقد أقنعناه أن يأخذنا للمغارة تلك..

"ماذا تعني بأقنعناه؟.. لا يوجد أي سبب يدفعه للعودة.. أين المغارة؟ أين؟"

"غرب السحالب.. نحن لم نضمر له شرا.. لكنه في نفس الوقت كان يعلم أنه لن يصل للدبة بل لن يخرج من السوق حيا إن لم يكن له سند يحميه.. ونحن كان شرطنا أن يأخذنا للمغارة"..

"أيها الملاعين.. صرخت فيه"..

"نحن لم نجبره على شيء.. كان بإمكاننا سرقة ذهبه واقتسامه لكننا لم نفعل" تكلم أب شنب..

"وأين هو الآن؟"..

"لقد ذهبنا للسحالب.. بقينا هناك نبحث عن المغارة لأربعة أيام ثم تعطلت السيارة.. وفي يوم عصفت بنا ريح وضاع هو منا.. بحثنا عنه كثيرا.. لا تظن أننا كنا سعيدين بما حدث.. لقد كانت خسارة بكل معنى الكلمة.. الماء كان ينفد واااا.. ماذا تتوقع منا أن نفعل.."

"أنت تكذب.. لا سبب يدعوه للعودة من جديد.. ما كان ليعود.. أنتم قتلتموه"

"لو كنا قتلناه فأين البيضة التي كان يملكها.. انظر لحالنا!.. لم نستفد أي شيء.."

شعرت بالدوار وأنني سأسقط في البئر.. أغمضت عيني وتخيلت مروان هناك وسط العاصفة وحيدا بعد أن تركوه.. جاءني صوت كاجومة من الأسفل:

"لقد كان خطأ.. خطأ لا يغتفر.. لكننا لم نتعمد ذلك"..

-19-

مروان مات لا شك في هذا الآن.. تخيلته هناك هائما وحيدا في الصحراء.. بين الرمال.. يا له من مشهد مكرر.. ترى ما كانت آخر فكرة مرت في عقله؟ هل لعنني؟ هل بدا له عبثيا ما فعل؟ أن يطلب الغفران على شيء لا يمكن تغييره.. أم أنه ظل معاندا بكبريائه حتى آخر لحظة أنه فعل ما يتوجب فعله.. هل قتلته أنا ببذرة الذنب تلك.. نقلتها إليه فراحت تنمو كجذور السنديان الفاسدة.. توغلت فيه حتى لم تعد حياته تطاق..

ترى كيف كانت حياته أصلا.. هل كان سعيدا؟.. ربما.. لكن لو كان كذلك لما فعل كل هذا.. لكن لماذا؟ لم يستطع تجاوز الأمر وحسب.. هو يملك كل شيء.. زوجة.. ابنة.. عائلة.. مال.. ألم يستطع بعد كل هذا أن يتجاوز.. هل ظل الشعور بالذنب ذاك مستترا في الأعماق هناك.. بين الظلال.. يتحين لحظات الخروج.. حين يمرض ويبدو مثيرا للشفقة تحت الأغطية يخرج الذنب ليقول إنه يستحق هذا المرض.. أو عندما يتعثر بحجر يفكر في أنه يستحق ذلك لأنه حثالة.. وحين يرى ذبابة تحط على ذراعه.. تفرك قدميها القذرتين.. ثم يخطر له وهو يراقب ذلك أن أقدامها أنقى منه.. هل راودته تلك الأفكار مثلي.. ألن أستطيع التجاوز أنا أيضا مهما فعلت..

من كان يظن بيننا ونحن أطفال نتسلل من المدرسة لنسبح في النهر أن كل هذا سيحدث.. عندما جاء ذلك السيل وجرفنا آخذا عمر وأخي زين.. من انتبه أننا أيضا غرقنا.. أنا ومروان.. ولم نخرج بعد..

زحفت لأنني كنت أثقل من أن أمشي.. نحو الخيمة.. وارتميت هناك في الداخل.. لم يعد يهم إن خرجوا من الحفرة وقتلوني.. أو قتلتهم.. لم يعد يهم.. لا يهم إن حضر الجيران وعرفوا ما فعلت.. لا يهم.. كنت

فقط في حاجة لأن أغمض عيني.. وأنسى كل شيء.. وصلت حبوا.. دخلت الخيمة وتكورت تحت أحد الأغطية مغمضا عيني.. وهناك تذكرت تلك الليلة.. حين كنا صغارا أنا وأخي زين يسعنا سرير واحد..

كانت تلك الليلة التي أفسد فيها زين كل شيء حين تبعنا من المدرسة نحو النهر.. ووجدنا نسبح.. وحاول كطفل في السابعة أن يدخل معنا بكامل ملابسه.. فانتبهت له.. أعتقد أنني غليت النهر بفورة غضبي تلك.. صرخت فيه وخرجت أنهشه وأنهره ليخرج أمامي.. كان كل خوفي وغضبي في تلك اللحظة من أن تكتشف أمي ما نفعل.. في تلك الليلة كنت مغتاظا كطفل في التاسعة حرم من أن يخرج للعب.. وزين كان السبب.. فقمت بركله أثناء نومنا.. متعمدا.. وهو لم يفتح فمه بأي شيء.. فازداد غيظي منه وكذلك ركلاتي.. حتى شعرت بإحداها تخترق بطنه.. أحسست بالخوف.. بعدها نهضت لأتفقد حاله.. فوجدته ممسكا فمه بكلتا يديه.. والدموع تنهمر على وجنتيه.. ربما كان المسكين يفعل ذلك منذ أن بدأت ركلاتي.. بدلت جهتي لأستلق قربه.. همست وأنا أمسح على بطنه "آسف"..

"بطني تؤلمني" قال بصوت مكتوم وأتذكر شهقته تلك..

كررت اعتذاري كاذبا "لم أقصد"..

"لماذا؟" سألني بحرقة..

"أنت دائما تريد أن تفعل ما أفعله.. لماذا لا تلعب مع من هم في سنك؟"..

"مع من؟ لا أحد"..

"أنت لا تجيد السباحة"..

"لن أسبح فقط سأدخل الماء وأبقى قريبا من الشاطئ"..

سكت..

"أرجوك"..

"ستبقى حيث تستطيع الوقوف؟"

"نعم.. أُقسم بالله"..

كان علي أن أوافق.. كطفل لا يفكر كثيرا في العواقب.. ربما لأن زين حنث بذلك القسم.. لكن لا لا الخطأ خطئي في النهاية فأنا الأخ الأكبر وكان لابد أن..

لا يهم.. علي أن أغمض عيني.. وآخذ نفسا عميقا.. وأكبت كل هذا.. ما أسوء ما سيحدث.. سيخرج كل هذا غدا على شكل بقع البرص.. غدا.. غدا سأعرف ما علي فعله..

حالما فتحت عيني في الصباح أدركت ما سأفعله.. نهضت بتصميم وكأن ثقل ما حدث كله زال عني.. ليس لأنني تعافيت تماما.. لكن لأن موت مروان كان احتمالا متوقعا بالنسبة لي.. ولكن الطريقة الحقيرة هي ما آلمتني.. لكن الآن.. أنا أعرف ما حدث له تماما.. هو ليس هنا وبالتالي فوجودي هنا لم يكن له أي مبرر.. ولا إبقاء أولئك الحثالة في الأسفل.. بالطبع.. فكرت في احتمالية أنهم كذبوا علي.. لكن مما قاله الجيران ومدى معرفتهم بأب شنب ومن معه لابد أن يكونوا صادقين.. كما أنهم لو كانوا هم من قتل مروان وأخذوا تلك البيضة.. ومن حجمها الذي وصفوه.. لما كان هناك سبب يدفعهم للعمل لمدة سنة على الأقل.. لكنهم لا يزالون هنا.. معدمين..

حملت مطرقتي تحسبا لما سيحدث.. وسرت نحو البئر.. الشمس في الأعلى كانت الشاهد الوحيد على ما سأفعله وحتى هي بدت بحرارتها تقول لا تفعل.. كان خيال تركهم ليموتوا قد داعب مخيلتي كثيرا لكن

لا.. ستتعقد الأمور أكثر مما هي.. فكرت أيضا بإخبار الجيران بكل شيء.. وأن أطلب من أحدهم إخراجهم من البئر وأبقى لديهم هناك.. ليحموني منهم.. لكن الفكرة كانت مقززة.. هي موجودة في عقلي لكنها مقززة..

انحنيت نحو البئر.. كانوا مستيقظين يرمقونني بنظرات متشككة.. يحاولون تخيل ما سأفعله بهم.. ظللنا هكذا ننظر لبعضنا مدة من الوقت.. حاولت الاستمتاع بمنظرهم وهم يقاسون.. وهم بعد كل هذا يستحقون أسوء مما فعلته بهم.. لكن ما باليد حيلة.. أمسكت بالحبل الملقى على الرمال.. رفعته.. فركته بيدي قليلا.. ثم رميته لهم.. شاهدت الدهشة ترتسم على وجوههم.. ثم أب شنب يلتقط طرف الحبل ويصعد.. يليه كاجومة.. أخذت أنا عدة خطوات للوراء.. وحبست أنفاسي..

انتظرت.. أتلمس المطرقة التي ثبتها خلف ظهري.. وقوع البلاء فعلا أهون من انتظاره.. خرج أب شنب أولا وارتمى على الأرض.. يلتقط أنفاسه.. يبدو أن الجوع والعطش قد أنهكهم.. جيد.. تبعه كاجومة الذي لم يغير فيه البقاء في الأسفل شيئا.. وحين وصل الأطرش بدا وكأن أب شنب تواطأ معه فانتفض واقفا.. أخذ الأطرش أول خطوة تجاهي.. وعلى وجهه المغطى بآثار الدخان ارتسمت أعتى النظرات الشيطانية..

"أنا أحذرك صرخت فيه"..

"لقد قلت لك سأهشم رأسك ما إن أخرج"..

استمررت في التراجع.. هو يقترب بتوجس.. وأب شنب إلى يساره.. نظرت نحو كاجومة الذي كان يتفرج.. عيناه فيهما تشف لما سيحدث لي..

في تلك اللحظة جاءني الأطرش مسرعا.. ضخما وشرسا ككلب حراسة.. انتظرت.. ممسكا المطرقة خلف ظهري.. طوق بيديه

الغليظتين عنقي.. فهويت بالمطرقة على وجهه.. وسقطنا.. سمعت صراخه يعلو وهو يتلوى أرضا.. لمحت الدم يسيل قبل أن يجثم أب شنب على صدري.. انقطعت أنفاسي.. حاولت تحرير يدي لكن لكمة على عيني أفقدتني التركيز.. ثم أخرى من اليسار.. طنين في أذني.. التنفس ازداد صعوبة.. استطعت تحرير يد من تحت أب شنب ورميت لكمة هوجاء نحوه.. صراخ الأطرش يتعالى.. كاجومة يقترب.. شعرت بأنني أخطأت..

"تريد قتلي أنا.. أناا!!.. أب شنب يردد وهو يطبق على عنقي"..

بدأ الدم يحتقن في رأسي.. ولم تعد هناك أنفاس.. انتابني ضعف وتراخى جسدي.. كانت الروح تخرج شيئا فشيئا.. أو ربما هو الوعي.. فكرت في إنها النهاية.. فهلعت.. وجاءتني القوة لأتلوى.. وأتحرك.. وأحرر يدي وأضرب.. ثم أنشب أظافري في عنقه فيبتعد.. فأتمكن من التقاط أنفاسي.. أعب منها ملء رئتي وأشهق.. أرميه عني بكل قوتي.. فيتدحرج مبتعدا.. أنهض مترنحا.. الأطرش يعوي على الرمال.. وأب شنب يقف قبالتي.. وفجأة تجد قدم طريقها إلى صدري.. أهوي للخلف ناظرا لكاجومة..

نهضت مجددا بتثاقل.. كاجومة يمسك بأب شنب عني.. كل شيء يدور.. الرمال السماء الوجوه..

"اغرب من هنا".. أسمع صوتا ينهر.. كاجومة يشير بيد.. وبالأخرى يصنع حاجزا أمام أب شنب..

تراجعت للخلف بخطوات مرتجفة.. غير مصدق أن الأمر انتهى..

"لن نتركه.. ذلك الحشرة" يصرخ أب شنب..

"قلت لك اغرب من هنا"..

هرولت مبتعدا.. وعلى الرمال كان الدم يتساقط ليروي ظمأ الصحراء.. هكذا تكتسب النوبة رمالها الحمراء..

-20-

عندما وصلت مخيم الجيران وجدت اثنين منهم يكسرون الصخور.. خمنت أن البقية داخل البئر.. عندما رآوني بدت على ملامحه آثار هلع فتخيلت كيف أبدو.. كنت أتحدث ممسكا وعلى يدي وقميصي آثار الدماء الجافة.. سألني أحدهما وهو يسكب لي من إبريق ماء لأغسل وجهي.. أبت الكلمات أن تخرج.. كيف أشرح له.. هل أخبرهم بالقصة كلها.. في نهاية الأمر أخبرته أنني اختلفت مع مجموعتي.. رأيت الشكوك تتقافز على جفونهم..

شربت ماء وجلست قربهم بينما يكملون عملهم.. ساورني بعض الشك أن الأمر برمته سينتهي بطريقة سيئة ما إن يعرفوا ما فعلته.. ولكنني بطريقة ما شعرت أنني سأنجو.. حتى ولو تركت وحيدا هنا.. كانت فكرة مجنونة.. ربما بسبب تدفق الكيماويات في عقلي غمرتني تلك الثقة.. أو الراحة لأنني عرفت أخيرا ما حل بمروان.. وانتصرت.. انتظرت هناك حتى بدأ بقية الدهابة يخرجون من البئر.. واحدا تلو الآخر.. ومن بينهم سامر الذي كان يحمل المسجل.. يبعث أغنية الحزن النبيل.. وهو يردد معها..

"أووه هل جئت لاستعادة المسجل.. بهذه السرعة" ربما لم ينتبه للدماء على قميصي فكرت وأنا أهز رأسي..

"لم أنت هادئ هكذا وأين البقية؟"..

كان صوتي كمن استيقظ من النوم لتوه..

"إنهم هناك-مشيرا برأسي- حدثت مشكلة.. ولا أظن أنني سأعود.. كنت أتساءل هل بإمكاني البقاء معكم هنا حتى أستطيع العودة للسوق؟.."

عم الصمت فجأة.. وراقبتهم يتبادلون النظرات..

أجابني الشخص الذي كان قد دعاني مسبقا لترك أب شنب والعمل معهم..

"طبعا.. يمكنك العمل معنا.. قلت لك أب شنب هذا يتصرف وكأن البئر الذي يملكه يسمح له باستعباد الناس.. من يظن نفسه"..

"ضربوه!" قاطعه الذي مدني بالماء لأغسل وجهي..

زاد التوتر في المكان.. وضاقت بي الصحراء.. نظراتهم توجهت نحو قميصي مباشرة.. وأحسست بتحفزهم لشيء ما..

"لا ليست المشكلة في البئر أو العمل"..

اقتربت خطواتهم نحوي أكثر.. وتحلقوا حولي.. هم وقوف وأنا جالس أنظر للأعلى.. كانوا ينتظرون تفسيرا.. عرفت أن الأمر لا يمكن إخفاؤه ومن الأفضل أن أخبرهم بكل شيء الآن.. وليقرروا ما سيفعلونه..

"أنا لم آت هنا للذهب.. لقد جئت أبحث عن.. عن أخي.. مروان الذي كان يعمل معهم"..

ضاقت أعين بعضهم.. وجلس أحدهم إلى مستواي.. أكملت وأنا أتجنب أعينهم..

"مروان لم تصلنا أخباره منذ أكثر من شهر.. بحثنا في المستشفيات.. وأبلغنا الشرطة.. ولم يأت أي خبر عنه.. حتى أن الشرطة استجوبتهم.. هم أب شنب ومن معه.. وأخبروا المحقق أن مروان تركهم وذهب للسحالب ولم يعد.. هذا ما أخبرني به المحقق.. لكنني عندما سألت هنا في السوق قالوا إنه عاد.. أنتم أيضا قلتم

ذلك.. فعرفت أن شيئا ما حدث له.. هكذا.. اضطررت أن أعمل معهم حتى أعرف الحقيقة.. حتى أجده"..

صمت..

"كنا نظن أنه عاد.. لذلك اختفى.. وماذا قالوا هم.. كاجومة والشباب"..

أصابتني غصة أثناء وأنا أكمل..

"اعترفوا لي.. قالوا إنه عاد ولكنهم أخذوه مرة أخرى للسحالب.. وتاهوا.. وافترق عنهم.. فتركوه وعادوا"..

"كيف؟!.. لماذا أخذوه؟!.. تركوه هناك.. ولم يخبروا أحدا!.. هل كان معه شيء ما أو؟!.. انهالت علي أسئلتهم"..

"أخذوه كي يدلهم على المكان الذي وجد فيه الذهب.. وتركوه هناك.. لا أحد يعلم ما حل به"..

الهدوء الذي تبع ذلك كان أبلغ من الكلام.. كان هدوءا لا يليق سوى بالمقابر.. لم يعرف أحد كيف يكسر الصمت بعدها.. فرأيت بعضهم ينسحبون.. أطلق سامر تنهيدة طويلة وتبعها بحنق..

"ولهم حق يمدون يدهم.. الملاعين"..

"ربما لأنني حبستهم.. هم لم يخبروني بالحقيقة إلا بعد أن سحبت عنهم حبال البئر وتركتهم ليومين"..

نظروا لي باستغراب..

"ثم أخرجتهم بعد هذا؟!"..

هززت رأسي.. وخطر في بالي.. أنني ربما أخطأت.. وأنه كان علي تركهم ليموتوا..

كان الدهابة الذين خرجوا جائعين وبالتالي فإنهم انهمكوا بتحضير الغداء.. كانت الشمس توشك على الغروب منهية بذلك اليوم السادس عشر منذ أن بدأت حياتي كدهابي هنا.. كنت أعد الأيام والساعات بادئ الأمر لكنني مللت.. أو تم جري لذلك العالم فلم أعد أشعر بالوحشة.. أحسست أنني أستطيع الانتماء لهذا المكان.. وهذا المجتمع.. وأنا أنظر نحو المجموعة تلك تعمل بتناغم فيما بينها لتأدية المهام.. تماما كما استطعت التكيف في بقية مراحل حياتي.. المدرسة.. الجامعة.. الجريدة.. لطالما كنت مرنا.. ومتعايشا مع كل الظروف.. حتى حياة الدهابة القاسية.. مع التكرار.. قد تصبح روتينا بالنسبة لي..

غير أن الرغبة لم تتملكني.. لا لهذا.. ولا لعملي في الصحيفة.. وحين أفكر أجد أن الرغبة العارمة لم تتملكني لفعل شيء أبدا في حياتي.. ربما زواجي من ليلى.. لكن حتى في هذا.. كنت أشعر بأنني أتخذ قرارا مدروسا وليس بجنون عاشق ما.. إنه وفي تلك اللحظة هناك.. وأنا أراقب أولئك الدهابة من مكاني قربهم.. ومعزولا داخل رأسي.. حين أدركت.. أنني فقدت الطيش واستبدلته بقلق خفي ظل قابعا يحرك خيوط حياتي.. لا يزال ذلك الخوف من أنني أستحق العقاب لما حدث لزين يسكنني.. ظللت طوال السنين أترقب أن تحل بي مصيبة جراء ما فعلت.. ربما ليس بالضرورة عقابا لموته بل بالطريقة التي عشت فيها كجلاد لأخي الصغير.. حتى لم يعد لي من ذكراه سوى تلك اللحظات التي أسأت فيها إليه.. أو ضربته.. أو بكى بسببي..

هناك خطأ ما.. أشعر به داخلي.. ربما شعر به مروان أيضا لهذا فعل ما فعل.. لكنه لا يزال موجودا.. حتى بعد أن عرفت ما حل بمروان..

تناولت الطعام مع الجيران.. ذهب مجموعة منهم ليتحققوا من حال أب شنب وكاجومة والأطرش.. ثم عادوا ينظرون لي شزرا.. عدا ذلك لم يعد لي أي اتصال معهم.. وبقيت مع الجيران.. لأيام.. أعمل..

وأنام وآكل.. نلعب في الليل الورق ونعيد الكرة.. ثم بعد انقضاء أيامهم عدت برفقتهم إلى السوق على متن شاحنة حملناها بجوالات الصخور المذهبة.. ظننت أن عملي معهم كان أجرة لإبقائي حيا وإعادتي للسوق.. لكنهم أصروا بعد عودتنا على إعطائي نصيبا..

كنت أرى في نظراتهم احتراما لي.. واستغرابا لم أعرف مصدره.. بالنسبة لي.. فقد كنت أرى فيهم نفسي.. وكل إنسان على الأرض.. هم تجسيد لهذا الصراع الأبدي بين الإنسان والطبيعة للبقاء.. ليس كما يصفه المحللون حين ينظرون للإنسان من عالمي.. عالم الإنسان المقهور.. أنه ينظر للطبيعة الأم كمصدر تهديد دائم ويقف منها موقف الطفل الخائف.. لا.. هؤلاء كانوا يقتحمون تلك الطبيعة بقسوتها لينتزعوا ما يريدون..

في السوق.. عندما تركتهم أخيرا.. ووقفت وحيدا.. عرفت ما سأفعله.. سأعود لمواصلة حياتي.. لابد أن أعود ولكن قبل ذلك علي أن أذهب للسحالب لأنتهي من كل هذا.. الأمر ما عاد يتعلق بمروان.. الأمر يتعلق بي وحدي.. ستكون هذه آخر مرة.. آخر مرة أقوم فيها بفعل يتعارض مع مصلحتي.. مرة أخيرة لأتأكد أنني لست أنانيا.. ولا جبانا.. ولا ضعيفا.. ستكون هذه آخر مرة لذلك لابد أن تكون محسوبة..

-1-

حاول أوش الله ثنيي عن قرار الدخول إلى السحالب.. بعد أن قابلته وأخبرته بما حدث لي مع أب شنب ورفاقه.. بكل التفاصيل.. وما عرفته منهم بخصوص مروان.. رأيت في وجهه حزنا حقيقيا تجاه ما حدث.. وخوفا أيضا.. وهو ما عزز شعوره وهو العارف أن هذا العالم لم يعد مكانا آمنا.. قلت له إنني في حاجة لسيارة.. هكذا.. قطعت عليه لحظات التأمل التي كان منصرفا فيها.. فتبدلت ملامح الحزن تلك إلى استغراب.. أجابني بصوت حاد..

سيارة.. لماذا؟!

سأحتاجها للتنقل والبحث في السحالب..

اتسعت عيناه رعبا..

هل جننت؟!.. ستذهب للسحالب بعد كل ما سمعته؟

ظل ينتظر إجابة مني لكن كلامي كان واضحا ولم يحتج للسؤال..

لماذا؟!.. أنت تعرف بقلبك أنه توفي.. ألا يكفي هذا.. لقد فعلت كل ما بوسعك لتجده.. لكن هذا لم يعد ممكنا.. هل ستفتش السحالب هكذا على غير هدى؟..

كنت أعلم أنني لا أملك حجة.. ولا شيء سيبدو منطقيا لكنني تكلمت.. كشخص تعوزه الكلمات..

أنا أعرف بعض الأشياء.. قالوا إنهم تاهوا عنه قرب جبل.. وأنهم كانوا يتجهون غربا..

يا سلام.. هل تعرف كم جبلا قد تصادف!.. هل فكرت أن الرمال قد تكون غطت جثته بالكامل وقد لا تراه حتى لو مررت قربه!

لا عليك من كل هذا ستحل.. ما أريده الآن هو سيارة..

تنحل.. من نفسها هكذا.. اسمعني يا منذر.. أقسم لك أنني لا أرفض مساعدتك.. لكنك تريد أن ترمي بنفسك للموت..

صمتنا لبعض الوقت.. كان هو يبدي امتعاضه ببعض التمتمات والأنفاس المهتاجة.. بينما كنت أحدق في الأرض أحاول تذكر المال الذي أملكه.. تلفت حولي قليلا كنا على التل الذي كان يجلس عليه مروان قرب السوق.. وكنت أراه من مكاني.. أخرجت النقود من جيبي ورحت أعدها.. كل ما جمعته.. اثنا عشر ألفا.. تكلمت بصوت مسموع.. كنت أفكر مع نفسي وأحث أوش الله ليتجاوز تلك النقطة ويفهم أن الأمر حسم وبدأ تنفيذه فعلا..

سأحتاج إلى أن أشتري الماء والبنزين والأكل.. ولا أعرف كم ستكون كلفة استئجار السيارة..

قاطعني أوش الله..

إذا سأذهب معك..

فكرت مليا بكيف سأجيبه..

لا لا.. أنا في حاجة إليك هنا.. كنت أريد الذهاب للدبة لكن لا وقت.. إذا لم أعد بعد أسبوع أريدك أن تخبر أهلي بما حدث.. لا أريد أن أعيد قصة مروان.. فقط أخبرهم أنني توفيت هناك.. أو شيء كهذا.. سأعطيك رقما للاتصال بهم..

أنت لست شخصا طبيعيا أتعرف هذا؟.. لقد أخبرتك قصتي.. ما هي مشكلتك.. لماذا تريد أن تجد مروان بهذا الهوس..

وضعت المال من يدي.. وأنظر للهواء كأنني سأصطاد الكلمات.. كيف أشرح لفتى في الرابعة عشرة عقدة تشكلت لدي تكبره حتى في السن.. عشرين عاما ضربت تلك العقدة بجذورها في داخلي.. قلت له..

ليس الأمر أنني مهووس بإيجاده.. قد لا أجده.. أنا أعرف هذا.. لكن شعورا بالضيق ينتابني كل ما فكرت في العودة.. وكأنني مكبل هنا ولا أستطيع العودة ما لم أتحرر.. هل يبدو لك هذا مفهوما؟..

كانت عيناه نصف مغلقتين وهو يتابع حركات يدي العشوائية تحاول التحدث هي الأخرى.. كأنه يشعر بالشفقة نحوي.. لكنه فهمني.. ذلك الفتى الذكي اختصر الموضوع..

مكره أخاك لا بطل ها!.. مكره أخاك لا بطل..

تجولنا في السوق بحثا عن كل من يملك سيارة.. سيارة بحوض أستطيع حمل البراميل فيها.. كان هذا هو النوع الموجود أصلا ولكن أغلب السيارات كانت تبدو مهترئة.. وفوق ذلك لم يكن أحد يرضى بتأجيرها.. استغرب الكثير طلبي ذاك.. وراح بعضهم يطلب مبالغ عالية تكفي لشراء سيارة في الظروف الطبيعية.. عندما صعب الأمر أكثر تذكرت الشخص الذي قابلته في السوق أول مرة جئت فيها.. ذاك كان يملك سيارة.. وقال أنه يقوم فقط بنقل الدهابة فيها من وإلى السوق والآبار.. كان شخصا طيبا وأملت أنه سيوافق.. عدت أدراجي أتتبع خطوات أول يوم.. من طرف السوق الذي أنزلنا فيه الجشع عندما أحضرنا من الدبة.. ثم البقعة التي قضيت فيها الليلة الباردة.. وفي الصباح نهضت لأجد السائق.. هناك..

حين اقتربت من الخيمة التي خمنت أنها له.. ورأيت السيارة مركونة قربها شعرت بالراحة.. ناديت عليه مصفقا بيدي.. فخرج من الداخل.. نظر لي ثوان ثم ابتسم.. لم أتوقع أن يتذكرني.. لكن ربما كانت تلك

فائدة البرص في حياتي.. أنني لا أنسى.. أخبرته أنني عملت مع الدهابة حتى أصل لمعرفة ما حل بصديقي.. أخبرته ما يحتاج لمعرفته فقط.. في النهاية أخبرته أنني في حاجة لسيارته..

نظر نحو عربته المهترئة متفحصا.. لماذا تريدها؟..

كان لابد من قول الحقيقة مهما بدا أنها ستبعدني عن الحصول على مرادي.. خصوصا وأنه أخبرني قبلا أنه لن يقرب السحالب.. لكني لا أطلب سوى سيارته.. أخبرته أنني سأدفع ما يريد..

المسألة ليست في المال.. قال باحثا عن الكلمات..

هناك احتمال أنك لن تعود ولا سيارتي وكما تعلم هي مصدر رزقي..

سأكتب لك ورقة ضمان.. إن لم أعد أعطها لصديق لي في الخرطوم وسيشتري لك بدلها.. أنا أملك مالا هناك..

صمت الرجل يفكر.. كان في حاجة إلى دفعة..

صديقي هذا.. الذي أبحث عنه.. فعل شيئا في الماضي لم أغفره له.. وربما أكون السبب في ما حل به..

كنت أعلم أن جملتي تلك تثير تساؤلات أكثر مما تشرح.. لكنها استجداء في الحقيقة.. تلك العبارة كانت ركوعا..

كم من الوقت تريدها؟

أسبوع.. لست متأكدا.. لكنني سأعطيك كل ما أملك مقدما..

وافق الرجل بعد القليل من الشد والجذب والضمانات.. لم يكن يبدو على وجهه الاقتناع بأنني سأعود بسيارته.. وكيف له أن يقتنع حقا.. لكنه كان يؤمن على ما أظن.. قبل أن أقود سيارته منطلقا دعا لي بالتوفيق.. وأن أعود سالما.. خرجت مني كلمة آمين بكل تضرع..

استخدمت ما تبقى لي من مال في شراء برميلين من الماء وبعض الطعام.. ثم ملأت العربة بالوقود.. وملأت كذلك عدة زجاجات بالبنزين تحسبا.. أعددت كل شيء لرحلتي الانتحارية تلك وعند الغروب جلست داخل حوض السيارة.. بين العدة مفكرا في أهلي.. وددت لو أستطيع مكالمتهم للمرة الأخيرة.. وأن أشرح لهم هذه القصة المعقدة وأخبرهم بما ينقصهم معرفته ليضعوا النقاط على الحروف.. وعندها.. ربما فقط سيفهمونني وما أفعله..

قررت أنني سأنطلق في الصباح.. أخبرت أوش الله بذلك وتركته ليحرس السيارة والحاجيات فيها.. ثم انطلقت بحثا عن ذلك الشاب الذي قابلته مسبقا.. كنت أريد الكتاب "الغريب" حتى أحصل على ذلك التحفيز المزعوم.. حتى لا ينتهي بي الأمر مثل ذلك البطل الذي يراقب الأشياء تحدث..

لكنني لم أجده.. وعدت لأقضي الليلة مقتاتا على ذكراي من الرواية.. ومن أشياء أخرى قرأتها.. ومن أفكار هي ملك لي وحدي.. تتشابه مع الكثير من الأفكار.. لكنها ملكي..

-2-

انطلقت في الصباح بالسيارة بعد أن ودعت أوش الله وأعطيته طرقا للتواصل بمعارفي كلهم.. راقبته يصغر في المرآة وأنا أسير قدما باتجاه السحالب كما وصف الجيران.. جمعت معلومات من كل شخص أعرفه.. عن الوصول للسحالب وكيفية التنقل فيها.. وبهذا كنت مستعدا لما هو قادم.. كانت الساعة السابعة صباحا.. والشمس تعلو وتعلو سابحة في السماء.. صوت هدير المحرك وتكسر الصخور من تحتي رتيب كالساعة.. والسيارة ترتج رغم بطء السرعة.. من المذياع تنبعث إذاعة أمدرمان ببرنامج صباحي يستطلع أراء الناس عن البيئة والحفاظ عليها.. تصيبني الكثير من الحيرة.. بداية بأن الإذاعة تصل إلى هذا الحد.. وثم آراء الناس التي تبدو مثالية جدا.. بعيدة عن الواقع.. لكن صوت المقدمة فيه شيء من الود.. والدفء فأبقي على صوتها في الخلفية..

باتجاه الشمال أتحرك كما وصفوا لي مبتعدا عن السوق والطريق الذي يربط الخرطوم بالشمال كله.. أي أنني أتوغل في الصحراء والعدم.. داخلا مناطق لم تصلها الحضارة.. مناطق كانت على الأغلب ساحات معارك فقط بين النوبة والفراعنة قديما.. وفخا كبيرا تاه فيه كل من حاول العبور على مدى السنين.. بعد مرور نصف ساعة.. تبدأ عجلات عقلي بالطحن.. أتوتر مفكرا في الأشياء خلفي.. بينما أنا أنظر إليها في المرآة.. براميل الماء والبنزين.. أفكر في وفرتها.. وإن كنت نسيت شيئا.. تنزل علي خاطرة كالصاعقة فاتلفت للكرسي الخلفي.. هل أحضرت الأغطية؟.. وحين أجده.. غطائي ذو اللون الأحمر المزركش بالرمال أرتاح.. وكأن كل العواقب التي سأواجهها ستحل ما دمت أملك غطاء من البرد..

تمر غيوم ساترة الشمس عن الأرض.. فأرى حدودها على الرمال مناطق مظلمة.. تسقط علي مخففة وهج الشمس.. صوت الريح يعلو فوق المحرك أحيانا.. كزئير أسد جائع..

مع كل ثانية تمر.. أغرق أنا مزيدا في العدم.. وتنقطع من خلفي الأواصر بالتمدن.. بالسببية.. بالمنطق.. وكأنني أدخل حلما ما أو أدخل حيزا هلاميا معزولا عن الواقع.. وأتمعن.. وأتشرب الحقيقة أكثر فأكثر أنني وحدي.. أنني دائما وحدي.. كأي إنسان يسير في هذه الحياة وحده.. ربما بموازاة للناس وباقتراب الخطوط المتوازية من بعضها أكثر فأكثر يتكون ذلك الوهم بالتقاطع.. لكن لا.. لا يزال الخط مرسوما لي وحدي..

تنبعث من المذياع أصوات التشويش.. يتقطع الصوت.. ثم يتحول لذلك الإزعاج الثابت من الضوضاء.. أبقيه ليؤنسني..

أعود لأفكر في نفسي.. أراني من الأعلى بين الغيوم هناك وأنا بداخل السيارة كنملة.. نعم كنملة في هذا الفضاء الواسع.. وحين أفكر فيما سيحل بي أتذكر أخي زين وجدتي.. في صغره كان زين كثير البكاء.. وهو ما كان يتعبني أكثر من غيري كوني المسئول عنه.. أتذكر حين قرصته نملة فبدأت دموعه في الانهمار وصراخه ملأ البيت.. لكنه حقيقة كان يبكي لأن والدتي خرجت وتركتنا لتقضي شيئا ما.. تدخلت جدتي.. وهي طبيب العائلة الحقيقي حتى في وجود والدي.. فقامت هي بوضع الملح والليمون على قدمه.. موضع الألم.. وراحت تمسحها وهو لا يزال يبكي.. ثم طلبت مني أن أتسلم المسح لأنها ملت..

أنا كانت لدي طريقتي.. قلت لزين أنظر.. مشيرا إلى نملة لا أعتقد أنها المذنبة.. لكنها ستفي بالغرض.. أمسكتها بين سبابتي وإبهامي.. وضغطها.. هذا لأنك قرصتي زين..

صمت قليلا ينظر لي.. ابتسمت.. ظانا أن الأمر قد انتهى.. لكنه عاد للبكاء..

أحضرت ورقة ووضعت النملة فيها وضغطت أكثر.. لم يسكت.. وضعت الورقة في كتاب.. وضغطه.. ثم صعدت فوق الكتاب.. أقفز..

صمت.. قلت له هيا افعصها أنت.. فتسلم هو القفز وبدا سعيدا بانتقامه..

أنا الآن نملة.. قد تحدث لي الكثير من الأهوال.. وقد لا يبدو أن لها مسوغا ما.. لكنها تحدث بمحض المصادفة على ما أظن..

هناك في خط الأفق أمامي بدأت كنقطة صغيرة.. وكلما اقتربت اتضحت معالمها.. سيقان نخل ميتة وبلا فروع.. وحفرة كبيرة متشققة الأطراف كالأخاديد.. كانت هذه هي الواحة الجافة التي حدثوني عنها.. الحد الذي يفصل السحالب عن بقية الصحراء.. كنت أرى أثناء اقترابي كيف أن الرمال هناك تبدو أنعم.. ومرتبة على شكل أمواج وكثبان.. كأنني أنظر للمحيط.. زدت من الضغط على البنزين كي لا أفكر في التراجع.. وعندما مررت بقرب الواحدة راعني منظرها.. وجدت عدة هياكل لطيور.. وما بدا كهيكل عظمي لجمل.. بعد أن تجاوزتها تبدل صوت الطحن تحت العجلات إلى صوت أكثر نعومة كهدير الماء..

لا أعرف لم لكنني قبضتي على المقود زادت.. وعضلات رقبتي شدت أكثر كأن ثقلا ما كان فوق ظهري.. حتى صوت المذياع الذي كان يؤنسني بدا قميئا تلك اللحظة فأغلقته بعنف ليعم الهدوء المزعج..

في لحظة ما قررت التوقف لأن التوتر كان قد استفحل بي.. ومقود السيارة كان ينزلق بين يدي وكأن السيارة تطفو دون تحكم مني.. قررت التوقف قبل أن أمر بين مجموعة من الكثبان التي تشكل حاجزا أمامي.. ربما هي كانت سبب خوفي.. عدت إلى حوض السيارة وصعدت..

وطأت الجوال متوسط الحجم الذي يحوي الطعام فانتبهت أنني لابد وأن آكل.. قمت بإخراج قدر ووضعت فيه العدس وعليه الماء من البرميل الأزرق الكبير.. شربت أيضا بنهم حتى سال الماء على جانبي شفتي.. وأحسست معه بطعم العرق..

وضعت مجموعة أعواد وبعض الفحم فوق الرمال الحمراء الناعمة.. بعد أن كومتها.. ثم رششت البنزين وأضرمت النار بولاعتي.. انتظرت حتى تأججت النار ثم وضعت القدر عليها.. لم أكن يوما جيدا في الطبخ لكنني أستطيع تدبر أمري وإبقاء نفسي حيا لبضعة أيام لو تطلب الأمر.. لكن عندما يتعدى ذلك الأيام فإنني أهمل الغذاء.. فآكل متى ما تذكرت أو امتلكت بعض الحماسة.. الآن لم يعد من مجال للدلال أنا وحدي المسئول عن إبقاء نفسي حيا..

شربت المزيد من الماء ورحت أقضم خيارة أخرجتها من الجوال.. كان الوقت قد تجاوز الظهيرة لذا فإن حرارة الشمس بدأت تخبو.. انقضى الأمر برتابة حتى نضج الطعام وأكلت واستعديت للتحرك من جديد..

عندما أدرت السيارة وتحركت وجدت أن العجلات تدور في مكانها.. أعاود الضغط على البنزين فتلف وتلف مصدرة أزيزا دون أن تتقدم السيارة شبرا.. بعد ثوان امتلأ الجو بالغبار خلفي ووصلني داخل السيارة فضاع الهواء مني.. نزلت لأتفقد العجلات.. فوجدتها غائصة في الرمال الناعمة.. اللعنة كانت العواقب قد بدأت في الظهور.. وضعت بضعة أشياء تحت العجلات.. أعواد خشب.. ونزعت مفارش السيارة ووضعتها لكن دون جدوى.. ظللت أحوم حول السيارة حتى شارفت الشمس على الغروب.. أحفر بيدي وأحاول التحرك من جديد لكن أيا من ذلك لم يفد.. عندما مللت وصعدت الحوض لأشرب الماء

انتهت إلى أن تقليل الحمولة سيفيد.. فرحت على مهل أنزل البراميل والجوالات وكل شيء..

كنت مصرا على أن أتحرك اليوم.. كنت قلقا من أن أكون عالقا هكذا حتى ولو لساعة.. عدت لتشغيل السيارة.. أضغط على البنزين فتدحرج السيارة لكنها لا تخرج بالكامل وتعود للانزلاق للخلف.. وهكذا كنت أضغط البنزين وتتمايل السيارة كالبندول.. أغير التروس ثم.. ترتفع.. كناقة تنهض من الرمال.. إلى أن خرجت.. واصلت السير لمسافة حتى لا أعلق من جديد..

مع المساء أعدت تحميل الحاجيات في السيارة.. وأشعلت عدة أحطاب واستلقيت قربها.. حين يبدأ البرد بالنزول أقترب من الحطب الذي تحول لعدة جمرات وأستمتع بالدفء المنبعث منها.. أجدني أردد وأنا أتمعن في الكواكب..

ياااا سايرين الليل.. ياااا راكبين الخيل.. قول لمحمد أخووي الغووول أكلني الغووول أكلني..

-3-

في اليوم التالي أعدت الكرة.. استيقظت صباحا وأكلت ما تبقى من طعام الأمس لأنني كنت جائعا.. وصليت ثم واصلت التقدم.. على ضوء الشمس المتوهجة.. لم أتجاوز الكيلومتر الأول حتى عادت السيارة للغوص في الرمال.. فرحت أطبق نظرياتي لإخراجها.. كنت أحدثها كالمجنون مستجديا "أرجوك لا تفعلي هذا" "أرجوك هيا هيا أخرجي" "عليك اللعنة وعلى والديك".. تعكر مزاجي طوال الوقت.. وأنا أفكر فيما علي فعله.. أخرج من حفرة لأقع في أخرى.. ولا شيء يبدو ذا معنى في الطريق.. لا يوجد طريق أصلا..

أقرر بعد مسيرة اليوم والنصف تلك أنه قد حان الوقت للاتجاه غربا.. هكذا مجرد حدس أقول لنفسي.. فأفعلها.. أتتبع سير شروق الشمس وأتجه في الطريق المعاكس له.. الرمال تزداد حمرة أقول لنفسي موهما إياي أن هذا لابد يعني أنني في الاتجاه الصحيح.. قبل الظهيرة أتوقف لآكل مرة أخرى مستغربا من شهيتي المتزايدة.. لا أطيل التوقف وقبل أن أعود للتحرك أعب من الماء حتى أرتوي..

أعود للتحرك.. الرمال في هذه الجهة أكثر نعومة وأنتبه أن الرياح تأتي من الغرب محملة بالرمال فتصعب الرؤية علي.. أصعد تلا بالسيارة.. وعندما أهبط تنزلق السيارة ولا يعود لي أي تحكم بها.. تنزلق على الموج ببطء.. تنحرف.. ترتج.. ثم أسمع صوت ارتطام حالما أصل نهاية التل.. اللعنة.. أتخيل ما حدث في الخلف فأنزل هلعا لأكتشف أن توقعي كان في محله.. تزداد ضربات قلبي.. لا لا لا تقل لي.. أرى أن أحد البراميل منكفئ والماء يسيل من حوض السيارة ليروي الرمال.. أقفز.. أرفع البرميل محاولا إنقاذ ما أمكنني من الماء.. ولكن من خفة وزنه أعلم أن مصيبتي كبيرة.. يترقرق الماء في قعر البرميل معكرا..

عليك اللعنة..

أشرب من الماء وأبحث بين الحاجيات عن حبل.. أربط به البرميلين..

الآن.. أسقط مرة أخرى يا ابن الملعون.. أتحداك..

آخذ بقية الجوالات من طعام وزجاجات البنزين إلى الداخل معي وأحشرها في الأسفل تحسبا لأي تفاهة أخرى.. عدت للماء المتجمع في حوض السيارة أقرر الاستفادة من فأرطب به وجهي ويدي وصدري لأخفف من حرارتي.. كانت الشمس توشك على الغروب أمامي فأقرر أن هذا يكفي لليوم.. أنطلق بفورة الغضب مما حدث لأتمشى.. أطلق ساقي وأنا أعلم أنني أكشر.. تلك التكشيرة التي تجعل المسافة بين حاجبي تتجعد كدوامة.. أنظر خلفي كل بضع دقائق لأتأكد أن السيارة على مرأى مني.. أصعد تلالا وأنظر حولي بما تبقى من ضوء الشمس الأحمر يسقط على الرمال الحمراء.. فيبدو كل شيء دمويا.. كلوحة قوطية..

أخلع قميصي تاركا نسمات الليل تتخللني.. أرى أنني خسرت بعض الوزن لكن عضلات بطني وصدري صارت مشدودة أكثر.. أتأمل أيضا في الحدود بين لوني جلدي.. حادة ودقيقة.. الأبيض والأسمر.. جسدي ساحة معركة محتدمة بينهما.. لا أستطيع الجزم بانتصار أي طرف..

أنتبه للشعور الجيد الذي ينتابني مع الحركة والتمطي فالجلوس لساعات خلف المقود مؤلم بقدر جم.. أدور جاعلا السيارة هي المحور كي لا أبتعد عنها.. وبعد دقائق أرقى تلا آخر وأجلس على قمته..

أجبر نفسي على أن أهدأ.. الكثير يعتمل في صدري أشعر به يكاد ينفجر.. أفرغه عن طريق الاهتزاز.. قدماي تهتزان بتوتر ويداي تلتفان حولهما كحبل لكن دون جدوى.. أنفخ سحابة من الدخان من فمي

باهتياج.. أتخيلها تخرج حمراء اللون.. ثم سوداء.. الكثير يعتمل في صدري.. أكرر الكلمات.. أنا لست راضيا.. بعد أن تجد مروان ستعود وكل شيء سيكون بخير.. لا تخدع نفسك.. الأمر يتعدى مهمة البحث المستحيلة هذه.. أنت تتهرب من مواجهة الكثير من الأشياء.. ما هي؟ ما هي؟ هذه الأشياء التي تقول إنها تزعجك..

التفت حولي.. ربما أجدها ثم أقبض بيدي حفنة من الرمال وأنثرها.. لا أستطيع الرؤية بوضوح لأن الظلام قد حل.. لكنني أرى من بعيد انعكاس القمر على زجاج السيارة فأرتاح..

عليك أن تجد أشياء ثابتة.. لا جدال فيها.. مثلا أنت تحب والديك صحيح؟.. نعم أنا أحبهما.. وكذلك إيمان.. وليلى.. نعم فقط هؤلاء الأربعة.. أحترم خالي وأحبه لكنني لا أراه كثيرا.. لا تبتعد عن الموضوع قلنا إننا نريد ثوابت.. أنت تحب هؤلاء الأربعة.. أنا واثق أيضا أن والداي وأختي يحبانني.. لكن؟.. لكنني لست متأكدا من ليلى..

هممم

أنت متأكد أنك تحبها.. بالتأكيد.. هل تظن أنها تعرف هذا.. أنك تحبها.. أكيد.. ولم أنت متأكد؟.. لأنني أخبرها بذلك.. وهي ألا تخبرك بذلك؟.. نعم ولكن.. أرأيت؟ أنت لا تملك سببا لشكك هذا.. أنت متأكد أنك تحبها لذلك تقول إنها لابد متأكدة من حبك لها وقد لا يكون هذا صحيحا.. ربما هي أيضا تتساءل.. خصوصا بعد ما فعلته أنت وبقاؤك هنا.. إذا ماذا تقول؟ إنه لا يمكن أن أتأكد يوما من أنها تحبني.. ربما لكن يمكنك المراهنة أنها تفكر بنفس طريقتك هذه ولا تجد حلا.. وتكون المشكلة أننا نحب بعضنا لكن لا طريقة للتأكد بشكل قاطع.. بالضبط..

إذا لا طريقة لأن تصبح هذه من الثوابت..

ليس الآن على كل حال..

وماذا عن العمل؟.. ما به؟.. أنا لا أحبه.. يا أخي لا يمكنك أن تصنف كل شيء إلى أحبه ولا أحبه.. لكن شيئا كالعمل أقضي فيه ثلث يومي وبالتالي ثلث حياتي إذا يجب أن أحبه.. هو عمل من أجل أن تعيش لا تحمله أكثر من ذلك إن كنت تحبه فهذا شيء جيد وإن لا فيمكنك دائما إيجاد شيء آخر تفعله في نفس الوقت.. مثل ماذا؟.. جرب وأبحث حتى تجد ألا يوجد ما تريد تجربته؟.. أريد أن أجرب الكتابة.. إذا ها هي الكتابة ماذا ستكتب؟.. قصة.. قصة؟.. نعم.. عن ماذا؟.. لا أعرف بعد لكن هناك شيء أريد أن أقوله والكتابة أفضل ما لدي الآن.. جيد..

صمت أراقب البعيد.. لثوان كنت سعيدا بما وصلت إليه لكن عقلي عاد للطحن ثم..

لحظة لحظة.. هممم؟.. لماذا وضعت حب والدي لي من الثوابت؟.. ألا تظن أنهما يحبانك؟.. بلى ولكن نظرا لما حدث فلا ألومهما لو لم يفعلا من المحتمل أنهما لا يحباني يحباني أفهمت؟.. إذا لنعد من جديد ما هو الشيء الذي تثق به مائة بالمائة؟.. لا شيء.. لا شيء؟.. نعم.. ماذا عن كونك تحبهما هل تشك في ذلك؟.. لا أنا أحبهما الآن لكن قد مر وقت لم أحبهما فيه خصوصا والدي ولا ضمانة أنني لن أستيقظ غدا لأكرههما أليس هذا محتملا؟.. بلى.. آآآخ لم كل هذا التعقيد.. لا تقلق سنجد حلا كل ما علينا فعله هو إلغاء الناس أن نجد شيئا يخصك وحدك شعورا أو فكرة تتمحور حولك.. كيف؟.. شيء تؤمن به بطريقة ليست سوية ولا منطقية شيء لا يتزعزع.. مثل ماذا؟.. مثل أنك مذنب.. لكنني مذنب لأسباب منطقية.. أترى؟!.. أرى ماذا؟.. أنك مهووس بهذه الفكرة ولن يزعزعك عنها شيء هذا ما

تحتاجه حقيقة تندرج تحت الأمراض العقلية.. بغض النظر عن هذا التناقض كونك تصفها بالحقيقة والمرض العقلي لكن كيف أجدها؟ الحقيقة أو المرض هذا.. فكر في حقيقة تعرفها عن نفسك لم تبح بها لأحد شعور لطالما أحسست به شيء إيجابي أرجوك.. شيء إيجابي..

لم أخبر به أحدا ومؤمن به..

ربما أقول.. أنا ذكي.. ماذا؟.. أنا أذكى شخص أعرفه.. ولماذا تظن هذا؟.. لا أعلم بمجرد أن أتحدث مع أي شخص أتأكد أنني أذكى منه وأزدري أي رأي يختلف فيه عني بالطبع أنا لا أقول له هذا ولا أحاول أن أثبت له شيئا لكنني فقط أعلم أنني أذكى.. ولا تظن أن وجودك هنا في الصحراء ينقض هذا الادعاء بأنك ذكي؟ أعني لا أظن أن شخصا ذكيا يفعل هذا.. لا ليس بالضرورة أنا أفعل ما يجب فعله.. وماذا عن المال أو المنصب؟ أنت لا تملك أيا منهما ولا موهبة حتى.. لا كل هذا لا علاقة له بأنني ذكي الشخص الذكي فقط هكذا.. جيد هذا جيد جدا.. وماذا الآن؟.. الآن عليك أن تربط كل شيء بهذا "أنك ذكي".. بمعنى؟.. بمعنى أن تؤمن أن كل شيء سيكون بخير لأنك ذكي مثلا ماذا لو كان والداك لا يحبانك؟.. لا بأس في هذا فأنا ذكي.. ولماذا تظن أنهما لا يحبانك؟.. لأنني أذكى منهما!..

هذا جنون!.. نعم.. وهي طريقة غير متزنة للحياة.. اسمع أنت في حاجة لحقيقة واحدة ثقيلة كلما اختلطت عليك الأمور عدت إليها وأنت أصلا تؤمن بهذا وليست فكرة دخيلة كل ما عليك فعله هو تضخيمها أكثر.. ماذا لو أصابني جنون العظمة.. لا أنت أذكى من هذا أنت ذكى بالمقدار الكافي تماما الذي يجعل كل شيء مستقرا حولك.. يبدو شيئا جميلا.. نعم وكافيا أعني لو مت غدا ما الحقيقة الوحيدة التي تعرفها عن نفسك.. سأقول أنني ربما كنت مخطئا وأن طيبتي وحسن سلوكي مع البشر كان مشكوكا فيه وربما ندمت على بعض الأشياء لكنني ذكي أنا أعلم هذا.. أليس هذا كافيا؟.. بلى..

-4-

عندما استيقظت كنت بلا حماسة تجاه كل شيء.. لم أرد النهوض من مكاني حتى وقت متأخر وعندما فعلت لم تكن لدي شهية للأكل.. بدا لي إنزال الأشياء والطبخ عملا مرهقا فآثرت التحرك هكذا.. انطلقت بالسيارة مكملا طريقي نحو الغرب بلا تفكير مطول.. كنت أمشي بسرعة بطيئة.. وفي خطوط منحنية ممشطا المنطقة التي أستطيع تغطيتها بعيني.. في السماء.. بعد عدة ساعات من تحركي.. وبعد أيام وأيام في الصحراء وجدت أول أثر للحياة.. طائر يجوب السماء.. ربما تقنيا لم يكن في الصحراء لكنه هنا قربي.. تسمرت عيناي تلاحقه.. وقلبي يخفق كمن رأى حبيبا..

راقبته يجوب سابحا في دوائر طويلة المدى.. يذهب مبتعدا ثم يعود كأنه عدل عن رأيه في الهجرة.. خمنت أنه صقر.. حين عدت بعيني نحو الأرض رأيت جبلا.. معلما آخر كشفت عنه السحالب.. فكرت بطريقة ما أن أتجه نحوه.. بغريزة ما.. وأظن أن أي شخص كان ليفعل المثل.. وبالتالي ربما أجد مروان هناك.. أو بقاياه.. ضغطت على دواسة البنزين أكثر ليهدر المحرك بصوت أعلى.. وتتمايل السيارة متخطية الأمواج واحدة تلو الأخرى.. تجاوزت التل الأول والثاني ثم شعرت بأنني انحرفت عن اتجاه الجبل فاستعدلت إلى اليسار وتقدمت ببطء كالسلحفاة.. كانت السيارة تزحف بدلا من أن تسير كما هو مطلوب منها.. مهما زدت من السرعة..

حتى ذهني أصابه نوع من التباطؤ في ذلك الوضع.. كانت الأفكار في رأسي لزجة.. وضبابية.. المقود.. الشمس في الأعلى.. رائحة الطعام التي تفوح من الجوالات بسبب الحرارة.. كنت أنا أيضا في فرن ما.. أكاد أرى العرق يتفتق من مسامي ثم يتبخر ماؤه في الجو..

أركز على الجبل.. أين سأجد مروان أفكر وأنا أنظر لقمة الجبل وسفحه.. علي البحث في كليهما.. أتخيل منظره.. بعد مرور شهر تحت هذا القيظ.. جلده المتيبس.. انكماش عضلاته إن كانت لا تزال موجودة.. إن لم يتحول لمجرد هيكل عظمي.. أشعر بالخلاص يقترب.. بالدين يسدد.. وبالغفران.. كل المشاكل ستحل.. عندما أصل هناك وأجده.. أتنفس ملء رئتي للفكرة..

بعد دهر أقترب من الجبل فأقرر إيقاف السيارة والترجل.. تتسارع الأشياء.. أبدأ بحثي حولي بين الرمال.. بخطوات بطيئة ثم هرولة ثم أركض هنا وهناك.. العرق يتساقط من جبيني.. وقميصي يبتل.. تغرق قدماي في الرمال فأنتشلها كجثة.. نحو الجبل أهرول.. ثم ألمح نتوءا بين الرمال يرتفع كقدم.. أو أنني أتوهم.. أسرع.. وكلما اقتربت بدا لي شيئا حيا.. شيئا بشريا.. أنحني وأحفر ومع أول حفنتي رمل أزيحهما أتأكد أنه مجرد شال.. أحمله بيدي أسود وأبيض.. متقطع الأطراف.. أهلع للفكرة.. أن مروان قد يكون تحت أطنان من الرمال.. أو أن الريح حملت هذا الشال من مكان بعيد.. بعيد جدا.. أو.. أو أنه لا يخص مروان أصلا.. بل هو لشخص آخر تعيس الحظ..

أتشرب الفكرة أكثر وأكثر.. احتمالية أنني لن أجد مروان تزداد.. فتعود الأشياء للتباطؤ.. ويبدو الجبل على مقربة أكبر مني..

أعاود التحرك غربا.. أنتبه أنني لم آكل والشمس توشك على الغروب.. ألعن الطعام صافعا باب السيارة وأنطلق.. مرة أخرى نفس المشهد.. الرمال والسماء.. ألاحق الشمس نحو الغروب..

في المساء أتوقف.. أشعل النار وآكل بعض الخضر قضما.. ثم أجد خبزا يابسا فألوكه.. أبلله بالماء مع كل لقمة.. أنظر حولي لوقت طويل.. أسمع صفير الهواء وفرقعة الحطب.. أغفو تحت وطأة الرتابة..

أستفيق في الليل هكذا.. دون مجهود أو بقايا نوم وكأن استيقاظي قدر لأرى تلك.. تلك ال.. الأضواء.. حين فتحت عيني رأيت الأفق يضيء من الأسفل.. بلون ذهبي.. بريقا كانعكاس الضوء على صفحة الماء.. وهجا يرتفع من الأرض يتمايل كالضباب.. أنهض من مكاني غير مصدق.. أشعر أنني لم أخرج من الحلم بعد.. لكن كل شيء يبدو واقعيا.. السيارة.. بقايا الجمر.. ضرب الهواء على وجنتي..

ألتفت حولي.. لا شيء ثم أعود أنظر لمصدر الضوء.. الشمال.. هذا هو اتجاهه.. على مسافة تبعد الكثير.. مد البصر..

رفعت العدة وأنا أنظر مشدوها نحو الضوء خائفا أن يخبو.. ثم أشغل السيارة وأعدل اتجاهي نحوه.. يهدر المحرك.. ثم تتمايل السيارة نحو الشمال.. هناك لابد أن أجده هناك.. تلك هي الوجهة التي وجد فيها الذهب وهي التي أخذ أب شنب إليها وتاه.. تاه في هذا الطريق بالتأكيد..

مرت ساعة وأنا أرى الضوء يترقرق بنفس الطريقة.. كان له سحر مغناطيسي.. أشعر به يناديني بطريقة ما.. قاومت النعاس بأن أعدت تشغيل المذياع ليهدر التشويش.. في البدء أدى الوظيفة فتبدد ثقل الأجفان.. واستعدت تركيزي.. وبدا الضوء الذهبي أقرب وأقرب.. واصلت حتى عاد النعاس من جديد مع بزوغ الفجر.. ولحسن الحظ أن الشمس كلما استيقظت خبا ذلك الضوء أكثر فأكثر حتى وجدت نفسي بلا وجهة والشمس أضاءت كل الرمال الحمراء.. فأوقفت السيارة ونمت مسندا رأسي على المقود..

-5-

حين عدت للوعي من جديد رفعت رأسي الذي ارتسم عليه خط أحمر رأيته في المرآة.. ثم انتهت لخيط اللعاب الذي يسيل من جانب فمي.. كان منظري مروعا.. عيناي ذابلتان ذائبتان.. أغلقت المذياع الذي كان لا يزال يبعث ذلك التشويش السخيف وخرجت متثاقلا من السيارة.. كانت الشمس قد ارتفعت تماما في السماء.. ضربت وجهي بينما أسير متمايلا كالسكارى حتى وصلت الحوض.. فتحت البرميل وشربت.. كنت أشعر بالماء يسير داخلي أحشائي الجافة.. الصداع بدأ يزحف خارجا من رأسي..

أعددت لنفسي الأكل على مضض وأكلته دون استساغة.. أمضغ وأنا أفكر في سهولة التجاوز عندما تكون في عمر معين.. كبيرا.. فأمي وأبي تجاوزا موت أخي زين بعد مجهود.. وبطريقة استبدال همهما بهم جديد.. إيمان.. كانت ولادتها دافعا لهما على المضي قدما بعدما حدث.. حتى بعد أن توفيت جدتي.. وانسحبت هي في الوقت الذي خرجت فيه إيمان للحياة.. لم يبد على والدي أنهما علقا.. لا أجد مبررا للفارق بين حال والدي وحالي سوى العمر.. فالشعور بالذنب كان ينخر فيهما أيضا.. أمي على الأخص.. لطالما كانت تنوح بجمل مثل "لماذا تركته؟ ولماذا لم أنتبه؟" كانت هي أيضا تلوم نفسها على الخطأ..

ربما كانت هذه خاصية للموت دائما ما تترك انطباعا بالتقصير وبأن هناك شيئا ممكنا كان ليغير النتيجة..

لكن الناس تتجاوز.. الكبار يتجاوزون.. أما نحن.. أنا ومروان.. لم نفعل.. لهذا يبقى لدي الشعور بأنني ما زلت طفلا.. لم أتخط ذلك الحاجز لأصبح راشدا.. أنا أفهم ما يتطلبه الأمر لأقفز هذا الحاجز..

لكن التكلفة.. تكلفة أن تكون راشدا وتتجاوز كل شيء كأنه لا يعنيك.. أن تفقد ذلك التمسك بالأشياء كأن فقدانها يعني نهاية العالم..

لا أستطيع تخيل شيء ذي قيمة بالنسبة لي.. إن لم يكن فقدانه يعني نهاية العالم..

صعدت السيارة من جديد عازما على مواصلة الطريق.. فكرت أنني كنت أتجه إلى الأمام ولو واصلت على ذلك حتى دون أن أرى الشعاع الذهبي فلن أضل.. وما إن شغلت السيارة حتى رأيت الضوء الأحمر ينبهني أن الوقود نفذ.. فأعدت ملأ الخزان.. حسبت ما تبقى لي.. سيكفيني لو واصلت على نفس الوتيرة لأربعة أيام أخرى..

أربعة أيام هل سأجد مروان حينها؟!

أدرت المحرك وضربت الطريق.. غمرني حقد شديد نحو أب شنب ومن معه.. بطريقة مفاجئة "الملاعين أولاد الكلب لو أنهم تركوا الرجل في حاله".. تمنيت لو قتلتهم.. لو أبدتهم هكذا من الأرض كأنهم حشرات..

تبعت خيط أفكار حتى قادني نحو أوش الله.. الفتى الشجاع الذكي.. لا بل الغبي الذي وضع نفسه ضحية للعالم.. أو لا هو العالم اللعين كما هو.. لكن ما يفعله خاطئ دون شك.. ولابد ألا يبقى هنا.. لن أسمح له.. قررت.. وأنا ممتلئ بالعزم والغضب أنني سآخذه معي للخرطوم.. سأجد له حياة أخرى أكثر أمنا ولها مستقبل لا يكون فيه مهددا بالموت في أي لحظة..

لكن ما دخلي أنا؟!

بل لك دخل.. بالتأكيد هو لا يريد أن يبقى هنا.. هو فقط مجبور.. وما أن يثق بأنني سأساعده فإنه سيقتنع..

لماذا أساعده؟!

لأنك لا تستطيع أن تعيش في عالم لا يساعد البشر فيه بعضهم..

وجدت نفسي بعد ذلك أتوق إلى سماع الأغاني.. بحثت في أدراج السيارة عن شريط تسجيل واستغربت أنني لم أفعل ذلك سابقا.. على أي حال لم تكن المحاولة ذات جدوى فعمدت إلى الغناء بنفسي.. بصوتي السيئ.. وذاكرتي الضعيفة في هذا المسار..

دمدمت بألحان.. وتنقلت بين الأغاني كيفما اتفق.. مستخدما يدي في الطرق على المقود كإيقاع..

غنيت لوردي.. لطه.. لأبو داود.. للأمين.. لمصطفى ثم انتقلت لفيروز وأم كلثوم وعبدالوهاب.. ارتكبت جرائم في حق الفن..

ثم انتبهت وأنا أنظر أمامي مطوحا برأسي مع الأغاني لسيارة أخرى.. وهنا انتصبت كل شعرة في جلدي الأبرص كالشوك.. بقي فمي معلقا مع آخر كلمة لفظتها ولم أجرؤ على إغلاقه.. سيارة.. بوكس كالتي أقودها.. تقف هناك إلى اليسار قليلا من إطار الرؤية.. وكلما اقتربت اتضح الخطان الأحمران على جانبيها.. ثم أكثر.. فرأيت غطاء المحرك مرفوعا.. وزجاج النوافذ كان مفتوحا..

فكرت للحظات ثم انحرفت عن مساري باتجاهها.. لم يبد أن أحدا في السيارة أو قربها.. عندما تقلصت المسافة بيننا لبضعة أمتار ترجلت من سيارتي.. أغلقت الباب فبدا ارتطامه كصاعقة تيقظ الأموات.. اقتربت خائفا.. من شيء لا أعرف ما هو.. بخطوات مرتجفة درت حول السيارة المتوقفة.. في الحوض برميل وحيد فارغ كالذي أملكه للماء.. اللوحة 3662 خ ت م.. أقترب من باب السائق الذي كان مفتوحا.. لا أحد خلف المقود والهواء يصفر.. أتفحص السيارة من الداخل.. أوراق مقطعة ألتقطها لأجد أنها من جريدة ما.. أتفحص التاريخ.. 4/12..

تعود لثلاثة أشهر مضت.. تزداد ضربات قلبي.. بعض الزجاجات الفارغة في المقاعد الأمامية والخلفية.. وبعض الملابس بأحجام مختلفة.. أخمن أنهم مجموعة من ثلاثة على الأرجح.. لا شيء آخر ذو قيمة سوى مجموعة من أشرطة التسجيل بلا عنوان..

أعود لأكمل دورتي حول السيارة لأصل للمحرك.. الغطاء المرفوع يعني أنها معطلة.. لم أكن أملك خبرة في ميكانيكا السيارات لكنني نظرت في الأسلاك والخراطيش.. زيت المحرك وماء البطارية.. يجب أن تكون تعطلت حتى لو لم أعرف أين العطل.. أفكر فيما حدث لهم وأنا أنظر حولي..

تحط عيناي على سيارتي.. ماذا لو فعلت بي نفس الشيء.. ربما هذه الحرارة الزائدة قد تؤدي بها للتعطل في أي لحظة..

ترى ما حل بهم؟.. وإلى أين اتجهوا.. من منظر السيارة فهم كانوا يتجهون شرقا.. لكن هل لهذا أي معنى.. ربما كانوا في طريق عودتهم لما تعطلت بهم السيارة..

أتخيل نفسي أسير وحيدا تحت هذا القيظ.. هل سأصمد؟.. هل سيمر مجنون آخر مثلي في الوقت المناسب أم أنه سيصل بعد أشهر.. حين يقتلني الجفاف والجوع.. تبدو ميتة سيئة..

هذا تماما ما حدث لمروان.. أجدني أجلس على الأرض قابضا رأسي بكلتا يدي.. أشعر أنني على حافة الجنون.. نظري مثبت على الرمال الحمراء تحتي.. أتخيلني نملة تسير هنا.. في هذا الاتساع.. معرضا للدهس..

أجد أن دواخلي تغلي من جديد.. شيء ما في جوهري يرفض.. يريد أن يكبت كل شيء ويسير.. فأتبعه.. أنهض من مكاني نحو سيارتي.. ثم أتذكر أشرطة التسجيل فأعود لأخذها.. أربعة أشرطة سوداء.. أختار

أحدها عشوائيا وأدخله في المسجل.. أكبس زر التشغيل.. ثوان ثم انبعث صوت محمد موسى وفي الخلفية بعض الموسيقى المبهجة.. كان شريط تسجيل للنكات.. لا بأس هذا جميل يأخذني الصوت لشعور جميل من الماضي.. أعدل مساري مرة أخرى وأنطلق متحاشيا النظر نحو السيارة المعطلة..

حين يحل المساء جالبا معه الويلات أتوقف.. لأن الشك بدأ يساورني في أنني ربما انحرفت بسبب التلال التي كان علي اجتيازها.. أخرج من السيارة لأطلق قدمي قليلا.. وأشعل النار في هذه الأثناء.. تركت أبواب السيارة مشرعة ورفعت الصوت في المسجل حتى أقصاه.. كان العالم ملكي.. وجدت أن أحد الأشرطة يحوي تشكيلة من الأغاني.. لا تنتمي لنفس الفنان أو الحقبة الزمانية.. ربما اختارها الشخص بحسب ذوقه.. وقد كان ذا ذائقة رائعة.. شعرت أنني لو عرفت الشخص.. لو قابلته وتحدثنا.. فسنجد الكثير من الأشياء المشتركة.. وربما انتهى بنا الأمر لنصبح صديقين مقربين..

رسمت في خيالي عدة سيناريوهات آملا أن تحدث في يوم ما.. قررت أن آخذ الأشرطة معي.. حين أعود طبعا- كنت متفائلا- وأن أستمع إليه دائما في العمل.. في الشوارع.. في حوش البيت.. وربما يمر شخص يوما ويقول إن ذوقنا متشابه وأنه كان يستمع لهذه الأغاني بالذات.. أخبره بقصة عثوري على الشريط.. فيتضح أنه هو صاحب السيارة.. وأنه نجا.. هو ومن معه.. كم سيكون ذاك شاعريا وجميلا ومليئا بالتفاؤل بعكس هذا الواقع..

حسبت الأيام لأجد أن هذا هو اليوم الرابع والعشرين الذي آكل فيه العدس.. وربما كان هذا فعلا سبب تعاستي.. وكرهي للأكل هذه الأيام.. بعد تناولي للأكل أحسست بأن أصابع قدمي تؤلمانني.. خلعت

حذائي ورميتهما جانبا.. وتسلل لجسدي شعور لذيذ بالخدر وأنا أخلع الجوارب عنهما أيضا.. شعرت بالنبض يضرب في أصابعي.. ثم غمست قدمي في الرمال.. آآآخ..

اغتسلت بعد أن تجردت من ملابسي وبالرغم من أنني وحيد تماما في هذه الصحراء إلا أنني ظللت مستترا بالسيارة.. أرمي بالماء على جسدي مما يضاعف الشعور بالبرد حين يمر النسيم.. أخذت جل وقتي وأنا أفكر "ستندم على إضاعة الماء لاحقا".. لفحتني رائحة العرق وأنا أرتدي نفس الملابس التي لم أعد أملك غيرها.. لأشعر بالقذارة مرة أخرى..

تسلل إلي النعاس بعد الأكل والاستحمام فغفوت جالسا.. لم أرد أن أنام الليل بطوله حتى لا أفوت ذلك الوهج الذهبي.. كنت أستيقظ من النوم كل بضع دقائق أطالع الأفق بحثا عنه.. ربما كان ذلك بعد منتصف الليل حين رأيته.. فتحت عيني لأراه يترقرق كالسائل المضيء تحت السماء.. نهضت من مجلسي قرب الجمرات مطفئا إياها ببعض الرمل.. ثم أدرت محرك السيارة وانطلقت.. كنت محقا فقد انحرفت في النهار عن المسار.. ليست بمسافة كبيرة..

كان الطريق هذه المرة أقل ارتفاعا.. فبعد تسلقي بعض التلال استقامت الأرض وكأننا ارتفعنا فوق هضبة.. وصارت الرمال على مستوى واحد.. كانت تلك فرصتي للإسراع في التقدم.. وهو ما فعلته للدرجة التي لم يعد النظر خلفي سوى جدار من الغبار.. على أنغام "الفطن الوسيم" كنت أنطلق.. أردد معها أحيانا إلى أن وصلت نهاية الهضبة فكان لابد وأن أنحدر للأسفل.. كانت الهاوية كبيرة عريضة.. والمسافة للأسفل تبدو وكأنني أنظر للنيل من أعلى برج في العاصمة..

اقتربت ممسكا بالمكابح شيئا فشيئا.. وما أن نزلت العجلات الأمامية حتى جذبتني الأرض نحوها فأصبحت أقاوم الالتصاق بالمقود دافعا إياه.. تقدمت المزيد ثم بدأت السيارة تنزلق نحو الأسفل ببطء..

عندما وصلت الأرض المستوية مرة أخرى عاد جسدي لطبيعته واختفى ذلك الشعور تحت الحجاب الحاجز بأن شخص ما يجره للأسفل.. تنفست من جديد.. وعندما رفعت رأسي لأرى الوهج أصابتني الحيرة.. كنت أحس بالرغم من أني لم أنظر له منذ مدة أنه أمامي فأنا لم أنحرف عن مساري.. لكنني وجدته قد غير مكانه.. عدلت درجة المقود إلى اليسار وانطلقت من جديد..

لا بأس كل شيء تحت السيطرة كنت أقول لنفسي وأنا أتفقد مؤشر البنزين والحرارة.. السير ليلا أفضل للسيارة من حرارة النهار..

سرت ظانا أنني أقترب أكثر من الضوء ومعه مروان.. ولكن ما حدث كان غريبا.. كنت أشعر أنني أدخل حيزا ما.. قالبا هولاميا خارج هذا المكان.. خارج الأرض.. شيئا لا أراه ولكنني أحس به بجوارحي.. كأنني أتباطأ.. كان الأمر أشبه بالثمالة.. حيث لا تعمل الحواس كما ينبغي لها.. وجسدي ذلك الشيء الحقيقي الوحيد الذي كنت متأكدا منه بدا لي غريبا.. أرفع يدي لأرى بقع البرص التي أحفظها كاسمي تبدو جديدة علي.. مختلفة.. كأنها تزحف مبدلة مكانها.. شيئا فشيئا أحسست أن الواقع يتبدل.. بل حتى الهواء الذي أتنفسه لم يعد كما هو.. فقد كثافته.. فكنت أعرف أن صدري يعلو ويهبط لكنني لم أكن متأكدا إن كان الهواء يدخل.. كان جسدي يتحلل تاركا جوهرا آخر لم أصله من قبل.. وذلك الجوهر.. هو ما دفعني للتوقف..

أدركت أنني لن أصل لذلك الضوء أبدا.. ذلك الضوء وهم.. غير موجود..

لكنني لم أكن هنا يوما لأصل إليه.. أنا هنا لأجد مروان.. صديقي الذي لا شك أنه مات في مكان ما من هذه الصحراء دون أن يعرف عنه أحد.. وأخذت أنا على عاتقي مهمة إيجاده.. لأنني الوحيد الذي

يعرف الحقيقة.. ذلك العبء الذي حمله كلانا حتى أخذه هو للموت.. وأنا أسير نحوه..

كلانا نبحث عن الغفران.. هو بالبيضة الذهبية.. وأنا بجسده الذي أريد إعادته لأهله كي يدفنوه.. ويتيقنوا من حقيقة موته.. ذلك الحق الذي حرمنا منه نحن.. عندما ذهب أخي الصغير مع النهر ولم يعد..

هل كان كل هذا ضروريا؟!.. أن نحاول أنا وهو تحويل تلك المشاعر.. مشاعر الذنب وطلب المغفرة إلى أشياء ملموسة.. تتبادل.. وتقبل.. وترفض.. هل هذا يجعلها حقيقية وموجودة أكثر مما لو قال إنه يشعر بالذنب ويطلب مسامحتي.. أما أستطيع أنا أن أخبر أهله أنني آسف أيضا لما حل به.. ويقبلون اعتذاري..

أم أن كل هذا ضروري ليس لأن المشاعر لابد أن تبلور في أشكال ملموسة.. ولكن لأن السعي إلى تحويرها مرهق.. ومتعب.. وهذا الشقاء لتحقيق المستحيل هو الثمن الحقيقي لامتلاك تلك المشاعر..

وبمجرد أن وضعت تلك الأسئلة أمامي حتى شعرت بالحرية.. تحررت من تلك القيود التي لم أرها وصرت مستعدا للعودة.. لأن الأجوبة كانت موجودة مسبقا.. أنا أشعر بالذنب حقا لما حدث لمروان.. ولصداقتنا التي ضاعت.. ولنفسي على التعاسة التي قضيت بها السنين الماضية من حياتي.. والتي لن تعوض.. لا شيء مما حدث يمكن تعويضه.. أنا فعلت كل ما بوسعي.. مثله تماما.. كي أبلور مشاعري تلك.. لكن أحيانا لا يحدث أن أصل لتلك الموازنة.. لكنني سعيت.. وشقيت.. وهذا هو المهم..

أنا أذكى من أن ألاحق وهما..

بامتلاكي لتلك الحقيقة المطلقة.. صفعت الباب في وجه تلك الشكوك.. لم يعد هناك ما يقول "لكنه بذل حياته ليحصل على

الغفران وأنت لا".. أرى الآن كم هي خاطئة العبارة.. لأنه حصل على الغفران قبل أن يموت.. هو فقط لم يدرك ذلك..

وبامتلاكي لحقيقة.. استطعت أن أرى بوضوح أكثر بين ضباب كل تلك الشكوك.. وبها صارت بوصلتي للمزيد من الحقائق الخاصة بي.. هكذا صارت الأرض الثابتة.. والسماء في الأعلى.. والشمس والقمر يتسابقان..

كنت ما أزال داخل ذلك الحيز وأشعر به ينسكب علي أكثر.. كثيفا.. كعسل دافئ.. حتى نمت..

-6-

في الصباح عاد كل شيء لطبيعته.. استيقظت بشعور جيد ما أن رفعت رأسي عن مقعد السيارة وكأنني أسير لبقايا حلم جميل.. خرجت وتمشيت قليلا سامحا لأشعة الشمس أن تمسدني.. سرت نحو البرميل في الخلف وشربت من الماء.. سرت بين الرمال.. أنظر نحو الهضبة التي نزلت منها الليلة الماضية نحو هذا الحوض.. أو البئر أو أيا يكن.. كان الانحدار يمتد على الجانبين ويميل إلى الأمام حيث كان الضوء.. وكأنني داخل حفرة أو فوهة..

بعد جولتي صرت أكثر نشاطا وحماسا للعودة.. أنا حر كنت أفكر مبتسما كالأبله أينما سرت.. أخذت عدة دورات حول المكان ثم عدت للسيارة.. أدرت المحرك.. وشغلت المسجل فانبعثت أغنية "الأماني المعذبة" بصوت خضر..

أدرت المقود حتى النهاية لأصعد المنحنى مرة أخرى.. كان لابد أن آخذه بطريقة مائلة لأنه من المستحيل على السيارة أن تقاوم كل ذلك الجذب نحو الأسفل.. تقدمت على القطر بزاوية ضيقة جدا.. مما سيطيل مسافة الخروج لكنها أضمن طريقة.. جاءتني الخاطرة وأنا أرى الامتداد الكبير لهذه الفوهة.. ربما كان قطرها يصل لمئات الكيلومترات.. فكرت أن هذا قد يكون المكان الذي سقط في النيزك.. الذي ضرب المنطقة قبل سنتين..

خرجت من الحفرة بعد الساعة.. ولم أكن متعبا ولا جائعا فواصلت متتبعا الطريق الذي جئت منه.. بالخيال.. أو الحدس سرت للأمام..

لم أكن متوترا من طريق العودة.. فنظريا لو أنني اتجهت جنوبا لأي مدة من الزمن فلا بد أن أصل الطريق الذي يربط الخرطوم بالشمال.. وحين أصله فإن كل شيء سيتضح بعدها.. كنت أملك ما يكفي من

الوقود والماء.. توقفت بعد عدة ساعات أخرى للأكل.. ثم عدت للطريق.. واصلت السير حتى بعد أن غربت الشمس.. فقد كانت الثقة تتدفق متخذة القرارات..

في اليوم التالي كنت أيضا أفضل حالا.. في الطريق كنت أخطط لما سأفعله حال عودتي.. سآخذ أوش الله وأجد له عملا هناك ربما في مطابع الجريدة.. وسأتركه يسكن معي مؤقتا حتى نجد حلا.. بالرغم من أنني أفضل أني يعود للدراسة وينهيها.. في ذلك الوقت سأعود لإجراءات الزواج.. نعم.. سأحضر أهلي للخرطوم ومن ثم نذهب لليلى وننهي الأمر في أقرب وقت.. أكاد لا أطيق صبرا لأبدا الفصل الجديد من حياتي..

بينما كنت غارقا في تلك الأفكار.. انتبهت أن سيارة أخرى تسير في الصحراء.. رأيت الغبار في المرآة بعيدا.. في البداية حسبتها زوبعة ما لكن المدة طالت والغبار كان يقترب مني.. ثم سمعت صوتا أقرب للرصاص.. بعدها تأكدت أن هناك أحدا غيري يجوب هنا.. توقفت وخرجت لألقي نظرة فرأيتهم.. رأيت الشاحنة ذات الحوض بلونها الأخضر العسكري.. وعلى ظهرها يقف رجلان مدججان بالسلاح يلوحان به للأعلى.. والغبار من خلفهم ينظر بالعاصفة..

ترددت كثيرا في اتخاذ القرار.. بالفرار أو البقاء.. كنت أعلم أن سيارتهم تلك أسرع من التي أركبها.. ومن يعلم ربما يستطيع أحدهم التصويب من تلك المسافة أو بعد أن يقتربوا قليلا.. انتبهت أن سرعتهم تتزايد.. وقدماي بدأتا بالتمايل يستحثاني أن أسرع..

صعدت داخل سيارتي من جديد وأدرت المحرك.. ثم تذكرت أنني لو صدف وغاصت سيارتي فستكون النهاية.. نظرت من جديد في المرآة أحاول تقدير المسافة.. ربما لو أسرعت فلن يلحقوا بي.. تلاحقت

أنفاسي وأنا أفكر فيما قد يريدونه.. هؤلاء المختلون قد يقتلونني لمجرد المتعة..

قررت الفرار وضغطت على دواسة البنزين حتى النهاية.. راحت السيارة ترتج وهي تأكل الرمال متقدمة.. سمعت طلقات نار أخرى حملتها الرياح لكنني لم أتوقف..

صعدت تلال وهبطتها.. نثرت الرمال خلفي وغصت وخرجت.. كانت السيارة تبدو سريعة كالريح أحيانا وبطيئة كدقات الساعة في لحظات أخرى.. في المرآة.. كانت سيارتهم تلاحقني كأننا مربوطان بخيط.. وأنا أسحبهم خلفي أينما ذهبت.. بل وكانوا يقتربون أكثر وأكثر.. أرى المسافة بيننا تقل وسيارتهم تكبر حجما.. ربما كانت لتكون لي فرصة بالنجاة فعلا لو لم تظهر السيارة الأخرى من الأمام.. لا أعرف إن كانت محض مصادفة أم أنهم تواصلوا معهم ليلحقوا بنا.. ولكن كيف عساهم أصلا أن يعرفوا المكان في هذه الصحراء.. حيث كل شيء متشابه..

ظهرت العربة الثانية أيضا بالرجال على ظهرها من اليسار.. كانت أمامي وتنطلق بسرعة مطلقة زئيرا مخيفا.. التفت نحوهم وأنا أقود بأقصى سرعة.. كانوا يقتربون واستطعت أن أرى وجوههم الغاضبة تصرخ بي أن أتوقف.. ارتعدت وأنا أرى فوهات أسلحتهم موجهة نحوي.. ظننت أنهم لن يجرؤوا.. وقد أخطأت.. فبعد أقل من ثانيتين سمعت صوت الرصاص يرتطم بمؤخرة السيارة.. أظنها كانت تهديدا.. وقد نجح لأنني رفست المكابح بسرعة وأنا أبتلع ريقي..

بقيت بعد ذلك ممسكا بالمقود.. أتصبب عرقا.. وفي عقلي تمر أسوأ الخيالات لما يمكن أن يحدث.. كنت أسمع سيارتهم تقترب أكثر.. ومعه زعيقهم كالقبائل البربرية في الحروب.. رصاص في الهواء ثم سيارة تتوقف قربي.. ما زلت أقاوم النظر.. ثم سمعت أبواب تفتح وتغلق.. وأشخاص يسيرون..

"عندما تسمع صوت نار تتوقف مباشرة يا غبي أتفهم؟" سمعت صراخ أحدهم فالتفت أخيرا..

رأيتهم أربعة أحدهم ملثم.. يرتدون ملابس عسكرية خضراء.. وأعينهم تقدح شررا..

"انزل" قالها أحدهم وهو يفتح الباب بقوة.. نزلت ناقلا عيني بين سلاحه ووجهه.. سمعت صوت من خلفي يعبث داخل السيارة.. ويرمي محتوياتها أرضا.. التفت.. وإذا بضربة تخترق فكي..

انظر إلي عندما أكلمك -صرخ الشخص أمامي- ما الذي جاء بك هنا؟.. هاا!"..

"أأ.. أنا أبحث عن شخص هنا.. تاه.. و"

"كاذب" لم يعطني فرصة لأكمل..

جاء الرد من شخص خلفي يبعثر داخل سيارتي..

"لا تكذب كلكم تأتون هنا من أجل الذهب.. مجانين وكأننا سنترككم وفر على نفسك الوقت وأخبرنا أين خبأته"..

"لا لم أجد شيئا" قلت وأنا أهز رأسي.. فانتفض الجندي وترك السلاح من يده.. "ارفع يديك" قال وهو يبحث في جيب القميص ثم ينزل ليتأكد من خاصرتي ثم جيوب البنطال.. أخرج المحفظة من جيبي وفتحها "منذر مالك" قال بصوت عال.. "ولماذا سخطك الله هكذا يا قبيح" "اخلع حذاءك" قال وهو يعود ليمسك بالسلاح راميا بالمحفظة أرضا..

هؤلاء الأشخاص مخابيل.. لا يبدو أنهم سيتفاهمون.. فكرت وأنا أخلع حذائي واقفا ثم أدفعهما باتجاهه.. بعد ذلك انتبهت أن السيارة الأخرى قد وصلت.. محدثة جلبة كبيرة هي وركابها.. نزلوا يهللون.. ثم

جاء السائق وضربني انتقاما.. مذاق الحديد الصدئ ملأ فمي فمسحت شفتي التي سال منها الدم..

"لماذا لم تتوقف يا حيوان؟" كدت أضحك وأنا أسمع العبارة تردد.. هل يلقنونهم كل هذا..

بعد ذلك وقفت معهم كالمتفرج أراهم يفككون مقاعد السيارة.. والمفارش.. وينثرون الطعام وكل محتويات الحوض.. كل ذلك بهمجية شديدة.. استمر ذلك لنصف ساعة تقريبا قبل أن يقتنعوا أن لا شيء عندي.. سألوني مرة أخرى أين أخبئ الذهب فهززت رأسي نافيا.. سمعتهم يتشاورون بشأني.. أصبح عددهم ثمانية.. اثنان منهم يغطيهم الشيب وثالث يبدو في منتصف العمر والبقية شباب.. ربما أصغر مني عمرا.. راح أحدهم يغسل خيارا من الذي نثروه مسبقا ويأكله.. ثم قاموا بتجميع طعامي ووضعه في سيارة.. وكذلك البنزين وكل ما له فائدة.. ازداد خوفي مما سيحدث.. إن هم تركوني بلا طعام أو وقود فمن الأرحم أن يطلقوا علي رصاصة بدل أن يتركوني للموت البطيء والعذاب.. لا لن أسمح لهم أن يرحلوا بهذه الطريقة فلست متأكدا من المدة التي سأحتاجها لأصل..

بعد أن أنهوا مناقشاتهم راقبت أحدهم يأمر اثنين منهما أن يصعدا سيارتي.. في مقعد السائق.. تحركت قدماي دون تفكير نحوه..

"لحظة لحظة.. لن تأخذ سيارتي هكذا" وجدتني أمسك بالباب قبل أن يغلقه..

"ابتعد" صرخ بي أحدهم وهو يجرني من الخلف.. قاومته دافعا يديه عني ومتشبثا بالباب.. ثم وجدتهم يتكالبون علي وأحدهم يرفع السلاح في وجهي..

"تحرك.. هيا ابتعد"..

"لا لن تتركوني هنا.. أطلق النار.. لكنني لن أموت كالكلاب هنا" صرخت به.. كانت رغبتي في الحياة قوية..

رأيتهما ينفثان الهواء بنفاد صبر.. ثم يجرراني مرة أخرى.. وبعض اللكمات كانت تصيب وجهي دون أن أتزحزح من مكاني.. لكن ما أرخى قوتي حقا هو كلام أحدهم.. والذي يبدو الأعلى رتبة بينهم..

"اصعد إلى الحوض يا غبي إذا كنت لا تريد الموت حقا.. وإلا رميناك هنا" كان يشير إلى حوض سيارتهم المركونة إلى يميني.. وجدتني أفلت قبضتي بعض الشيء.. ومن ثم قام الجندي بالباقي.. لم أكن متأكدا إن كنت أسير أو أنهم حملوني نحو حوض سيارتهم ورموني فيه.. كنت مشوش الذهن.. لا أعرف مصيري.. تشبثت بجوانب السيارة بكلتا يدي وأنا أجلس.. لم أشعر بالاطمئنان إلا عندما تحركت السيارة بعد أن صعد جندي وجلس قبالتي.. بيننا يقبع غطاء ذا لون أصفر متسخ.. مفروشا.. أمسك الجندي بقضيب في السيارة وبيده الأخرى مسح على سلاحه كأنه ينبهني.. تبادلنا نظرات متوعدة تغني عن الكلمات..

بعد عدة ساعات من التحرك بدا الجندي وكأنه نعس فتمايل قليلا دافعا الشيء الذي يقبع بيننا بقدمه وأفسح لنفسه مجالا وتمدد فيه.. جلت بنظري أتابع السيارة الأخرى تقطع الصحراء موازية لنا.. السيارة التي استأجرتها.. أما سيارتهم الأخرى فقد افترقت عنا في نقطة وذهبت لحال سبيلها.. أيا يكن ذلك..

تراخت عضلاتي أنا أيضا وخففت من شدي على جنبات السيارة وجلست براحة أكبر.. لكن الغطاء الذي دفعه الجندي أخذ حيزا من مكاني وصار قريبا مني أكثر.. جلت بنظري فوق الغطاء.. إلى أن وصلت نهاية مكشوفة.. فرز منها جسم أسود يغطيه الغبار.. يبدو جافا ومنكمشا.. وله نتوء.. دققت فيه محاولا تبينه.. لكن ذهني لم يتخيل..

مررنا بتل جعلنا صعوده وهبوطه نرتج بشكل متكرر.. فرأيت الجسد أمامي يتمايل.. وانكشف المزيد من الغطاء فرأيتها.. الساق البشرية الجافة كغصن شجر..

لقد كانت جثة تقبع أمامي ولم أنتبه لها طوال الطريق.. هلعت.. ونظرت نحو الجندي المستلقي بكل راحة قرب الجثة.. لا فرق بينهما.. هل سيكون هذا مصيري؟..

ازدردت ريقي وأنا أفكر بالقفز.. لكن إلى أين أذهب؟.. ثم هناك السيارة قربنا وكلهم مدججون بالسلاح فلا فائدة..

ثبت نظري نحو السلاح القابع على صدر الجندي.. الماسورة اللامعة.. الزناد.. وخزنة الرصاص.. ثم الحبل الذي يلتف حول عنقه جاعلا انتزاع السلاح ضربا من الجنون.. ثم أنني لم أطلق سلاحا من قبل..

اهدأ.. قلت لنفسي.. لو أنهم يريدون قتلك فما الذي يدفعهم للانتظار..

أعدت نظر نحو الجثة.. ثم زحفت نحوها ببطء.. تأكدت أن الجندي لا يزال نائما.. ثم نظرت من الزجاج الخلفي إلى داخل السيارة.. لم يبد أن الجنود الآخرين ينتبهون إلي.. عدت نحو الجثة وأزحت قدرا بسيطا من الغطاء لأرى أكثر.. ثم رفعته أكثر حتى وصلت.. اليدان نحيلتان لدرجة تبدو فيها الأوتار والعظام كمومياء.. حاولت رفع الغطاء أكثر لأصل إلى الوجه.. لكن جزءا منه كان عالقا أسفل الجثة.. تحرك الجندي في تلك اللحظة فجفلت تاركا الغطاء يسقط.. غطى الجندي وجهه بيده حاجبا أشعة الشمس عن وجهه..

عدلت عن رأيي.. قررت انتظار النهاية لأنني لم أعد قادرا على التفكير.. تعبت من كل التوتر والترقب.. وقررت النوم كجثة ثالثة..

-7-

وصلنا في اليوم التالي لوجهتنا.. ذلك أن سائق الشاحنة ذاك قطع بنا الصحراء نهارا وليلا.. وعرفت فيما بعد أنه يملك جهاز تحديد للمواقع في السيارة.. لم نتوقف للأكل.. وعندما تبدى بي العطش طلبت من الجندي ماء فمد هو يده لمن هم في الداخل فدفعوا لنا بزجاجة شربنا منها نحن الاثنين ثم عدنا لصمتنا المعهود..

وصلنا.. لمجموعة مبان وسط الصحراء.. وفقط حين ظننت أنني أعرف أشياء فوجئت بالمزيد.. ربما كنت حقا أعيش خارج الأحداث طوال حياتي وأراقبها.. كانت ثلاث مبان كلها بطابق واحد وبينها مسافة شارع.. أحدها يبدو أكبر مقارنة بالبقية.. وحول تلك المباني يوجد سور حديدي يحيط بها من أربع جهات.. في الداخل كانت هناك مولدات وأسلاك ما يعني أن المكان مزود بالكهرباء.. رأيت.. ونحن نمر عبر البوابة للدخول لافتة كتب عليها بالإنجليزية شركة شورجن المحدودة.. حاولت تذكر وربط بعض المعلومات التي كانت لدي.. الاسم يعود لشركة تعدين ألمانية استقالت عن التنقيب في المنطقة قبل عدة سنوات.. ويبدو أن هؤلاء اتخذوا من المباني المتروكة مقرا لهم..

عبرنا السياج إلى الداخل وتوقفنا في الموقف حيث كانت مجموعة كبيرة من السيارات العسكرية المركونة تقف بشكل عشوائي.. ثم على مبعدة من حيث توقفنا استقرت شاحنتان من شركة كات اللتان تستخدمان للحفر.. قفز الجندي أمامي حالما توقفنا خارج العربة وبدأ يفتح أطراف حوض السيارة.. ثم أشار إلي بالنزول..

"خذه إلى مكتب الرائد" قال أحدهم للآخر ففهمت أنه يشير إلي.. كنت حتى تلك اللحظة مليئا بالحيرة.. سرت بجانب الجندي دون دفع أو إهانات.. ولا أعلم ما سبب تغير طريقتهم في التعامل.. كان الجندي

أمامي يصفر طربا.. بينما رحت أحدق في الأرضية الأسفلتية والمرصوفة مذهولا من ذلك الجهد الذي بذلته تلك الشركة.. مررنا بالمبنى الأول المليء بالأبواب والنوافذ وكأنه مبنى سكني من نوع ما.. راقبت عددا من الأشخاص بملابس مدنية.. بل وتحتية يجوبون في الأرجاء متسكعين..

"أووه هذا المجرم وصل اليوم؟" قال أحدهم عندما مررنا بقربه..

"لا يملك أي شيء هل تصدق لا فائدة منه" أجاب الجندي الذي يقتادني مشيرا بوجهه نحوي..

دخلنا بعد ذلك لمبنى آخر ذي أبواب زجاجية لا يمكن الرؤية من خلالها.. في الداخل تبدل الجو إلى برد ما أن عبرت الباب بسبب أجهزة التكييف.. والممر الأبيض الذي أصدر صوتا ما إن خطوت فيه كان لامعا ونظيفا بطريقة غريبة.. وفوقه.. ترتص المصابيح بإضاءة مريحة.. اجتزنا عدة ممرات ومكاتب.. ثم توقفنا لدى أحدها وعلى لافتته الخشبية كتب بروجكت مانجر.. طرق الجندي الباب ثم حيا الضابط الجالس على الكرسي خلف المكتب.. ببذلته الزرقاء وملامحه الآمرة.. كان أصلعا وذا بشرة لوحتها الشمس.. على أنفه الضخم كانت تستقر نظارة بعوينات كبيرة..

"هذا الشخص وجدناه في الصحراء كان ينقب عن الذهب" قال الجندي جازما..

تكلم الرائد وهو ينظر لأوراقه.. كان له صوت أجش..

"هل أنهيتم ورديتكم؟"

"نعم.. سيادتك"

"إذا ارتاحوا الآن"

"شكرا.. سيادتك".. قالها الجندي وانصرف تاركا إياي في حيرة..

متعت نظري بالأثاث الجلدي الذي ملأ المكتب.. ثم انتبهت أنني أقف على سجادة وثيرة.. سميكة قد تفي الغرض بأن تكون فراشا للنوم.. كذلك أمام الرائد على الطاولة كانت توجد حافظة تتدلى من جانبها ربطة الشاي وصحن للتمر والخبائز.. أي رفاهية هذه التي يتمتعون بها هنا.. في الصحراء..

رفع الرائد رأسه وكأنما تذكر وجودي ثم اتكأ بظهره على كرسيه الضخم..

"تفضل اجلس"..

اقتربت من مكتبه لأجلس على الكرسي مقابله وأنا استثقل نظراته المتفحصة.. كنت أفضل حالا عندما لم ينتبه لوجودي.. استخدم بعد ذلك أسلوبا سخيفا في جعلي أشعر بعدم الراحة.. فالجلوس لا يعد شيئا أمام ثقل الصمت الذي ملأ الغرفة بعد ذلك.. الانتظار هو السبب أعني أنا لا أملك شيئا لأقوله أنا لا أفهم لما أنا هناك أصلا.. لذا فعلي انتظار سيادته ليفسر.. فكرت أنني أملك كل الوقت في الدنيا لا بأس في مجاراته..

"إذا - قال كاسرا الصمت- وجدوك تنقب في السحالب.. هذا يعتبر تعديا على المال العام"..

كانت له تعبيرات وجه مضحكة.. تكلم مشمئزا من تصرفي وكأنه نهاية العالم..

"عفوا.. لماذا؟.."

شابك بين أصابعه وأراح يديه على الطاولة.. ثم تكلم بهدوء بنفس النبرة المشمئزة..

"سمحنا لكم بالتنقيب في كل مكان.. كل مكان.. عدا بعض المناطق التي.. ولأسباب أمنية ومادية قررت الحكومة الاحتفاظ بحق التنقيب فيها لها.. كي تفيد من الموارد للصالح العام.. لكن أمثالك يصرون على أن منفعتهم الخاصة تتعدى الجميع.. هذا عمل مشين فعلا"..

فكرت في عقلي وأنا أسمع الترهات التي يتفوه بها إن كان يصدقها فعلا.. أي سماح وأي حق.. الصالح العام! هذا يعني صالحهم هم بالطبع..

"في الحقيقة أنا لم أكن أعرف بهذه القوانين.. أو أن التنقيب في السحالب ممنوع"..

قاطعني بغيظ..

"لكن الجهل بالقانون لا يعفيك من مسئوليتك تجاهه.. كلكم تكررون نفس الأخطاء.. ثم لو جئنا للأمر من ناحية أخرى.. لماذا تعرضون أنفسكم لهذه الأخطار.. هل تعرف كم أنت محظوظ لأنهم وجدوك حيا.. الجنود هنا يعثرون على الجثث في كل وردية يخرجون فيها.. البعض لا يبقى منهم سوى العظام عندما يعثر عليهم.. أي استهتار هذا"..

لم أرد عليه كان واضحا أنه يفرغ في غضبا لست أنا حتى السبب فيه.. لا أظن أن موت الناس يعنيه في شيء حقيقة.. ربما قليلا لكنه يتذمر من ذلك كحال أي شخص آخر.. بالطبع إذا كان يظن أن الدافع الذي جعل الناس يخاطرون بحياتهم من أجل لقمة العيش هو الاستهتار فلا فائدة ترجى من إيضاح شيء له.. آثرت الصمت..

هز رأسه وربما شعر بانتصار كأن كلمة الحق كانت معه لذلك لم أرد..

"على كل حال.. سيتم مصادرة أي ذهب وجدته في المنطقة.. وستوقع على إقرار بأنك لن تنقب في منطقة تخص الحكومة سواء السحالب أو غيرها.. بعد ذلك سيوصلونك إلى السوق"..

أشاح بوجهه عني بعد ذلك..

"هناك غرامة عليك أن تدفعها عقوبة لك.. الضابط في الخارج سيقوم بكل الإجراءات اللازمة"..

قبل أن أنصرف ألح السؤال علي لأطرحه.. لأن الأمل انبعث في من جديد بعد كل هذا..

"احم.. أنا.. كان لي صديق دخل السحالب قبل مدة من الزمن ولم يعد.. وتعرف أهله لم يصلهم خبر منه لمدة تزيد على الشهر.. فكنت أريد أن أعرف ربما وجدتموه أنتم أو تعرفون ما حل به"..

"أرأيت هذا تماما ما أتحدث عنه ما الداعي لكل هذا الشقاء.. ما اسمه؟".. "

"مروان ياسر"..

"هل كان يحمل أوراقا ثبوتية معه حين ضاع"..

"لست متأكدا لكن على أغلب الظن"..

"لا أظن أنني سأتذكر الاسم لأنني أخبرتك تصلنا عشرات الجثث.. على العموم سأخبر الضابط وسيساعدك إن كان ذلك ممكنا.. والآن أخبره أن يدخل وأنت في طريقك للخروج"..

انسحبت بعد ذلك من المكتب وعاد هو لشاشة الحاسوب أمامه.. في الخارج كان الضابط ينتظر متجولا في الممرات فأخبرته أن الرائد يريده.. وانتظرت أنا الآخر متجولا.. اقتربت نهاية هذا الفصل من حياتي.. لا أظن أنني سأتورط في شيء كهذا مرة أخرى.. ربما كان ذلك الرائد محقا في شيء.. أن الحياة.. حياة الإنسان لابد أن تكون الأكثر قيمة في هذه الدنيا..

-8-

بعد أن خرج الجندي تبعته عبر الممر نحو مكتب قصي.. في سقف ذلك الممر كان هناك مصباح يومض مرارا كأنه يلفظ آخر أنفاسه.. لم أستطع تخطي الضوضاء التي كان يصدرها المصباح بينما أنتظر الجندي ليفتح المكتب.. كان يجرب عدة مفاتيح من سلسلة في يده.. ويبدو أنه مكتب لا يستعمل كثيرا.. عندما استطاع أخيرا فتح المكتب عبرت أنفي رائحة غبار مهيجة أنفي.. أضاء الجندي المكتب في الداخل.. وأراح سلاحه متكئا على الحائط ملقيا نظرة تهديدية لي.. تهاويت على الكرسي بينما بدأ هو بالبحث في الأدراج والرفوف..

حملت رأسي بين يدي ونظري مثبت على الأرضية.. مغبرة وعليها آثار خطواتنا.. في الخلفية كان الضابط يتمتم وهو يبحث.. وأتذكر أنه سألني عن شيء ما.. فأجبته مقتضبا "هممم نعم"..

أظن أن الشعور الذي داهمني هو التعب.. أو الحزن الذي يجيء مع اقتراب النهايات.. شيء مشابه لنهاية السنة الدراسية.. أو نهاية إجازات العيد.. حيث الرهبة من البدء بشيء جديد.. أو التفكير فيما حققته طوال الفترة الماضية..

عاد الجندي بعد كثير من الدخول والخروج والبحث في المكتب وخارجه ليجلس قبالتي.. وضع صندوقا إلى جانبه على الطاولة وفرش عدة أوراق وأقلاما أمامه.. بدأ بملء بياناتي من الاسم وتاريخ الميلاد وحتى السكن والعمل وكل صغيرة وكبيرة.. ثم وضع الورقة في ملف وانتقل للتالية حيث كتب عليها إقرار مسبق بأن الموقع أدناه لن يتجاوز القانون وينقب في مناطق محظورة ولن يتاجر بالذهب بطريقة غير شرعية ولن يقوم بتهريبه خارج البلاد.. كانت ورقة مليئة

بالمحظورات وفي ذيلها كتب ما معناه أن تجاهل القانون سيعرض الموقع إلى أقصى العقوبات التي يراها القانون مناسبة..

أثناء قراءتي لتلك المحظورات كنت أفكر في كمية الأشياء التي سأحرم من القيام بها.. وللحقيقة شعرت بنوع من الانزعاج وأنا أوقع عليها فربما احتجت في يوم ما أن أهرب الذهب خارج البلاد.. من يعلم ما قد تؤول إليه الحياة.. على كل كنت أضحك وأنا أمد إليه بورقة الإقرار الموقعة.. لأن شيئا ما كافكائيا بدا في تلك الإجراءات التي تبدو بلا معنى حين تفكر فيها..

بعد أن تسلم الجندي الأوراق أخذ بضعة ثوان ينظر فيها إلي كأنه يفكر في الطريقة التي سيحل بها المعضلة أمامه.. تأفف قليلا ومسح شعره الذي غزته بعض خصلات الشيب ثم تحدث..

"والآن بالنسبة للخمسة آلاف التي ستدفعها كغرامة.. عندما فتشناك لم يكن معك أي نقود تقارب هذا المبلغ أليس كذلك؟"

خمسة آلاف! من يحدد مثل هذه المبالغ وكيف يقدرونها.. حتى سؤاله المستفز لم يكن ذا جدوى فهو ينوه إلى ما هو ظاهر.. قلت بغيظ..

"لا ليس معي مثل هذا المبلغ الآن"..

"هذه مشكلة" قالها وعاد لتأفف "سوف نضطر للحجز على سيارتك"

"تحتجزون سيارة قيمتها مئات الآلاف من أجل خمسة! هذا غير معقول.. لا لا السيارة ليست ملكي أصلا.. وثم كيف سأعود إن أخذتموها"..

"السيارة كانت معك وهذا كل ما يهم.. أن كنت تريدها فعليك دفع المبلغ.. ولا تقلق سنوصلك للسوق ومنه ستجد طريقك للدبة"..

عرفت أن الأمر لا علاقة له بالعقوبة.. هم يريدون المال وإلا فما الذي يضمن أن أعود لسيارة ليست ملكي..

"لكن هذا غير معقول أن أعود لأدفع لكم المال.. كيف سأعثر على هذا المكان!"..

"لا السيارة ستكون في مقرنا في الدبة.. المدينة.. وهناك ستسدد الغرامة.. وتأخذ سيارتك"..

هززت رأسي بلا حيلة.. كانت هذه هي الإجراءات التي تفتقد للمعنى الإنساني.. كل شخص ينفذ الأوامر دون النظر لمدى فاعليتها من الأساس.. ويتحول كل شخص لعجلة يقودها النظام كالآلات.. كان الجندي أو النظام قد حصل على ما يريده مني فجاء دوري للمطالبة بالخدمة..

"لقد أخبرت الرائد أنني أبحث عن شخص تاه اسمه مروان ياسر.. وأخبرني أنكم ستبحثون عنه"..

"آآآه نعم . ثم مد لي بالصندوق الورقي الذي أحضره مسبقا . هذا كل ما وجدناه من الأشخاص الذين عثرنا عليهم أموات أبحث بينها علك تعثر على مفقودك.."

بعد ذلك نهض الجندي بالأوراق وحزم سلاحه على كتفه خارجا.. تركني لهدوء الغرفة الخانق.. اقتربت من الصندوق المتروك على الطاولة متوجسا.. على غطائه بقعة دائرية الشكل تبدو من شخص وضع كوب شاي عليه وتركت أثرها.. كما أنه كان ناتئا للخارج من شدة امتلائه.. أزحت الغطاء.. فامتلأت الغرفة بخليط روائح.. لأشخاص..

وكأن متروكاتهم ما زالت تحتفظ بأجزاء منهم.. كانت توجد عدة محافظ جلدية تتواتر ما بين السوداء والبنية.. ثم بعض الهواتف القديمة الطراز.. وواحد جديد يقف غريبا بينهم.. كانت هناك بعض الأوراق المطوية والمتآكلة الأطراف.. والكثير الكثير من البطاقات.. بطاقات بنوك.. رخص قيادة.. بطاقات شخصية.. بطاقات عمل من وظائف سابقة.. قلبت يدي بينهم.. مروان قد يكون بين هؤلاء..

أول بطاقة وثبت من الصندوق ووقعت على الأرض.. كأنها تطلب انتباهي.. رفعتها لأقرأ الاسم.. علي عبدالرزاق محمود حسين.. من مواليد القضارف عام 1974.. ترى هل يهم هذا الآن.. صورته الشخصية واضحة المعالم على غير العادة.. بشرة سمراء.. وعينان حادتا النظرة يحيطان بمنبع الأنف الذي ينزل مائلا نحو اليمين قليلا وعليه ندب.. يبدو أن هذا العلي قد كسر أنفه في مرحلة ما من حياته وظل هكذا مائلا.. ترى هل يهم هذا في شيء؟!.. هل لهذا معنى؟!.. أتخيل أن الناس كانوا ينادونه "أبو الأنف المائل".. أو "أب نخرة".. ولا شيء آخر يقال عنه.. أعني هل هكذا تلخص حياته بتلك المعلومات ثم نضيف أنه توفي تائها في صحراء السحالب..

عدت بنظري نحو الصندوق.. ربما لو عثرت على بطاقات أخرى تخصه في هذه الفوضى فسيبدو أكثر واقعية.. ومكتمل.. بطاقة بنك مثلا صدرت من فرع في الخرطوم.. ستخبرني أنه في مرحلة من حياته انتقل من القضارف ليعيش في الخرطوم.. وربما اضطر لفتح حساب في البنك.. ربما كان يعمل في وظيفة حكومية مثلا ينزل فيها المرتب نهاية كل شهر.. لكن.. أن أجد بطاقة كهذه ستقول أن مرتبه ذاك لم يكن يكفيه لذلك قرر تجريب حظه هنا.. كحال جميع من هم داخل الصندوق.. لحظة لحظة.. فكرت وأنا أمسك بمحفظة سوداء منتفخة.. الكثير من المعلومات سيكون بداخلها..

من الخارج كانت متشققة الزوايا.. تبدو قديمة.. فتحتها فلم أجد بداخلها أي نقود.. بالطبع سيكون الجنود قد أخذوها.. في الجيوب الداخلية كانت توجد أربع بطاقات.. البطاقة الشخصية باسم إبراهيم شاهين.. وهناك رخصة صدرت قبل أربع سنوات من عطبرة القريبة من هنا.. بطاقة مصرف المزارع.. وبطاقة أثاث المحاميد.. ما الذي دفعه للاحتفاظ بهذه البطاقة؟!.. هل كان يفكر بتأثيث بيته وهذا يعني أنه ربما كان مقبلا على الزواج أو.. لا أدري ربما احتفظ بها لتأخذ حيزا.. ليشعر بأهمية ما من محفظة ممتلئة.. عدت لأتأكد من عمره فانتبهت أن إبراهيم كان صغيرا.. أربعة وعشرون عاما.. لا تبدو صورة شخص في الأربعة والعشرين!..

عبثت بأصابعي في كل مخابئ المحفظة.. فأخرجت منها صورة بالأسود والأبيض.. لزوجين.. الرجل بشعره الكث مرتديا بزة رسمية.. وزوجته مولية إياه ظهرها.. عدت لصورة إبراهيم.. أخذ العينين من والدته.. والأنف من أبيه كذلك عظام الوجه وتشكيله.. ترى هل يعلمان ما حل بابنهما؟!..

غمرني الكثير من الأسى وأنا أتنقل بين هؤلاء البشر.. كلهم يحملون قصصا ناقصة.. كنت أعلم أنني أبحث عن مروان.. ولكنني كنت أتوه بين الشخوص الأخرى.. ثم أذكر نفسي وأعود للبحث.. الكثير من البطاقات.. والكثير من الفضول.. ترى لماذا لماذا لم يسلموا هذا الصندوق للشرطة؟؟.. لماذا لا يخبرون أهاليهم بالنهاية؟؟..

محمد.. سعد.. خالد.. محمد آخر.. عبدالرحمن.. هناك أيضا تسفاي! أريتري الجنسية.. جون من الجنوب.. أريد مروان أين مروان.. هذا مروان عبدالحكم.. تشابه في الأسماء.. أحصي الأعداد حتى الآن اثنان وعشرون بطاقة مرت علي.. ليس مروان بينها.. مروان.. مروان.. أين مروان؟.. هذا مركس قبطي يرقد هنا.. تمر خاطرة أنني نجوت من أن أكون هنا أيضا.. هل كنتم ستفسحون لي المجال يا شباب؟..

بعد أن تجاوزت السبعين بطاقة أخذت الصندوق وبركت على الأرض..

يا رب مروان يكون هنا..

خرجت مني العبارة بشكل عفوي.. تحمل الكثير من التشاؤم وبعض الأمل..

بعد مائة وسبعة وأربعين بطاقة.. ومحفظتان.. ظهرت لي البطاقة.. قرأت الاسم مروان ياسر.. وبطريقة آلية أزحتها على جانبي حيث أضع البطاقات الأخرى.. ثم توقفت فجأة.. كأن الاسم استقر في حلقي ولم أبتلعه.. عدت أمسكها على ظهرها تكتب العبارات التقليدية في حال ضياع البطاقة لابد من الإبلاغ.. أقلبها..

مروان ياسر الطيب ياسر..

دنقلا..

13/5/1981..

الصورة كانت لشخص أعرفه.. لملامح مألوفة في جوهرها طرأت عليها تغييرات لم ألحقها.. لكنه مروان صديقي..

خرجت من الغرفة قابضا على البطاقة.. آلاف الصور تعصف في ذهني.. بحثت في الممرات عن الجندي متعطشا للإجابات.. فتشت كل شبر في المبنى ثم خرجت.. الطريق خاو.. وهناك الرمال بعيدة.. الشمس معلقة في السماء في الطريق للهاوية.. والجندي لا أثر له.. وجدت شخصا آخر عابرا.. أمسكته.. ارتفع حاجباه استغرابا لكن لا وقت لهذا..

اسمع هذا الشخص-قلت مشيرا للبطاقة- مروان ياسر.. كان مفقودا وهذه بطاقته عثرتها عليها عندكم.. ما الذي حل به؟

أخذ البطاقة مني ينظر إليها.. لم كل هذا البرود؟ كدت أصرخ فيه..

"هذا يعني أنه ميت"..

"هل أنت متأكد؟"..

"نعم كل المفقودات تلك للأشخاص الذين نجد جثثهم"..

"وأين هو؟"..

"مدفون.. هناك"..

"خذني هناك"..

-9-

وهناك.. في مكان قرب مقرهم.. توجد مقبرة بلا شواهد.. بلا أسماء.. ولا فردية حتى في القبر.. هناك تحت الرمال الحمراء كان صديقي يرقد.. بعيدا عن أهله.. عن موطنه.. عن أصدقائه.. هناك وسط العدم وحيدا كان يرقد.. كنت في حالة أقوى من أن أحزن.. أو أرتاح لأنني عرفت ما حل به.. كل ما فعلته أنني وقفت وتذكرت آخر مرة رأيته فيها منذ اثنا عشر عاما يومها قلت له كلاما مخزيا..

كنت جالسا فوق الجبل الذي كنا نقفز منه أنظر نحو النهر بمائه الموحل.. بدأ المطر يهطل شذرا.. قطراته دافئة تسيل على جبهتي.. وجنتاي.. ويداي.. أتذكر أن جمال المكان سحرني في تلك اللحظة بالذات.. فشعرت بنقاء داخلي مهد للتسامح أن يتسلل إلى قلبي.. تجاه نفسي.. تجاه النهر.. تجاه كل من أعرفهم.. ثم استمرأت اللحظة أكثر ليغمرني شعور باليقين.. بأنني سأنجح في مجابهة الحياة بالثمانية عشر عامل التي امتلكتها وجلدي الأبرص.. لكن ما لم أكن أعرفه وقتها أن مشكلة الشباب.. مشكلة النقاء.. مشكلة اليقين الذي جاء من العدم.. حين لا يكون مبررا.. حين يأتي من لحظة اصطفت فيها الكواكب.. والفصول والهواء وكل الوجود أثناء سيره نحو الفناء والهلاك.. هذا اليقين كان معرضا للتزلزل بأبسط الهزات..

سرعان ما زالت اللحظة بازدياد هطول المطر.. شلالات نزلت علي.. فاحتميت منها تحت الأشجار قرب الضفة..

انتظرت هناك بقية الأجرام لتهوى على رأسي..

جاءت على شكل صوت يناديني.. "منذر" سمعت صوت خطوات مروان وهو يتخلل الأشجار.. ثم لمحته مبتلا يتحسس طريقه..

"هنـا" صرخت كي أدله على مخبئي.. فاقترب.. دنا مني وجلس مكتفا يديه.. لم يكن الجو باردا ولم أفهم أنه يحتمي مني لا من المطر..

جلسنا هناك.. أنا أشعر بزهو لا مبرر له.. وصديقي يفكر.. لم أعرف وقتها ما كان يعتمل في صدره.. كان يبدل نظره بيني وبين النهر.. ويتفحص الأرض تحته.. ظننت أنه يبحث عن كلمات الوداع.. أو يريد أن يتمنى لي حظا سعيدا.. كنت قد أعددت ردي بأني سوف أحتضنه فقط.. فالكلمات لم تكن لتعبر كثيرا عن صداقتنا..

هدأ المطر قليلا لكن السماء الملبدة كانت تنذر بالوعيد.. وأن العاصفة لم تنتهي..

"سترحل أيها الخائن" جاء صوت مروان متهكما..

"نعم.. سأرحل عن دنقلا.. وأنت ما زلت مصرا على البقاء؟"

"أنت تعرفني.. لا أحب الابتعاد عن أهلي.. لا أحب البقاء وحدي.. سأكمل الدراسة هنا وأعود للمنزل كالمعتاد.. أحافظ على مستوى الضلال والنظام في الحي.. تعرف.. الدراسة لم تستهويني ولولا إصرار أخوتي لبحثت عن عمل منذ الآن.. وعندما تعود ستجدني هنا"..

"هززت رأسي.. سأعود ونجلس في النادي مثل العجائز.. نشتم الهلال والمريخ.. ونشتم الوالي.. ونشتم بعضنا"..

"بالضبط.. هل يوجد ما هو أجمل من هذا؟"

"أبدا"..

لمع كل شيء بفعل البرق.. وبدا أن كل شيء توقف لثوان.. ثم تبعه صوت الرعد كمدافع تضرب على الضفة الأخرى..

ألقيت نظرة نحو مروان.. مرتجفا كطفل خائف.. "ما بك؟" سألته..

ضاقت عيناه حزنا.. كما يحدث لجفني أمي.. لكنه لم يتكلم..

"مروان"..

زفر نفسا ضحلا.. وتحدث بصوت لم أعده به..

"نعم.. لابد أن أقول لك.. لم أعد أحتمل.. أشعر.. أحس بأني.."

ثم وجه نظره إلي بحثا عن القوة..

"اهدأ.. تستطيع إخباري الآن.. لا داعي لانتظار لحظة الموت.. قلت متهكما"..

"اسمع.. أنا لم أقصد.. أقسم لك أن الأمر حدث سريعا.. أنا حتى لم أفكر ولم أختر أن أفعل ما فعلته.. وأنت تعرف.. وأنا نفسي أعرف.. يقينا.. أنني لم أكن لأؤذي زين أبدا.. هو أخي كما أنت أخي"..

عندما سمعت اسم زين.. اقشعر بدني.. وقفزت كل خلاياه صوب مروان تريد إسكاته.. ربما لأنها علمت أن الأمر ليس جيدا.. لا يمكن أن يكون.. لكن جزءا مني.. جزءا مولعا بالدمار.. أراد أن يعرف..

"ماذا تقصد.. ما الذي حدث بالضبط؟"

"لقد راجعت ما حدث في عقلي مرارا.. يوم غرقنا.. كنت أنت قرب عمر وأخوك بيني وبين شوقي.. وكنا نسبح إلى أن جرفنا التيار.. عندما جرفني أنا كنت وحدي.. وقاومت.. كنت أمد يدي كثيرا.. وفي لحظة يأس أمسكت بي يد.. صغيرة.. سألت شوقي كثيرا بعد أن خرجنا إن كان هو من مد يده لكنه قال لا.. عندما أمسكت باليد سحبتها للأسفل.. لم أرد أن أسحبها كنت فقط أريد أن أتشبث"..

"لم أفهم؟!.. "

كنت أنظر لمروان وأرى عيناه تمتلئان بالدموع.. ولا أتذكر إن كان الماء الدافئ على وجنتي دموع أم مطر..

"ماذا تقصد؟!!.. "

"تلك كانت يد زين.. أظن أنني أغرقته وأنا أتشبث به للخروج من النهر"

كان أبي يظن أن بي شيطانا.. يظن فقط دون تأكد.. لكنني أعلم.. أعلم أن الشيطان استلم مني زمام التصرف في تلك اللحظات وأنا سمحت له.. لا أعلم تحديدا ما الذي قلته لمروان لكني شعرت بفمي يتحرك.. وبجسدي يضرب ويركل.. لا أعلم لكم من الوقت استلم القيادة.. لثوان.. لدقائق.. لكنه أنجز الكثير.. عندما أعاد لي جسدي كنت أنا فوق مروان.. مطبقا على عنقه بيدي.. وهو يئن.. مستسلما.. خائرا.. وهذا ما أفزعني أن أراه مغلق العينين وروحه تتسرب من بين يدي..

أقسم أنني لم أرد التوقف.. كنت سأقتله وأكمل ما فعله الشيطان.. وهو بدا راضيا بما سيحدث عالما أنها العدالة..

بدأ يتلوى كالمذبوح.. يحاول أن يقول شيئا.. لكنني لم أرد أن أسمع..

كان الجنون قد بلغ أوجه في تلك اللحظة.. لذا فما الضير في أني سمعت صوت أخي زين.. من خلفي يقول توقف..

ربما لو كنت سامحته وقتها لتجنبنا الكثير من المآسي.. ولكن كل شيء وله وقته..